الهجاء فى الأدب الأندلسى

دكتور
فوزى عيسى

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الهجـــاء فـــى الأدب الأنـــدلسى

الهجاء فى الأدب الأندلسى

دكتور

فـــوزى عيســـى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

٢٠٠٧م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨- الإسكندرية

مقدمة :

ازدهرت الدراسات الأندلسية فى السنوات الأخيرة ازدهاراً ملحوظاً ، وتنوعت جهود الباحثين المتخصصين فى هذا الميدان ، فأزيل غبار النسيان عن كثير من المخطوطات ، وأفردت دراسات تؤرخ للعصور الأدبية فى الأندلس ، وتستنبط الظواهر والسمات ، وتبرز نشاط الشعراء والأدباء ، وأقبل فريق من الباحثين على دراسة الموشحات والأزجال باعتبارهما فنين أندلسيين خالصين ، بينما عكف آخرون على ما كتبه المستشرقون من إسبان وغير إسبان فنقلوه إلى اللغة العربية لتكتمل الصورة ويتحقق التواصل بين الباحثين العرب وغيرهم .

وقد وجد فى الدراسات الأندلسية اتجاه يهدف إلى إفراد كل غرض من أغراض الشعر الأندلسى بدراسة مستقلة ، فدرس الغزل الأندلسى كما درست الطبيعة والرثاء وشعر الغربة والشعر الدينى ... إلخ .

غير أن موضوع الهجاء لم يستأثر بدراسة مستقلة ، وغاية ما كتب عنه لا يتجاوز الإشارات العابرة المتناثرة أو الأحكام العامة ، حتى لقد ظن كثير من الباحثين أن الهجاء لم تقم له سوق رائجة فى الأندلس ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فأنكر وجود الهجاء كغرض من أغراض الشعر الأندلسى معللا رأيه هذا بأن البيئة الأندلسية المتحضرة تعاف الهجاء وتمجه ، ومما قوى هذا الزعم أن بعض المصادر الأندلسية لم يتسع صدرها لشعر الهجاء فأسقطته وأغفلت ذكر شعرائه ، بيد أن صدور بعض نقاد الأندلس وبعض أصحاب المصادر الأندلسية عن هذا الموقف لدوافع دينية وأخلاقية وسياسية لا ينفى وجود هجاء أندلسى ، بل لا ينفى ازدهاره ، وهذا ما نحاول أن نتتبعه فى هذه الدراسة .

ولا شك فى أن الهجاء باب قديم من أبواب الشعر العربى ، وهو فن عرفته الآداب الأجنبية قديماً وحديثاً ، وإذا استبعدنا هذا الضرب من الهجاء الذى يقوم على البذاءة والفحش والسب والمباشر ، فإن الهجاء بضروبه الأخرى

التى تقوم على التلميح والرمز والإضحاك ورسم الصورة الكاريكاتورية الساخرة يبقى فى نظرنا فناً له سماته وملامحه الخاصة ، وهو بهذه الصورة التى أشرنا إليها يبدو فناً عسيراً لا يقدر عليه إلا من منحه الله موهبة خاصة ، ومن زود بمقدرة تتيح له أن يلمح الدقائق والجزيئات ويبرزها بمهارة تستدعى السخرية والإضحاك .

ولست مع أولئك الذين يرون أن الهجاء " صار اليوم فى عداد الأغراض الشعرية المنقرضة ، أو التى أشرفت على الانقراض [1] " ، فالهجاء لم ينقرض ولم يمت ، ولكنه اتخذ وجهات أخرى ، فلم يعد هو ذلك الهجاء القبلى أو الشخصى أو الذى يعتمد على السب الصريح ، بل تطور بتطور الزمن والحضارة والثقافة ، وأصبح يختفى وراء مسميات أخرى كثيرة .

ولا أتفق مع من ينادون بإسقاط الهجاء أو استبعاده من أبواب الشعر العربى لان ذلك تراث خلفه أسلافنا فضلاً عن أن الهجاء لا يقوم كله على البذاءة والإفحاش ، بل إن النظر إلى الهجاء من هذا الجانب وحده لا يخلو من قصور وإجحاف ، فالهجاء من زاوية أخرى يمثل روح النقد والمعارضة لكثير من سلبيات الأفراد والمجتمع ، ووسيلة لإظهار أوجه القصور والخلل ، وكشف العابثين والمخادعين ، إنه يسعى إلى تحقيق عالم مثالى عن طريق السلب لا الإيجاب أو بطريقته الخاصة التى لا تتفق مع الطريقة التى تعارف الناس عليها ، وقد سبقنا إلى تقرير هذه الحقيقة أستاذنا الدكتور محمد حسين حين قال : " الواقع أن فى الهجاء قوة هجائية بنائية إلى جانب هذا المظهر الهدام، الذى هو أول ما يطالع المتصفح له ، فهو حين يهاجم شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من النظم أو نزعة من النزعات ، يتصور فى حقيقة الأمر حياة أخرى

---

[1] أدب الفقهاء تأليف عبد الله كنون ص ١٦٤ .

بأشخاصها ونظامها وأسلوبها . هي مثله الأعلى الذى يطمح إليه ويدعو له فالهجاء له فلسفة في الحياة يريد أن يؤديها إلينا " . [1]

لهذه الأسباب كلها آثرت أن أفرد الهجاء الأندلسي بدراسة مستقلة ، ولم تقتصر هذه الدراسة على شعر الهجاء وحده بل جمعت بين الهجاء شعراً ونثراً ، وهي تشتمل على ثلاثة أبواب فتعرض في الباب الأول لمعنى الهجاء ومفهومه ومراحل تطوره . ويختص الباب الثاني بدراسة اتجاهات الهجاء في الأندلس ، كالهجاء السياسي ، والاجتماعي ، وهجاء العلماء وأصحاب المهن ، وهجاء التندر والسخرية ، والمعارك الهجائية بين الشعراء .

أما الباب الأخير فيقف عند الجوانب الفنية للهجاء ويقع في فصلين ، أحدهما عن لغة الهجاء وأساليبه ، والآخر عن صور الهجاء الفنية .

ولا أريد أن أشير إلى الصعوبات التي واجهتني في التنقيب عن النصوص خاصة وأن بعض المؤلفين أبوا أن يدرجوا الهجاء في مؤلفاتهم .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

---

(1) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ٢٦ .

الباب الأول

(مراحل تطور الهجاء)

- معنى الهجاء
- مراحل تطوره
- العوامل المؤثرة فيه

الهجاء بمعناه اللغوى والأدبى :

تـدور مـادة (هجـو) فـى المعاجم العربية حول عدة معان نجملها فيما يلى : (1)

١- الهجاة : الضفدع .

٢- وهجو يومنا : اشتد حره .

٣- وهجيت عين البعير : غارت .

٤- وهذا على هجاء هذا : على شكله وقدره ومثاله .

٥- والمرأة تهجو زوجها وتهجو صحبته : أى تذمه وتشكو منه .

٦- وجـاء فى الحديث الشريف : " اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وهو يعـلم أنـى لست بشاعر ، فاهجه اللهم والعنه عدد ما هجانى أو مكان ما هجانى"

٧- والهجاء تقطيع اللفظة بحروفها : أى تعدادها وتفصيلها .

٨- ويقال : هجى البيت هجياً : أى انكشف .

٩- والهجى : الشبع من الطعام .

١٠- ومما هو قريب من المادة : الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب .

١١- والهوج بمعنى الحمق والتسرع .

١٢- والرياح الهوجاء : التى تقتلع البيوت .

وهذه المعانى كلها تتصل اتصالاً وثيقاً بالمعنى الأدبى لكلمة (هجاء) ، فقد يكون الهجاء بمعناه الأدبى مأخوذاً من الضفدع ، فهو قبيح الشكل ، بشع الصـوت ، وقـد يكون مأخوذاً من اشتداد الحر ، ففيه معنى التنكيل والتعذيب وقـد يكـون مـأخوذاً مـن الأصل الهجائى ، فهو يكشف عن سيئات المهجو ...

---

(1) انظر لسان العرب المجلد ١٥ ص ٣٥٣ وما بعدها . أساس البلاغة ٢ / ٥٢٥ .

فمعانى الكلمة تدور حول البشاعة والشدة والنكال والكشف . والكلمة مرنة تحتمل الزيادة ، وليس هناك ما يمنع من توسيع مدلولها الأدبى بحيث يشمل غيرها من المعانى القريبة جداً من المعنى الأول ، وهى وإن كانت قد أخذت شكلاً ثابتاً بهذا المعنى الذى اصطلح عليه القدماء ، فما ينبغى لها أن تجمد على هذا الشكل إن فرض عليها تطور الفنون الأدبية أن تتسع أو تضيق "[1] .

فالهجاء – بمعناه الأدبى – فن من فنون الشعر " يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء ، وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب "[2] .

والهجاء باب قديم من أبواب الشعر العربى ، وقد أشار النقاد القدماء إلى رسوخ هذا الفن وثباته فى الشعر . فذهب ابن سلام إلى أن الشعر يندرج فى أربعة موضوعات عد الهجاء واحداً منها وهى : الفخر والمديح والنسيب والهجاء[3] وجعل أبو تمام الهجاء واحداً من أغراض الشعر العشرة التى ضمنها حماسته ، ورأى (قدامة) أن الشعر ينحصر فى أربعة موضوعات هى المديح والهجاء والحكمة واللهو[4] وجاء (أبو هلال العسكرى) فأحل الهجاء محلاً أثيراً فى (ديوان المعانى) ، فوضعه فى الباب الثالث من أبواب الشعر التى قسمها إلى اثنى عشر باباً[5] وحذا حذو أولئك النقاد المرزبانى فى (موشحه) وابن رشيق فى (عمدته) .

ورأى بعض النقاد أن الهجاء هو نقيض المدح على نحو ما نجد عند قدامه[6] وذهب (أبو هلال) إلى أن أبلغ الهجاء ما كان " بسلب الصفات المستحسنة التى تخص النفس من الحلم والعقل وما يجرى مجرى ذلك . وليس

---

(1) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية تأليف الدكتور محمد حسين ص ١٤ - ١٥ .

(2) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص١٢ .

(3) طبقات فحول الشعراء ص ٣٧٨ ٣٧٩ .

(4) نقد النثر ص ٨١ .

(5) ديوان المعانى ٢ / ٣١

(6) نقد الشعر ص ٣٥ .

الهجاء بقبح الوجه وضئولة الجسم وقصر القامة وما فى معنى ذلك بليغاً مرضياً "[1] أى أنه يفضل الهجاء الذى يزرى بأخلاق المهجو لا بخلقته .

والواقع أن فن الهجاء مر بمراحل تطور عديدة على مدى عصور الأدب وتغيرت مفاهيمه وأساليبه وصوره من عصر لآخر لاختلاف دوافعه وأسبابه ولتباين أذواق الناس من حقبة لأخرى ، ففى العصر الجاهلى كان هجاء الشعراء يدور فى معظمه حول الانتقاص من نسب المهجو والإزراء بمكانة القبيلة وإلصاق المخازى بها ، وكان الهجاء يضطلع بدور خطير فى المجتمع الجاهلى حيث كان للكلمة أو للشعر مكانة لا تقل عن مكانة السيف ، وجاء الإسلام فغض من الهجاء وحاربه لأنه يتعارض ومبادئه السمحة التى تنبذ التجريح والتشهير ، ويروى عن الرسول عليه السلام قوله : " من قال فى الإسلام هجاء مقذعاً فلسانه هدر " [2] .

وقد أكد عمر – فى خلافته – موقف الإسلام من الهجاء حين نهى عن الهجاء المقذع الذى يقوم على الإفحاش وكشف العورات ، كما أمر بسجن الحطيئة عندما علم بهجائه للزبر قان بن بدر فى قصة ذائعة الصيت .

غير أن الهجاء ما لبث أن عاد بصورة قوية فى العصر الأموى بعد أن بعثت العصبيات القبلية من جديد وتطور الهجاء الجاهلى إلى فن النقائض غير أنه لم يكن يراد بها الجد كما كان شأن الهجاء فى الجاهلية ، ولكن أريد بها اللهو والإضحاك ، كما كانت أشبه بمناظرات أدبية أوجدتها ظروف الحياة الاجتماعية والعقلية فى العصر الأموى أكثر من كونها أهاجى بالمعنى القديم المعروف فى الجاهلية [3] .

---

[1] ديوان المعانى ١ / ٢٠٢ .

[2] العمدة ٢ / ١٢٨ .

[3] التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٢٠٤ .

وطرأ على فن الهجاء تطور كبير في معانيه وأساليبه لدى شعراء النقائض الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل ، وإن تباينت أساليبهم في تناول هذا الفن " فغلب على الأخطل فنه الشعرى الرصين الذى يعنى بالألفاظ ، ويدقق في اختيار العبارات ، فكان في هجائه يرضى فنه الشعرى الرفيع بأكثر مما يستجيب لغضبه ، وللغيظ الذى يأكل نفسه ، فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والدهماء ، ولكن رصانة ألفاظه ، وجزالتها ، وما تضمنته من معاني شعرية ، أضفت على هجائه كثيراً من الوقار الذى حرمه روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعنيهم من الهجاء إلا النكتة المضحكة والسخرية البارعة المسلية . وكذلك ظل الأخطل في هجائه – كما هو في كل شعره – شاعر خاصة كما يقول قدماء النقاد وأما جرير فقد غلب عليه مرحه ودعابته ، فكان مذهبه في الهجاء قوله : (إذا هجوت فأضحك) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظاهم عند جمهور الناس ، ولم يكن يتكلف في شعره ما يتكلف صاحباه من العناء ، فكان هجاؤه أكثر ذيوعاً على ألسنة العامة. أما الفرزدق فكان معنياً بفنه ، ولكنه لم يكن موهوباً كجرير ، ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهدها ، حتى لقد وصفه النقاد بأنه ينحت من صخر " [1] .

وما إن نصل إلى القرن الثاني الهجرى حتى نرى " الهجاء قد تطور تطوراً كبيراً ، تطور في معانيه وأهدافه وأسلوبه وألفاظه وصوره ، وقد تراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال ، وبين الارتفاع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع الذى يدل على طاقة فنية مبدعة وذهنية ساخرة ، تعتمد على فن أصيل وروح مرحة ضاحكة تترفع عن السب الرخيص والاتهامات الدنيئة ... وهذا التطور كان أمراً لابد منه خضوعاً للعوامل المختلفة التى أثرت في تطور المجتمع نفسه واختلاف معاييره وقيمه"[2] .

---

[1] الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ص ١٣١ .

[2] الشعر في القرن الثاني الهجرى ص ٣١٦ .

والواقع أن التطور الفنى الحقيقى للهجاء بدأ فى القرن الثانى الهجرى كما لاحظ أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة ، وهذا التطور " لا يتضح فى القصائد الزاخرة بالسباب والاتهامات والفحش – وخاصة فى تلك الأهاجى التى كانت تدور بين أفراد عصبة المجان وتزخر بألفاظ وتعابير يندى لها الجبين ولكننا نعتبر أن التطور الفنى الذى حدث أساسه الهجاء الساخر الذى يستهدف إضحاك الناس على المهجو وسخريتهم منه ، ولهذا يعتمد على فن أصيل فى رسم شخصية المهجو من ناحية معنوية أو جسمية ، ولكنه ليس رسماً تصويرياً بل هو رسم (كاريكاتيرى) يبعث على الضحك ، ويستعين الشاعر فى هذا النوع الأصيل من الهجاء بكل معارف عصره ، وبجميع عناصر الفكاهة ، والهزل الشائعة بين الناس " [1] .

وهذا الهجاء (الكاريكاتيرى) الساخر هو الفن الذى نماه (ابن الرومى) بعد ذلك ، واعتمده كفن أصيل ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف فقال [2] : إن الهجاء يعد من أهم الجوانب التى تلفت النظر فى شعر ابن الرومى فقد أعده مزاجه الحاد ، وقدرته البارعة فى لمح الدقائق والعيوب الجسمانية لضرب من الهجاء يمكن أن نسميه " الهجاء الساخر " إذ كان يعبث بمهجويه عبثاً لاذعاً يشبه عبث أصحاب (الصور الكاريكاتورية) ، فهو يقف عند نواحى الضعف ويكبرها ويظهرها فى أوسع صورة لها . وعلى نحو ما كان يلتقط العيوب الجسدية كان يلتقط العيوب الصوتية والمعنوية " .

وقد برع ابن الرومى فى هذا الضرب من الهجاء براعة كبيرة ، وشهر به حتى لقد أصبحت طريقته فى الهجاء نمطاً يحتذيه كثير من الشعراء بمن فيهم شعراء الأندلس على نحو ما سيتضح فى حديثنا فيما بعد .

---

[1] المرجع السابق ص ٣١٣ .

[2] الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢١٢ ٢١٣ .

العوامل المؤثرة فى الهجاء الأندلسى :

وعلى نحو ما وجد الهجاء فى الشعر المشرقى ، وجد كذلك فى الشعر الأندلسى ، وقد رشحت لوجوده عوامل شتى ، نجملها فيما يلى :

العوامل السياسية :

إن المتتبع للأحداث التاريخية فى الأندلس يشعر أن الأندلسيين لم يقدر لهم الاستمتاع بحياة سياسية مستقرة ، " فعهد الولاة كان عهداً مضطرباً ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهراً بين القيسية واليمنية " [1] .

وأخذت عوامل الضعف والانقسام تدب فى كيان المجتمع الأندلسى ، ففى أواخر حكم الأمويين ابتليت الأندلس بخلفاء ضعفاء ، وسرعان ما أضحت البلاد نهباً لفتنة عاتية قضت على الخلافة الأموية ، ومزقت وحدة الأندلس ، فانقسمت إلى دويلات يستأثر بكل واحدة منها حاكم أو أمير ، وأنفق أمراء الطوائف أموالاً طائلة فى تشييد الحصون لحماية ملكهم ، وانساقوا وراء مصالحهم الذاتية ، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن يدفعوا صاغرين الجزية للروم ، ودارت رحى الحرب فيما بينهم ، واستعانوا بالروم فى حل خلافاتهم ، بل إن بعضهم تحالف مع الروم ضد جيرانه من المسلمين ، وبعد أن دالت دولة الطوائف خضعت الأندلس لحكم الأفارقة ، وأصبحت تابعة لا متبوعة ، وفى أواخر عصر الموحدين أخذت المدن الأندلسية تتهاوى فى يد الإسبان مدينة إثر أخرى ولم يبق سوى غرناطة وبعض الحصون التى ظلت تقاوم ردحاً من الزمن إلى أن سقطت فى آخر الأمر مؤذنة بأفول شمس الإسلام عن الأندلس .

ولم يقف شعراء الأندلس موقفاً سلبيا إزاء هذه الأحداث ، وإنما ارتفعت أصواتهم تندد بسياسة حكام الأندلس ، وتنتقد تصرفاتهم ، وتصمهم بالخزى

---

[1] فى الأدب الأندلسى ، الركابى ، ص ١٤ .

والمهانة ، كماعبر الشعر عن الصراعات القبلية والدعاوى الشعوبية كما سنرى في حديثنا عن الهجاء السياسي .

العوامل الاجتماعية :

إذا قرأت ما نظمه الأندلسيون من أشعار في الزهد والتصوف ، أو وقفت على جهودهم في الفقه والعلوم الدينية ، خيل إليك أن المجتمع الأندلسي مجتمع زهد وتقى ، وإذا قرأت ما قالوه من شعر في الخمر والغزل والمجون تراءى لك أن الأندلسيين لم يعرفوا غير المجون واللهو ، وأنت في كلا القولين محق ، فقد اتصف الأندلسيون بالحدة والتطرف في نظرتهم للأشياء فقد وجدت بيئات الفقهاء والزهاد الذين كانوا يأخذون بالأشد في كل حكم من الأحكام المتصلة بأمور الدين ، كما وجدت معها بيئات أخرى مالت إلى التساهل والتحرر فصار فيها المحظور مباحاً ، وأصبح غير المألوف مألوفاً ، وأسرف كثير من الناس في سلوكهم الاجتماعي ، وعاش بعضهم حياة لاهية صاخبة وانساق كثير من الحكام وراء هذا التيار العابث ، فوصف أحدهم بأنه كان " ينغمس في لذاته ويقيم في ذلك مصطبحاً ومغتبقاً " [1] ووصف آخر بأنه كان " يركن إلى ملذاته ولا يعنيه شيء من أمور مملكته "[2] وظهرت مناكر كثيرة في المجتمع الأندلسي ، وفي " نفح الطيب " إشارات كثيرة إلى ضروب التحلل والفساد ولاسيما ما كان يحدث في وادي اشبيلية ، " فقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر ، لاناه عن ذلك ولا منتقد " [3] .

وقد أفاض الشعراء في وصف ما كان يدور في مجالس الخمر من تهتك وعبث ، وانتشر تيار المجون ، وكثرت عصب المجان من الشعراء الذين كانوا يتحللون في حياتهم من كل قيد ، فيرتكبون المآثم في غير مواربة ، ويدعون

---

(1) روض القرطاس ص ١٦٠ .

(2) نفسه ص ١٦٠ .

(3) نفح الطيب ٢ / ص ٥ .

إلى اللذة والمجون جهراً ، وينادون بالزندقة ، ويدعون إلى اعتناق الخمر وتقديسها " [1] .

وتمتعت المرأة الأندلسية بحرية كبيرة حتى لقد لهجت بعض شواعر الأندلس مثل نزهون الغرناطية ، وولادة بأشعار فى الهجاء بالغة البذاءة والفحش . وكان من الطبيعى أن يفرخ الهجاء ويزدهر فى هذا المناخ الاجتماعى، فكثر السباب والملاحاة وانتقاد بعض المظاهر الاجتماعية الفاسدة .

أثر البيئة المتحضرة :

قد يتوهم بعض الباحثين أن البيئة المتحضرة تعاف الهجاء وتمجه فلا تقوم له قائمة فيها ، وهذا – فى ظنى – رأى خاطىء ، فالتحضر يرقى بالعقول والأذهان والأذواق ، وكلما ارتقى العقل صار أكثر قدرة على لمح الدقائق والعيوب، وجليت أمامه أوجه الخلل والقصور . وقد تختلف طريقة تناول هذه العيوب من بيئة لأخرى ولكن الموضوع نفسه يظل ثابتاً ، فالشعراء الذين عاشوا فى بيئة بدوية خشنة يتلون هجاؤهم بما طبعوا عليه من بداوة وغلظة . أما الشعراء الذين وجدوا فى بيئة متحضرة فهم يتناولون ما وقعت عليه أعينهم من نقائص وعيوب بصورة مغايرة تتميز بالسخرية والتهكم وتناسب الذوق المتحضر.

وربما ساهمت البيئة المتحضرة فى تهيئة الجو الملائم للهجاء بما تنطوى عليه من تعقيد وعلاقات متشابكة وبما يشيع فيها من فراغ وجدة ، وهى – فى جملتها – أسباب تدعو إلى الهجاء وتحفز الشعراء إليه .

التكسب بالهجاء :

ومما أعان على شيوع الهجاء فى الأندلس وجود طبقة من الشعراء الذين احترفوا الهجاء واتخذوه وسيلة للكسب والارتزاق ، وقد وجد هؤلاء الشعراء رواجاً لبضاعتهم فى المجتمع الأندلسى . فقد ذكر المقرى أن أهل الأندلس

---

[1] الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٢١٠ – ٢١١ .

" كان لهم في الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد " [1] .

ولم تكن الرهبة من الهجاء وقفاً على أهل الأندلس وحدهم ، بل تجاوزتهم إلى الحكام أنفسهم ، فمنهم من كان يتقرب إلى شعراء الهجاء ويداريهم خوفاً من حدة ألسنتهم ، بل لقد لجأ بعضهم إلى حيل طريفة لصرف الشعراء عن الهجاء على نحو ما فعل إبراهيم بن حجاج حاكم اشبيلية مع الشاعر محمد بن يحيى القلفاط (ت٣٠٢) ، إذ أمعن هذا الشاعر في هجاء أهل بلده ، وأفحش في ذكر كبرائها وعظماء دولتها ، وهجا إبراهيم بن حجاج نفسه لأنه لم يجزل له العطاء فقال :

أبغي نوال الأكرمين معاولا   أبغي نوال البومة النكباء

وبلغت القصيدة مسامع ابن حجاج فغضب ولكنه احتال لصرفه عن الهجاء إذ دس إليه من يخبره بأنه سيرسل إليه من يأخذ رأسه على فراشه ، فخاف القلفاط على نفسه وكف عن الهجاء ، فحمد الناس لابن حجاج هذا التصرف لشدة ما كان يلحقهم من هجاء القلفاط [2] .

وكان سراة القوم من الأندلسيين أشد الناس خوفاً من الهجاء وتذكر الروايات أنهم كانوا يتملقون شعراء الهجاء ويخصونهم بالأموال والهدايا اتقاء لألسنتهم . ويمكن أن نعد الأعمى المخزومي (ت٥٤١هـ) زعيم شعراء هذه الطبقة المتكسبة بالهجاء ، وقد وصفه الحجاري في المسهب بأنه " بشار الأندلس انطباعاً ولسناً وأذاة ، وهو الذى أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد ، ولا يزال يخبط الآفاق بعصاه،ويقع فيمن أطاعه أو عصاه، وأصله من المدور ، وقرأ بقرطبة ثم جال على البلدان وأكثر الإقامة في

---

[1] نفح الطيب ١ / ١٩٠ .

[2] البيان المغرب ٢ / ١٩٣ .

غـرناطة"[1] وقال عنه ابن الخطيب في الإحاطة [2] " كان أعمى ، شديد القحة والشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً على الأعراض ، سريع الجواب ذكي الذهن، فطـناً لـلمعاريض ، سابقاً في ديوان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره " ووصف فـي (خـريدة القصر) بالإجادة في الهجاء ، والإغارة على الأعراض ، والإصابة فـيها إلى الأغـراض ، وكـان مهيـب الصـولة ، مـرهوب الجولـة ، مخصوصـاً بالتحايا والتحف والهدايا والطرف " [3] .

ومـن أبـرز شـعراء هذه الطبقة أيضاً (على بن حزمون) أحد شعراء الهجاء فـي عصر الموحدين ، ويشير المراكشي إلى أن ابن حزمون نال عند قضاة المغرب وعماله جاهاً عظيماً وثروة ، كل ذلك خوفاً من لسانه ، وحذراً من هجائه [4] .

وكان لهذه الطبقة من الشعراء أثر في شيوع ضرب من الهجاء المقذع الصريح فهـم لم يـتورعوا عـن شـيء ، ولم يـراعوا حرمة ولا ذمة ، ولم يبالوا بما تقذفه ألسنتهم من بذاءة وفحش .

نقاد الأندلس والهجاء :

سـيطرت الـنزعة الخلقـية والاتجاه المحافظ على النقد الأندلسي ، فخضع الـنقاد لهـذه الـنزعة حـين أبـوا أن يدرجـوا الموشحات في مؤلفاتهم وهي نبت بيئـتهم ، وابـتكار قرائحهم ، كما نفروا من الهجاء ، فصانوا كتبهم عنه ، ولم يسـتجيزوا روايـته ممـا حجـب عنا كثيراً مما قيل فيه . وقد صدر ابن حزم في آرائـه الـنقدية عـن هـذه النزعة فلم يستجز من رواية الشعر إلا ما تضمن الحكم والخـير مجـدداً دعـوة ابـن قتيـبة الـتي نـادى بها من قبل ويرى ابن حزم أنه ينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب :

---

[1] المغرب ١ / ٢٢٨

[2] الإحاطة ١ /٤٣٢ .

[3] خريدة القصر ٢ /٢٥٥

[4] المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

أحدهـا :الأغـزال والرقـيق . فإنهـا تحـث عـلى الصـبابة وتدعو إلى الفتنة وتحض على الفتوة ، وتصرف الناس إلى الخلاعة واللذات وتسهل الانـهماك فى الشطارة والعشق وتنهى عن الحقائق حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد فى الديـن وتبذير المال فى الوجوه الذميمة وإخلات العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجـبات ، ويـرى أن سمـاع شعر رقيق ينتقض بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحـها ومعاناتها برهة ، لاسيما ما كان يعنى بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق . ويهون المعاصى . ويردى جملة [1].

والضـرب الثاني : الأشعار المقولة فى التصعلك وذكر الحروب كشعر عنترة وعـروة بين الورد وسعد بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه الأشعار تثير النفوس ، وتهـيج الطبـيعة ، وتسـهل عـلى المـرء مـوارد الـتلف فى غير حق وإلى خسارة الآخـرة مـع إثـارة الفـتن وتهويـن الجنايات والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء .

والضـرب الثالـث : أشـعار الـتغرب وصفات المفاوز والبيد والمهامه ، فإنـها تسـهل التحول والتغرب ، وتنشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى .

والضرب الرابع : الهجاء ، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه ، فإنه يهون على المرء الكون فى حالة أهل السفه من كناسى الحشوش والمعاناة لصنعة الـزمير المتكسـبين بالسفاهة والنذالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهـاك حرم الآباء والأمـات . وفى هذا حلول الدمار فى الدنيا والآخرة .

وهـناك ضـربان من الشعر يعتبرهما ابن حزم من المباح المكروه وهما : المدح والرثاء .

---

[1] رسائل بن حزم رسالــــــــة (مراتب العلوم) ص ٦٥ ٦٧ .

فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح ، وهذا يقتضى للراوى ذلك الشعر الرغبة فى مثل ذلك الحال ، وأما كراهتنا لهما فإن أكثر ما فى هذين النوعين من الكذب ولا خير فى الكذب "[1] .

ولا يستغرب رأى ابن حزم فى الهجاء بالنظر إلى نظرته لأغراض الشعر الأخرى ، فهو يخضع الشعر لمقياس خلقى صارم ، ويصدر فى أحكامه عن نزعة فقهية متشددة تزدرى الشعر وتناصبه العداء ولا ترى ما فيه من فن وجمال.

موقف ابن بسام :

وتحكمت هذه النزعة المحافظة فى نظرة ابن بسام للهجاء ، فهو يصرح بأنه صان كتابه عن شين الهجاء ، وأكبره أن يكون ميداناً للسفاء "[2] .

ويقسم ابن بسام الهجاء إلى قسمين :

" قسم يسمى (هجو الأشراف) ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ، ولا هجواً مستبشعاً ، وهو طأطأ قديماً من الأوائل ، وثل عرش القبائل ، إنما هو توبيخ وتعبير ، وتقديم وتأخير " ، ويمثل لهذا النوع من الهجاء بقول النجاشى فى هجاء بنى العجلان :

قبيلته لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية ... إذا صدر الوراد عن كل منهل
وما سمى العجلان إلا لقولهم ... خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

ومن أمثلته هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر ، وهو قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

---

[1] رسائل ابن حزم ص ٦٥ - ٦٧ .

[2] الذخيرة ١ / ١ ص ٥٤٤ .

أما القسم الثانى من الهجاء عند ابن بسام فهو " هجو السباب الذى أحدثه جرير وطبقته ، وكان يقول : إذا هجوتم فأضحكوا " ، وهذا النوع هو الذى صنا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه ، فإن أبا منصور الثعالبى كتب فى يتيمته ما شانه وسمه ، وبقى عليه إثمه "[1] .

ويفهم من كلام ابن بسام أنه يؤثر الهجاء الذى يميل إلى التعريض والتلميح بدليل أنه يورد أبياتاً يصفها بأنها " من مليح التعريض " كقول أحد الأندلسيين فى غلام كان يصحب رجلاً يسمى بالبعوضة[2] :

أقــــول لشـــادنكم قولـــة	ولكـــــنها رمــــزة غامضــــة
لــــــزوم البعــــوض له دائــماً	يـــدل عـــلى أنهـــا حامضـــة

وهو يعجب أيضاً بقول القائل :

بيــنى وبيــنك ســر لا أبــوح بــه	الكــــل يعـــلمه والله غافـــره

وفى ظنى أن نظرة ابن بسام للهجاء لا تقوم على أساس دينى أو أخلاقى ، ومما يقوى هذا الظن عندى قوله فى ترجمة ابن صارة الشنترينى : " ولقد رأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء تربى على حصى الدهناء ، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم ، طويت عليه كشحاً ، وأضربت عن ذكره صفحاً ، وربما ألمعت منه بالأقل ، لترى فتستدل ، ولو استجزت أن أثبت فى هذا الكتاب ، بعض ماله فى هذا الباب لتحققت أنه بالجملة بائقة محاجاة ، وصاعقة مهاجاة وقد كتبت من ذلك فى كتابى المترجم " ذخيرة الذخيرة " جملة موفورة له ، ولطوائف كثيرة .. "[3] .

وهذه العبارة الأخيرة توضح أن ابن بسام لم يلتزم بموقفه المتشدد من الهجاء إلا فى كتاب " الذخيرة " — وإن كان قد أخلّ أحياناً بهذا الالتزام فى بعض ما

---

(1) الذخيرة ١ / ١ ٥٤٦

(2) المصدر نفسه ١ / ١ ص ٥٤٦ - ٥٤٧

(3) الذخيرة ٢ / ٢ ص ٨٣٥

ذكره من روايات وأشعار – ويمكن أن نرجع إقصاء الهجاء عن كتاب الذخيرة إلى عامل آخر يتمثل فى " حرص ابن بسام على المواضعات والعلاقات الاجتماعية وهو يؤرخ للأحياء من معاصريه "[1] .

وكان " عبد الواحد المراكشي " ممن أقصوا الهجاء عن مؤلفاتهم ، وقد صرح برأيه هذا فى ترجمته لابن حزمون فقال : " ولعلى بن حزمون هذا قدم فى الآداب ، واتساع فى أنواع الشعر ، .. وله مع هذا فى الهجاء يد لا تطاول غير أنه يفحش فى كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة ، ابتدأ فيها بهجو نفسه"[2] ويعقب على أبيات ابن حزمون بقوله " وله فى هذا المعنى أحسن من هذا بكثير إلا أنه أقذع فيه ، فلذلك لم أودعه هذه الأوراق لأنى لا أستجيز أن ينقل مثل هذا عنى "[3] .

وقد ابتعد بعض الشعراء عن الهجاء تأثراً بهذه النزعة ، فصدف عنه ابن حمديس – لا عجزاً منه عن مزاولته – ولكن لأن السب ليس من شيمه ولأن الإسلام يأبى أن يجرح المسلم أخاه – ويتضح هذا فى قوله :[4]

يقولون لى : لا تجيد الهجاء	فقلت : ومالى أجيد المديح
فقالوا لأنك ترجو الثواب	وهذا القياس لعمرى صحيح
فقلت : صفاتى ، فقالوا : حسان	فقلت نسيبى ، فقالوا : مليح
فقلت : إليكم ، فلى حجة	وللحق فيها مجال فسيح
عفاف اللسان مقال الجميل	وفسق اللسان مقال القبيح
ومالى وما لامرىء مسلم	يروح بسيف لسانى جريح

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسى – عصر الطوائف والمرابطين – للدكتور إحسان عباس ص ١٠٠ .

[2] المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .

[3] المصدر نفسه ص ٣٧٤ .

[4] ديوان ابن حمديس ص ٩٤ .

وقد التزم ابن حمديس بهذا المبدأ طوال حياته ، فلم يعرف عنه أنه هجا أحداً أو انزلق فى معارك هجائية مع أحد ، بالرغم من أنه كان يتعرض للهجاء من قبل بعض الحاقدين [1] وقد أشار إلى ذلك فقال [2] :

وما أنا ممن يرتضى الهجو خطة	على أن بعض الناس أصبح يهجونى
ولو شئت يوماً لانتصرت بمقول	يحيل على الأعراض حد السكاكين

ويتكرر موقف ابن حمديس من الهجاء عند الأعمى التطيلى كما فى قوله [3]

وساقط نال من عرضى فقلت له	إليك عنى فليس السب من شيمى
أعرضت عنه ولو أنى عرضت له	سقيته حمة الأفعى من الكلم

ويصدر الرصافى عن الموقف نفسه فيقول : [4]

عفا الله عنى فإنى امرؤ	أتيت الصناعة من بابها
على أن عندى لمن هاجنى	كنائن عضت بنشابها
ولو كنت أرمى بها مسلماً	لكان (السهيلى) أولى بها

غير أن هذه النزعة كانت محدودة ولذلك فهى لم تمنع من رواج شعر الهجاء ، كما أن العوامل التى أدت إلى ذيوع الهجاء كانت أقوى من هذه النزعة ، فالمجتمع الأندلسى – بتكوينه السياسى والاجتماعى والحضارى – كان مهيأ لتقبل الهجاء ، وليس أدل على ذلك مما ذكره المراكشى من أن أهاجى ابن حزمون على ما فيها من إقذاع وفحش – كانت تحفظ وتدرس فى جميع بلاد المغرب والأندلس [5] ، وقد أشرنا من قبل إلى ما روى عن بعض شواعر الأندلس من هجاء مقذع ، ومن الطريف أن نجد الحكام أنفسهم

---

[1] الشعر العربى فى صقلية ص ٤٠٧ .

[2] ديوان ابن حمديس ص ٥١٥ .

[3] قلائد العقيان ص ٢٨٢ .

[4] قلائد العقيان ص ٢٨٢ .

[5] المعجب ص ٣٧٤ .

يشاركون في الهجاء ، فثمة رواية تقول إن مجاهد العامرى كتب إلى المنصور ابن أبى عامر رقعة لم يضمنها غير قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فرد عليه المنصور برقعة جاء فيها :

شتمت مواليها عبيد نزار شيم العبيد شتيمة الأحرار [1]

ويذكر المقرى أن الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على امتحن الشعراء بهجو وزيره أبى جعفر بن عطية [2] .

---

[1] المغرب ١ / ٣٣٢ .

[2] نفح الطيب ٥ / ١٨٦ .

الباب الثاني

(اتجاهات الهجاء الأندلسي)

درج النقاد على تقسيم الهجاء تقسيمات مختلفة وإن كانت تنحصر فى ثلاثة موضوعات هى الهجاء السياسى والهجاء الاجتماعى والهجاء الشخصى . ولكن هذا التقسيم قد يضيق أو يتسع تبعاً لظروف كل عصر من العصور ؛ فالهجاء الجاهلى كان ينحصر فى هجاء الأشخاص والقبائل ، ثم اتسعت موضوعات الهجاء بعد ذلك فأصبحت تشمل الأفراد والجماعات والأخلاق والمذاهب ، وتطرق الهجاء إلى كل أمر من أمور الحياة ، حتى ليقول الجاحظ وهو محق في ذلك – " إن الشعراء يهجون بكل شيء ، ويهجون كل شيء "[1]

وعبارة الجاحظ تصدق كل الصدق على الهجاء الأندلسى ، فقد اتسعت مجالاته ، وتعددت اتجاهاته ، فوجد الهجاء السياسى ، والهجاء الاجتماعى وهجاء أصحاب الوظائف الرسمية ، وهجاء العلماء وأصحاب المهن ، وهجاء المدن ، وهجاء التظرف والسخرية ، كما نشبت بين الشعراء معارك هجائية .

وسنؤثر كل موضوع من هذه الموضوعات بفصل مستقل .

---

[1] الحيوان ١ / ٢٥٦

الفصل الأول

الهجاء السياسى

- هجاء الملوك والحكام
- الهجاء القبلى
- هجاء البربر
- هجاء اليهود
- هجاء الشعوبية

الهجاء السياسى هو كل ما يتصل بشئون الحكم وأمور السياسة ، وفيه يصدر الشاعر عن عصبية للوطن أو الإقليم أو القبيلة أو الحزب أو الدين .

والشاعر – فى هذا اللون من الهجاء – " يعبر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس بشخصيته إلا فى حدود هذه المجموعة التى يرتبط مصيره بها كل الارتباط ، فهو يفنى فيها وجوده ، ويتجرد من نزعاته وأهوائه ، ليحس بإحساسهم ، ويرى بأعينهم ، فشخصية الفرد هنا ضئيلة نحيلة ، لا تكاد تحس لها أثراً ، والدولة أو الوطن شىء حى له وجود قوى وكيان ظاهر وملموس [١] ".

وقد جاء الهجاء السياسى فى الشعر الجاهلى ولكن بمفهوم ضيق إذ انحصر فى تصوير ما شجر بين القبائل من خلافات ومنازعات ، فاقتصر على لون واحد من ألوان الهجاء السياسى هو " الهجاء القبلى " ولم يتجاوز هذا اللون إذ " لم يكن الوطن عند الجاهليين يصور حدوداً جغرافية معينة كما نتصور اليوم من هذه الكلمة ولكنه يصور جماعة من الناس تربطهم أواصر النسب ، فكان الوطن هو العصبية " [٢] .

واتسع مفهوم الهجاء السياسى بعد العصر الجاهلى بتطور الظروف السياسية وتعددت ألوانه ، فبرزت فيه عصبية الوطن والتعصب للدين أو الجنس ، واتجه جانب منه إلى تصوير الميول الحزبية ، وانصب بعضه على نقد سياسة الملوك والحكام .

(وباستقراء ما خلفه الأندلسيون من شعر فى الهجاء يتضح أن الهجاء السياسى هو أكثر اتجاهات الهجاء رواجاً . وذلك نتيجة للعوامل السياسية التى أشرنا إليها من قبل ، وقد تباينت صور الهجاء السياسى فى الأندلس ، وتوزعت بين هجاء الملوك والحكام ، والهجاء القبلى ، وهجاء الشعوبية ، وهجاء البربر والروم واليهود .

---

[١] الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ١١٤ .

[٢] المرجع السابق ص ١١٤ .

هجاء الملوك والحكام :

راج هذا اللون من الهجاء فى الأندلس بصورة كبيرة وذلك لأسباب كثيرة من أهمها تقلب الأحوال السياسية واضطرابها ، واستبداد بعض الحكام بالسلطة وإهمالهم شئون الرعية ، وتقاعسهم عن الجهاد ، ومن هذه الأسباب أيضاً ما يرد إلى عوامل ذاتية أو شخصية تتمثل فى فساد العلاقة بين الشاعر والحاكم كأن يبعده الحاكم عن دائرة اهتمامه أو يضن عليه بالعطاء .

ونلاحظ أن أغلب قصائد هذا الضرب من الهجاء لا تنسب إلى قائل بعينه وذلك لخشية الشعراء من بطش الحكام ، وتحفل مصادر الأدب بروايات تشير إلى مواقف بعض الحكام الصارمة إزاء شعراء الهجاء ، حتى أن بعضهم كان يأخذ الشعراء بالمظنة والشبهة ، كما فعل المستنصر المروانى مع ابن فرج الجياني – صاحب كتاب الحدائق – وكان ابن فرج صديقاً للمستنصر وقريباً منه ، وألف له كتاب " الحدائق " ومع هذا فقد رفع له أنه هجاه ، فسجنه حتى مات فى سجنه [1] كما تذكر الروايات أن هشاماً المؤيد قطع لسان الشاعر أبى المخش عاصم بن زايد لأنه كان جسوراً على الأعراض [2] وكان يوسف بن هارون الرمادى (ت ٤٠٣هـ) أحد الشعراء الذين تعرضوا لضرر الحكام وبطشهم ، فقد اتهم فى أيام الحكم مع جماعة من الشعراء بشعر قيل فى ذم السلطان ، ومنه هذا البيت :

يولى ويعزل من يومه   فلا ذا يتم ولا ذا يتم

ويقول ابن خاقان [3] : " وشاعت عنه أشعار فى دولة الخليفة وأهلها ، سدد إليهم صائبات نبلها ، وسقاهم كؤوس مهلها ، أو غرت عليه الصدور

---

[1] المغرب ٢ / ٥٦ .

[2] نفسه ٢ / ١٢٣ .

[3] مطمح الأنفس ص ٧٢ .

وفغرت عليه المنايا ، ولكن لم يساعدها المقدور ، فسجنه الخليفة دهراً وأسلكه من النكبات وعراً " .

ويوضح ابن حيان في المقتبس قصة الإيقاع بالرمادى ونفر من رفاقه فيقول في حوادث سنة ٣٦١هـ : " وفي يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخر منها أوقع صاحب المدينة بالزهراء محمد بن أفلح عن عهد الخليفة بالعصب البطراء من أهل قرطبة ، المستخفين بالطاعة ، العاملين بذرب الألسنة أنبهه عيسى بن قرمان الملقب بالزبراكة ، الكاتب الشاعر ، ومؤنس الكاتب مولى الأ المنذر بن الناصر ، وأحمد بن الأسعد الملقب بصدام الكاتب ، وجماعة إليهم رموا بالاستخفاف والتعطيل والغمص للخليفة والوقوع في أعراض الناس ونش مثالبهم ، في أشعار يجتمعون على صوغها ، ويتبارون فيها ، فرأى أمي المؤمنين دفع أذاهم وقطع مضرتهم بنفيهم من الأرض وإيداعهم السجن والإبلا في إهانتهم جزاء بما كسبت أيديهم ومازورت ألسنتهم ، فكان ممن ألص الطلب له والبحث عنه من مستخفيهم يوسف بن هارون البطليوسى الشاء المعروف بأبي جنيش زعيمهم ، غاب مدة والطالب له حثيث ، والنداء علي متصل ، فلما أيقن أن البقاع لا تليقه ، والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعب مستبسلاً لحتفه ، فأقبل مغيراً طلعته ، شاداً حيازيمه ، واضعاً لبداً له فو رأسه كيما يتوطأه في السجن فلم يؤبه له حتى انتهى إلى باب السج بالزهراء... " [1] .

ويذكر صاحب المعجب أن الرمادى نكب مرة أخرى في خلافة المنصور اب أبي عامر ، لأن الرمادى – كما زعم – كان مشايعاً للمصحفى وأغراه ه بهجاء المنصور ، فلما حدثت نكبة المصحفى ، واستصفيت أمواله ، التف المنصور إلى الرمادى وأوسعه عقوبة ونكالا ، وأمر بتغريبه ثم شفع له عنده فقب الشفاعة فيه ولكنه أمر الناس ألا يكلموه ، وطاف بذلك مناد في جميع جها

---

[1] المقتبس ص ٧٢ وما بعدها (ط. بيروت)

قرطبة ، فأقام الرمادى كالميت إلى أن توفى فى أواخر حكم المنصور بن أبى عامر [1] .

وهذه الروايات صادقة الدلالة على ما كان يلقاه الشعراء من عنت الحكام وقسوتهم مما دفع كثيراً منهم إلى إخفاء أسمائهم خشية ورهبة " ولا شك أن صدور شعر الهجاء الموجه للسلطة من أناس مجهولين ، يجعلنا نقرر مطمئنين ، وجود المعارضة ، وهذه المعارضة لا تتمكن من إبداء آرائها ، فهى تتخفى وتتستر وتسلك سبلاً مختلفة لإظهار وجهة نظرها تجاه الحكومة ، فقد تستغل ما يحدث بين الملك وأحد وزرائه من خلاف أو فتور لتنطقه بهجاء الملك ، والتشهير بالحكم والحكام .. وقد تلصق أهاجيها بأحد الشعراء البعيدين عن سطوة الحكم ، أو تترك أهاجيها من غير قائل معين " [2] .

ومهما يكن من أمر ، فإن تشدد الحكام مع شعراء الهجاء لم يؤد إلى تكميم أفواههم أو إسكات ألسنتهم عن المجاهرة بمساوئهم ومثالبهم ، ، فعبروا عن ضيقهم بهم ، وكشفوا عن أوجه الفساد فى سياستهم ، وتحدثوا عن انغماسهم فى الترف والملذات ، وتشبثهم بكرسى الخلافة على حساب مصالح الرعية وتظاهرهم بالنسك والورع ، وتضليل عقول الناس ، وإيثارهم الخمول والدعة ، والتخلى عن أداء الجهاد ، ولم يخل عصر من عصور الأندلس من شعراء يهاجمون سياسة الحكم وينتقدون تصرفاتهم ، فكان الهجاء السياسى " من الموضوعات الشعرية التى برزت فى فترة الحجابة ، وقد كان ذلك نتيجة لعدم سلامة الوضع السياسى فى نظر كثير من الأندلسيين ، حيث يوجد خليفة شرعى معطل ، وإلى جانبه مستبد مسيطر ، هذا إلى جانب نفوذ أم الخليفة المسماة (صبح) ، ووصول المنصور عن طريقها إلى كثير مما أراد ، ووضع كهذا

---

[1] المعجب ص ٧٠ - ٧١ .

[2] الشعر فى ظل بنى عباد ص ٢٠١ .

من شأنه أن يثير بعض الشعراء ، وينطقهم بما يعبر عن سخط الساخطين وتبرم المتبرمين [1] .

ونجد أحد الشعراء المجهولين يصم دولة المنصور بن أبى عامر كلها بالفساد ويقذف المنصور نفسه بأفظع التهم فيقول : [2]

اقترب الوعد وحان الهلاك ... وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب فى مكتب ... وأمه حبلى وقاض .... [3]

والشاعر فى هذا الهجاء الموجع يعنى بالخليفة (هشاماً المؤيد) لأنه كان صغير السن آنذاك ، ويعرض بأمه (صبح البشكنسية) وكان الأعداء يتهمون بها المنصور ، ولم ينج القاضى من لسان الشاعر ، فرماه هو الآخر بهذه التهمة الشنيعة .

ويشير المقرى إلى بعض تصرفات المنصور بن أبى عامر التى أثارت النقد والسخط فيذكر أن المنصور حجر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابة ، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنساً ، وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن ، ويأمر أن ينحى الناس من طريقه حتى ينتهى المؤيد إلى موضع تنزهه ثم يعود ، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة فى بعض الأيام لغرض له ، وكان المنصور إذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك ، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بنى أمية من الأندلس ، وأخذ مع ذلك فى قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفاً أن يثوروا به ، ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد ، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ثم فرق باقيهم فى البلاد ، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد ، وربما سكن بعضهم البادية ، وترك مجلس الأبهة وناديه ، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة: [4]

---

[1] الأدب الأندلسى .من الفتح إلى سقوط الخلافة تأليف الدكتور أحمد هيكل ص ٣١٢ .
[2] نفح الطيب ١ / ٦٠٢ ، البيان المغرب ٢ /٤١٨ .
[3] حذفنا هذه الكلمة لقبحها وهى واضحة من السياق والقافية .
[4] نفح الطيب ١ / ٥٩١ .

أبنى أمية أين أقمار الدجى ... منكم ؟ وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

ويشير ابن عذارى إلى ما جرت عليه سياسة بعض ملوك بنى أمية من سوء وفساد فينقل عن ابن حيان قوله عن المستعين بالله : " كان ملكه بقرطبة وغيرها أولاً وآخراً ست سنين وعشرة أيام كلها شداد نكرات كريهات المبدأ والفاتحة لم يعدم فيها حيف ولا أمن فيها خوف لتغير السيرة واشتعال الفتنة . دولة كفاها ذماً أن أنشأها شانجة ووزرها دب فتمخضت عن الفاقرة الكبرى" [1]

ويصف ابن عذارى هشام بن عبد الجبار بأبشع الصفات فيذكر أنه أظهر من الخلاعة والضعف ما لم يظهره أحد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابية ، واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود للضرب ، واشترى له صقلبى كان يتعشقه عند ابن الزيات العطار ، وبعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية أبى القاسم المصرى الخيالى ، التى يقال لها (بستان) وامرأة ابن الشرح التى اسمها (واجد) ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل الدعارة المتهتكين فيها ، فكان هذا من أسباب القيام عليه وإشعال الفتنة لديه ، ولم يزل طول مدته مشتهراً بالفسق ، مظهراً للخلاعة ، لا يفيق من سكر، ولا يرع عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهى، حتى قال بعضهم فيه : [2]

أمير الناس سخنة كل عين ... يبيت الليل بين مخنثين
يجشم ذا ويلثم خد هذا ... ويسكر كل يوم سكرتين
لقد ولوا خلافتهم سفيهاً ... ضعيف العقل شيناً غير زين

وقيل فيه أيضاً : [3]

أشأم خلق على العباد ... والناس من حاضر وباد
أبو الوليد الذى اقشعرت ... لنحسه شعرة البلاد

---

[1] البيان المغرب ص ١١٨ .
[2] البيان المغرب ص ٧٩ - ٨٠ .
[3] نفسه ص ٨٠

كــان عـــلى قومــه جمـــيعا   مـــزار عـــاد لقـــوم عـــاد

ويفهـم مـن كـلام ابـن عـذارى أن هشـاماً كـان أكثر ملوك بنى أمية عرضة لهجاء الشعراء وانتقادهم لتصرفاته فيعقب على الأبيات السابقة بقوله :

" وقيل فيه كثير من هذا يطول الكتاب به " [1] .

وفى عصر الطوائف لم يضعف هذا اللون من الهجاء خلافاً لما يراه " غرسيه غومس " إذ يظن أن استبداد طواغيت الحكام بالناس أيام الطوائف أدى إلى زوال هذه الفن [2] . وقد مال إلى هذا الرأى أيضاً الدكتور إحسان عباس فرأى أن صوت النقد الموجه ضد الحكام لم يكن قوياً جهيراً فى أيام الطوائف [3] وكرر الرأى نفسه فى موضع آخر فقال [4] : " وقد نقدر أن حرية التعبير فى عصر الطوائف كانت ضيقة الحدود ، وأن الخوف ألجم الناقمين والمتذمرين عن الإفصاح بما كانوا يحسونه " .

وفى تقديرى أن اختلال الأحوال السياسية كان من أكبر العوامل التى وجهت الشعراء إلى هجاء ملوك الطوائف ، فقد غضب الشعراء لما أصاب الأندلس من تمزق ، ولما رأوه من تنازع الحكام وانصرافهم عن مصالح الرعية وانشغالهم بإرضاء أهوائهم وإشباع غرائزهم ونزواتهم ، فكان الشعر لهم بالمرصاد ، يفضح تصرفاتهم ويكشف زيفهم وخداعهم ، ومما يدل على رواج الهجاء السياسى فى عصر الطوائف – أن أحداً من الحكام لم يسلم من هجاء الشعراء حتى بنى عباد حكام اشبيلية الذين عرفوا بالفضل وتشجيع الأدب فقد قيل فى ذمهم شعر كثير ، غير أن هذا لا يعنى أن كل ما صوب إلى ملوك الطوائف من أسهم الهجاء كان لدوافع سياسية أو لأسباب تتصل بالعصبية للوطن أو للدين ، فهناك جانب من هجاء الشعراء للحكام قيل لدوافع ذاتية ،

---

[1] البيان المغرب ص ٨٠ .

[2] الشعر الأندلسى ص ٦١ .

[3] تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٤٥ .

[4] المرجع السابق ص ١٤٩

كـأن يخيب رجاء الشاعر فى عطائهم فينقلب عليهم من المدح إلى الهجاء كقول أبى الحسن جعفر بن إبراهيم اللورقى الذى ارتحل إلى اشبيلية للظفر بعطاء بنى عباد ولكنه لم يظفر منهم بطائل فهجاهم بقوله [1] :

تعـز عـن الدنـيا ومعـروف أهـلها ... إذا عـدم المعـروف فـى آل عـباد
حللـت بهـم ضـيفاً ثلاثـة أشـهر ... بغـير قـرى ثـم ارتحلـت بـلا زاد

ومـن هـذا الضرب قول الحصرى يعرض بهم عندما أرسل غلامه – وهو فى طنجة – يبغى عطاء المعتمد فلم يجبه : [2]

نـــبه الركـــب الهجوعـــا ... ولم الدهـــر الفجوعـــا
حمـــص الجـــنة قالـــت ... لغلامـــى لا رجوعـــا
رحـــم الله غلامـــى ... مـــات فـــى الجـــنة جوعـــا

ويعـرض ابن شرف بالمعتضد بن عباد ، ويندد بما قيل عن بطشه بكثير من وزرائـه وندمائه حتى لقد خاف أن يفد إليه لئلا يتعرض لما تعرض له غيره من مصير مؤلم فيقول فى أسلوب لاذع [3] :

أإن تصـيدت غـيرى صـيد طائـرة ... أوسعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبتنى فرصـة أخـرى ظفـرت بهـا ... هيهات ما كـل حين تمكن الفرص
لـــك الموالـــد للقصـــاد مترعـــة ... تروى وتشبع لكـن بعدهـا غصـص
ولست أعجب من قوم بها انتشبوا ... لكـنما عجـبى مـن معشـر خلصـوا
ولم يطـب قـط لى مـن لا يلـذ ولا ... سلوى إذا كان فـى عقباهما مغص

ولم يقـف الشعراء فى هجائهم لبنى عباد عند هذا الجانب من هجائهم بل أكثروا من ذمهم ونقد سياستهم ووصفهم بالجور والطغيان ويبدو أن المعتضد كان أكـثر بـنى عـباد تعرضـاً لهجـاء الشعراء . فهو لم يسلم من هجائهم حتى بعد

---

[1] نفح الطيب ٤ / ٢٢٦ .
[2] وفيات الأعيان ٣ / ٢٠ .
[3] الذخيرة ٤ / ١ / ١٤٢ .

وفاته على نحو ما نجد فى قول ابن زيدون يعبر عن شماتته عندما نعاه الناعى ويصفه بالطاغية ، فيقول : [1]

لقد سرّنا أن النعيّ موكل ... بطاغية قد حم منه حمام
تجانف صوب الغيث عن ذلك الصدى ... ومر عليه البرق وهو جهام

ومما ينسب إلى ابن رشيق قوله فى هجاء بنى عباد : [2]

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

ولم يسلم المعتمد من هجاء الشعراء برغم ما عرف عنه من صفات طيبة وثمة رواية – إن صحت – فهى بالغة الدلالة على حساسية المعتمد تجاه الهجاء ، فقد ذكر المقرى نقلاً عن الحجارى أن يوسف بن تاشفين أهدى المعتمد جارية مغنية قد نشأت بالعدوة وجاء بها إلى إشبيلية ، فخرج إلى قصر الزاهر على نهر إشبيلية وقعد على الراح ، فخطر لها أن غنت – عندما انتشى – هذه الأبيات :

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ... ولووا عمائمهم على الأقمار
وتقلدوا يوم الوغى هندية ... أمضى - إذا انتضيت - من الأقدار
إن خوفوك لقيت كل كريهة ... أو أمنوك حللت دار قرار

وتقول الرواية أن المعتمد عندما سمع أبيات الجارية وقع فى قلبه أنها عرضت بساداتها فلم يملك غضبه ورمى بها فى النهر فهلكت [3] .

ويذكر ابن بسام أنه نسب إلى ابن عمار شعر كثير فيه قدح فى المعتمد وآله وذويه وعياله ، منه هذه القصيدة التى عرض فيها بأم بنيه المعروفة بالرميكية ، وفيها يقول : [4]

---

[1] ديوان ابن زيدون ص ٥٩٢ .
[2] اعمال الاعلام (ط. بيروت) . ص ١٤٤ .
[3] نفح الطيب ٤ / ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
[4] ديوان ابن عمار ص ٢٩١ .

ألا حــي بالغــرب حــياً حــلالا ... أنــا خــوا جمــالا وحــازوا جمــالا
وعـــرج بـــيومين أم القـــرى ... ونم فعســـى أن تـــراها خـــيالا
لتســـأل عـــن ســـاكنيها الـــرماد ... ولم تـــر للـــنار فـــيها اشـــتعالا
أيـــا فـــارس الخـــيل بازيدهـــا ... حميــت الحمــى وأبحــت العــيالا
أراك تـــورى بحـــب النســـاء ، ... وقدمـــاً عهدتـــك تهـــوى الـــرجالا
تخيرتهـــا مـــن بـــنات الهجـــان ... رميكـــية مـــا تســـاوى عقـــالا
فجـــاءت بكـــل قصـــير العـــذار ... لئـــيم الـــنجارين عمـــاً وخـــالا
بصـــفر الوجـــوه كـــأن اســـتها ... رمـــاهم فجـــاءوا حـــيارى كســـالى
قصـــار القـــدود ولكـــنهم ... أقـــاموا علـــيها قـــروناً طـــوالا
أتذكـــر أيامـــنا فـــى الصـــبا ... وأنــت إذا لحــت كنــت الهــلالا
أعـــانق مـــنك القضـــيب الرطيـــب ... وأرشـــف مـــن فـــيك مـــاء زلالا
وأقـــنع مـــنك بـــدون الحـــرام ... فتقســـم جهـــدك أن لا حـــلالا
سأكشـــف عرضـــك شـــيناً فشـــيناً ... وأهـــتك ســـترك حـــالا فحـــالا

ويقول صاحب الخريدة إن هذه القصيدة كانت من أقوى الأسباب التى جعلت المعتمد يأمر بقتل ابن عمار [1] ولكن أحد الباحثين يتشكك فى نسبتها ابن عمار الذى كان له حساد ومنافسون كثيرون لا يستبعد صدورها عنهم ، ويرجح أن تكون هذه الأبيات " نظمت بتحريض من ابن عبد العزيز أمير بلنسية وعدو ابن عمار اللدود الذى هجاه ابن عمار قبل هذا " ويبنى تشككه أيضاً على " أن الأفكار والمعانى التى تقوم عليها القصيدة من فحش بذىء ، وإقذاع مقرز ، وتشهير شنيع ، لا تسمح بنسبتها إليه ، مهما تصاعد الحقد والكراهية بينهما ، بالإضافة إلى عدم انسجامها مع أفكاره ومعانيه ، لأنه حتى فى هجائه لابن عبد العزيز وهو من أشد أعدائه لم يقذع ، ولم يصل إلى ما وصل إليه فى هجائه لصديقه الحميم المعتمد من إسفاف وانحطاط " [2]

---

[1] حربدة القصر ٢ / ٧١ .
شعر فى ظل بنى عباد ص ١٩٩ ٢٠٠

وفي رأيي أن الفهم الدقيق لشخصية ابن عمار يؤكد نسبة هذه القصيدة إليه، فقد عاش هذا الشاعر في مجتمع يخضع للمصالح والأهواء " وفي هذا الجو المتقلب المتموج ، برزت شخصية الرجل القلق المغامر الذى يتجول من بلد إلى بلد عارضاً مهارته على من يقدرها حق قدرها ، يستوى في هذا مختلف ذوى المهارات المطلوبة من جندى وكاتب وشاعر ومعمارى وصاحب أى حرفة أخرى ، ولم يكن اختلاف الدين حاجزاً في هذه الأمور ، فكان السيد القنبيطور يخدم المصلحة ، فتارة يحارب من أجل أمير مسلم ، وتارة من أجل أمير نصرانى ، ولما سقطت طليطلة في يد النصارى حلق الفقيه أبو القاسم بن الخياط وسط رأسه وشد الزنار وأخذ يعمل كاتباً عند الأذفونش [1] وأنموذج هذه الشخصية من الجانب الإسلامى – في مقابل القنبيطور – شخصية الشاعر ابن عمار ؛ فقد نشأ فقيراً محروماً ، ولكنه كان مشرباً بالطموح ، انتهازياً . مكياً فيللياً ، مستعداً لأن يركب إلى غايته كل واسطة ، مؤمناً بالصداقة بمقدار ما تبلغ أهدافه " [2] .

ويكاد الدارسون لابن عمار يتفقون على ما عهد فيه من طباع أقرب إلى التدنى . يقول باحث آخر [3] " كان ابن عمار وصولياً – إذا صح التعبير – مع أخلص أصدقائه ، فقد خان المعتمد صديقه وولى نعمته ، واستغل ضعف ابن طاهر ، رغم ما بينهما من علاقات وثيقة ليوقع به ، كما لم يسلم من لسانه السليط ، أمير بلنسية ، عبد العزيز بن أبى عامر ، والمعتصم بن صمادح أمير دانية الذى كانت تربطه بالشاعر أوثق الصلات " .

وفي إطار هذا الفهم لطبيعة ابن عمار تبدو نسبة هذه القصيدة إليه أمراً طبيعياً ، وحتى إذا كانت هذه القصيدة محل شك – وهو ما لا نميل إليه

---

[1] المغرب ٢ / ٢٢ .
[2] تاريخ الأدب الأندلسى – عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٤ .
[3] محمد بن عمار الأندلسى تأليف الدكتور صلاح خالص ص ٨١ .

فمـاذا نقول فيما ذكره ابن بسام من أن لابن عمار شعراً كثيراً نسب إليه فى ذم المعتمد وآله وبنيه ؟

وعـلى أيـة حـال ، فـلم يكـن بنو عباد هم وحدهم المستهدفين لأهاجى ابن عمار ، فقد هجا أيضاً بنى عبد العزيز أمراء بلنسية فى عصر الطوائف ، ويقول ابـن بسام [1] : " وكانت حال ابن عمار ، حين تردد بتلك الأقطار من بلد بنى هـود ، قد تمكن منهم بالمؤتمن ، إلا أن بنى عبد العزيز كانوا يشرقونه بريقه ، ويوعرون عليه السهل من طريقه ، ويبلغه عنهم ما تتوقد له ضلوعه ، وتنسكب منه دموعه ، بلغه عنه – يعنى ابن عبد العزيز – وعن ابن طاهر أنهما ندرا فيه بسبب خاتمين كان المؤتمن ختمه بأحدهما ، والآخر أذفونش ابن فرذلند ، فكتب ابن عمار إلى ابن عبد العزيز : [2]

قـال للوزيـر ولـيس رأى وزيـر ... أن يتـبع التـندير بالتـندير
إن الـوزارة مذلبسـت رداءهـا ... وقـف عـلى التغـيير والـتزوير
وأرى الفكاهـة جـل مـا تـأتى بـه ... رحمـاك فـى التعجـيز والتصـدير
بلغـت دعابـتك الـتى أهديـتها ... فـى خـاتم الـتأمين والـتأمير
وأظـنها للطاهـرى ، فـإن تكـن ... فجديـرة الـتقديس والـتطهير
فرسـا رهـانٍ أنـتما فـتجاريا ... بـالقول فـى الـتقديم والـتأخير
وإذا سـلكت سـبيله فحقـيقة ... كـى يتـبع التصـغير بالتصـغير
وأرى بلنسـية وأنـت قدارهـا ... سـينالها الـتدمير مـن تدمـير

وكـان ابـن عمـار شـديد التـنقص للوزيـر أبـى بكر أحمد بن محمد بن عبد العزيـز، أمـير بلنسية ، وأكثر من هجائه وهجاء أسرته ، فمن ذلك قوله يغرى أهل بلنسية بهم [3] :

---

(1) الذخيرة ٣ / ١ / ص ٤١٠ .

(2) الذخيرة ٣ / ١ / ص ٤١٠

(3) نفسه ٣ / ١ / ص ٤١١ - ٤١٢ ، الحلة السيراء ٢ / ص ١٥٥ .

بشـــر بلنســـية وكانـــت جـــنة أن قـــد تدلـــت فـــى ســـواء الـــنار
جازوابـــنى عـــبد العزيـــز فـــإنهم جـــروا إلـــيكم أســـوأ الأقـــدار
ثـــوروا بهـــم مـــتأولين وقلـــدوا ملكـــاً يقـــوم عـــلى العـــدو بـــثار
هـــذا محمـــد أو فهـــذا أحمـــد وكلاهمـــا أهـــل لـــتلك الـــدار
جـــاء الوزيـــر بهـــا يكشـــف ذيلـــه عـــن ســـوءة ســـوأى وعـــار عـــار
وأوى لينصـــر مـــن بـــنا المـــثوى بـــه ودهـــاة خـــذلان مـــن الأنصـــار
نكـــث اليمين وحـــاد عن سنن التقى وقضـــى عـــلى الإقـــبال بالإدبـــار
مـــا كنـــتم إلا كأمـــة صـــالح فـــرماكم مـــن طاهـــر بقـــدار

وعـلى نحـو مـا هجي بنو عباد ، وبنو عبد العزيز ، هجى أيضاً غيرهم من أمراء الطوائف ، فقال عبد الملك بن حصن يهجو المأمون بن ذى النون : [1]

تلقبـــت بالمـــأمون ظـــلماً وإنـــنى لآمـــن كلـــباً حيـــث لســـت مؤمـــنه
حـــرام علـــيه أن يجـــود ببشـــره وأمـــا الـــندى فـــاندب هـــنالك مدفـــنه
سطور المخازى دون أبـواب قصره بحجابـــه للقاصـــدين معـــنونه

ويـتأنق المنفـتل فـى هجائـه لصـاحب (لـبلة) مصـوراً إيـاه تصويراً مزرياً فيقول : [2]

إن ابـــن يحـــيى ضـــحكة فتوســـم واذكـــر بـــه خـــدام نـــار جهـــنم
أكـــل الخبيـــث فشـــعره متســـاقط كالكلـــب أســـقط شـــعره لعـــق الـــدم

ويسـخط ابـن عـبدون عـلى الملوك جميعاً لأسباب ذاتية تتعلق بإهمالهم له وعدم الاكتراث به عندما عرض عليهم بضاعته ، يقول : [3]

ســـأطلب لا بألســـنة الـــيراع ســـوى ذا الحـــظ مـــن أيـــدى الـــزماع
وأخـــبط بالســـرى ورق الديـــاجى ووجـــه المـــوت محـــدور القـــناع
وأمـــرق مـــن أســـارير المواضـــى كمـــا مـــرق الهـــلال مـــن الشـــعاع
فسلـــنى عـــن ملـــوك الأرض تســـأل خـــبيراً فـــاقض حـــق الإســـتماع

---

[1] نفح الطيب ٣ / ٣٦٣ .
[2] الذخيرة ١ / ٢ ص ٧٦١ .
[3] الذخيرة ٢ / ٢ / ص ٧١٢ - ٧١٣ .

عرضت عليهم نفسي ونفسي
لأوضح غبنهم عند البياع
فما اتبعوا دليلاً في اجتنابي
ولا سلكوا سبيلا في اصطناعي
كأعضاء بها ألم فقلب
على ضمد ورأس في صداع
ومن عصب إذا سئلت حراكاً
شكت بسكونها نحل النخاع
ويمنى لا تجود على شمال
ولا تصفى المودة للذراع
وعين لا تغمض عن قبيح
وأذن لا تألم من قذاع
فما أبقوا ولا هموا ببقيا
ونقل الطبع ليس بمستطاع
فلو سقت السماء الشرى أريا
لما احلولت مراعيه لراع
فبعتهم بتاتاً لا بثنيا
ولا شرط ولا درك ارتجاع
ولم أجعل قرابي غير بيتي
فحسبي ما تقدم من قراع

ولعل أجمل ألوان الهجاء هو ما يتجاوز فيه الشاعر رغباته ومصالحه الذاتية إلى أحاسيس الناس عامة ، فيصور مشاعر الغضب والسخط التي تختلج في نفوسهم إزاء حاكم خائن أو ملك ظالم مستبد ، وكلما مال الشاعر إلى التعمية والتعميم كان هجاؤه أوقع وأقرب إلى الخلود ، فمن ذلك هذه الأبيات لأحد الشعراء ينحي فيها باللائمة على أولئك الحكام الذين عميت أبصارهم ، وافتقدوا الحزم في تدبير شئونهم ، وتصاغروا أمام أعدائهم ، وقد نظمها صاحبها بعد خراب قرطبة ، وفيها يقول : [1]

أضعتم الحزم في تدبير أمركم
ستعلمون معاً عقبى البوار غدا
فلو رأيتم بعين الفكر حالكم
بكيتم بدم إن دمتم بددا
لكن سبل العمى أعمت بصائركم
فالبستكم ثياباً للبلى جددا
يا أمة هتكت مستور سوءتها
ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا
في سورة الحشر آيات مفصلة
في شأنكم أنزلت لم تعدكم عددا
نعم وفي الكهف في العشرين خاتمة
تقضي عليكم بأن لا تفلحوا أبدا
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت
جميعكم محنة لا تنقضي أبدا

---

(1) البيان المغرب ص ١١٠ .

ويعد (السميسر) أحد الشعراء الذين يمثلون هذا الاتجاه تمثيلا صادقا واسمه خلف بن فرج . من أعلام شعراء البيرة . وهو من أبرز شعراء الهجاء فى الأندلس عامة . قال عنه ابن بسام : " كان باقعة عصره . وأعجوبة دهره ، له طبع حسن ، وتصرف مستحسن فى مقطوعات الأبيات ، وخاصة إذا هجا وقدح .. وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح فى أهل عصره " [1] ووصفه المقرى بأنه " كان كثير الهجاء " ، وذكر أنه ألف كتاباً سماه (شفاء الأمراض فى أخذ الأغراض) [2] .

والظاهرة التى نلحظها فى هجاء السميسر أنه ليس هجاء فردياً يعبر عن عن حقد ذاتى أو يستهدف تحقيق منفعة خاصة ، ولكنه هجاء " تعميمى المنزع يدل على قلق وعدم ارتياح لبعض ما يراه من أوضاع " [3] ، فهو لا يوجه هجاءه إلى حاكم بعينه ، وإنما يهاجم ملوك الطوائف عامة ، معبراً عن تسخطه وتسخط الناس جميعاً إزاء أولئك الحكام الذين شغلوا عن مصالح المسلمين بالجرى وراء مصالحهم الخاصة ، وأصبح اهتمام كل واحد منهم موزعاً بين شراب يعكف عليه ، وجارية يتعشقها ، وقينة يلذع لسماع صوتها ، وحرب يشنها على جيرانه ، وتخاذل أولئك الملوك أمام أعداء الإسلام ، وتقاعسوا عن أداء فريضة الجهاد ، فسقطت طليطلة ، وتهاوت القلاع والحصون ، وانحسر المد الإسلامى عن بعض بقاع الأندلس ، ويرتفع صوت السميسر الشاعر الغاضب داعياً إلى الثورة على أولئك الحكام المتخاذلين الذين شقوا عصا طاعة النبى وأصابوا الإسلام فى صميمه ، يقول : [4]

نـاد الملـوك وقـل لهـم	مـاذا الـذى أحدثـتم
أسـلمتم الإسـلام فـى	أسـر العـدى وقعـدتم

---

[1] الذخيرة ١ / ٢ ص ٨٨٢ - ٨٨٣ .

[2] نفح الطيب ٤ / ١٠٨ .

[3] تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٤١ .

[4] الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٨٥ .

وجب القيام عليكم ... إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا ... فعصا النبي شققتم

وفي أبيات أخرى يتهم السميسر أولئك الحكام بالخيانة ، ويشير إلى تضاؤل مكانتهم ، واهتزاز صورهم في أعين الناس [1] .

خنتم فهنتم فكم أهنتم ... زمان كنتم بلا عيون
فأنتم تحت كل تحت ... وأنتم دون كل دون
سكنتم يا رياح عاد ... وكل ريح إلى سكون

ويكثر السميسر من توجيه انتقاداته اللاذعة إلى أمراء الطوائف ، ملوحاً بما ينتظرهم من مصير مؤلم ، كقوله : [2]

رجوناكم فما أنصفتمونا ... وأملناكم فخذلتمونا
سنصبر والزمان له انقلاب ... وأنتم بالإشارة تفهمونا

ويقول أيضاً : [3]

وليتم فما أحسنتم مذوليتم ... ولا صنتم عمن يصونكم عرضا
وكنتم سماء لا ينال منالها ... فصرتم لدى من لا يسائلكم أرضا
ستسترجع الأيام ما أقرضتكم ... ألا إنها تسترجع الدين والقرضا

وما نقرؤه من هجاء السميسر يدل على أنه كان من أكثر شعراء الأندلس غيرة على الوطن الأندلسي ، فهو يصدر في هجائه عن دافع وطني أصيل ، ويتعدى هجاؤه النظرة الذاتية أو الإقليمية إلى وجهات أعم وأشمل ، وأشد ما كان يؤلم السميسر أن يرى بعض حكام زمانه يصانعون أعداء الإسلام ، وتشير إحدى الروايات إلى موقف للسميسر اتسم بالجرأة والجسارة إزاء (باديس ابن حبوس) أمير غرناطة عندما استوزر وزيراً يهودياً ، ولما هلك استوزر بعده

---

(1) نفح الطيب ٤ / ص ١٨٠ .
(2) الذخيرة ١ / ١ / ٣٧٨ .
(3) نفح الطيب ٤ / ١٠٨ .

وزيرا نصرانياً فنظم السميسر أبياتاً كتب بها نسخاً عدة ورماها فى شوارع البلد والطرقات وسار من ساعته إلى المرية معتصماً بالمعتصم ابن صمادح ، وطارت الأبيات فى أقطار الأندلس ، ولما وقف عليها باديس أرسل وراءه أصحاب الخيل ففاتهم ولم يلحقوه ، يقول السميسر فى هذه الأبيات : [1]

صاحب غرناطة سفيه	وأعلم الناس بالأمور
صانع أذفونش والنصارى	فانظر إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافا	لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاهاً	كأنه دودة الحرير
دعوه يبنى فسوف يدرى	إذا أتت دورة القدير

إن السميسر فى اتجاهه هذا يذكرنا بالشاعر الإنجليزى (*Pope*) الذى تصور الهجاء تصوراً حسناً حين قال : [2]

استمعوا إلى هذا وارتعدوا أيها الهاربون من القانون
فلن يستطيع الأغنياء والمخادعون من النبلاء ما دبت فى الحياة
أن يقطعوا حياتهم إلى القبر فى ثقة واطمئنان
للفضيلة وحدها ولأصدقائها أنا صديق
ما أبالى ضج الناس من حولى ساخطين ، أو ثنوا مادحين

لقد لفت السميسر بمقطعاته الهجائية اللاذعة أنظار بعض الباحثين فرأى أحدهم أنه يعد أكثر شعراء عصر ملوك الطوائف جرأة وجسارة ، وأنه عبر بحق عن ضمير الأمة ، وكان صوته الغاضب هو صوت الشعب بأسره [3] ويقول عنه الدكتور الطاهر مكى " وله من زمنه موقف رافض حين رأى اختلال القيم . وزهوة الباطل ، وغلبة الصغار . وعجزه عن التغيير . فأدار ظهره لكل ما حوله ، وجاء شعره رافضاً بكل ما تعنيه الكلمة فى عصرنا الحديث ، سخر مما

---

[1] معجم السفر للسلفى (مخطوط) الورقة ٢٦٥ .

[2] الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ١٧ .

[3] مجلة عالم الفكر - المجلد الثانى عشر - العدد الأول . مقال للطرابسى أحمد أعراب بعنوان (الأصوات الحالية والإنهزامية فى الشعر الأندلسى) ص ١٣٥ .

يعظم الناس ، وهجا من يمدحون ، واحتقر ما يكبرون ، وجاء هجوه لهم مفحشاً ، ونقده قاسيا ، فأهمله المؤرخون خوفاً ممن هجاهم .. كان داعية ثوره حين استطاب الناس المتع واللذة ، وخلدوا إلى الدعة والراحة وآثروا الأمن والسلامة"[1].

ويرى الدكتور إحسان عباس أن مقطعات السميسر في الهجاء تشبه أن تكون نوعاً مما يسمى في اللاتينية " الإبجرام *Epigram* " اللاذع المستدير سواء أقصد بها قصد الهجاء العام أو التعبير عن نظرة فلسفية "[2] .

ولم يكن هجاء السميسر لأمر الطوائف يمثل موقفاً فردياً ، ولكنه كان تجسيداً لموقف عام صدر عنه كثير من شعراء الأندلس ، وإن كان السميسر يعد أبرزهم تمثيلاً لهذا الموقف – فهناك شعراء آخرون شاركوا السميسر ثورته على أمراء الطوائف المتخاذلين ، فانطلقوا يتوعدونهم ، ويلوحون بتخاذلهم وخيانتهم للمسلمين ولاسيما بعد سقوط طليطلة بسبب مصانعة أولئك الأمراء للنصارى واتفاقهم فيما بينهم على التخاذل وإيثار القعود ، وتواطئهم على خطة زائفة عجلت بسقوط هذه المدينة العظيمة ، وإلى ذلك يشير أحد الشعراء بقوله :[3]

وقيل تجمعوا لفراق شكل	طليطلة تملكها الكفور
فقل في خطة فيها صغار	يشيب لكربها الطفل الصغير
لقد صم السميع فلم يعول	على نبأ كما عمى البصير

وحين سقط ملوك الطوائف تشفى فيهم الشعراء ، وارتفعت أصواتهم معبرة عن أحاسيس الشماتة إزاء أولئك الملوك الذين طالما استمرأوا أو الفساد ، وشغلوا أنفسهم بالقصف واللهو والغناء عن الجهاد ، ولم يفكروا فيما ينتظرهم من نهاية

---

(1) دراسة أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ص ٧٤ .

(2) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين ص ١٢٩ .

(3) نفح الطيب ٦ / ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

أليمة ، ويعبر أبو الحسن بن الجد عن هذه المعاني مصوراً ملوك الطوائف تصويراً مزرياً ، فيقول [1]

فى كل يوم غريب فيه معتبر ... نلقاه أو يتلقانا به خبر
أرى الملوك أصابتهم بأندلس ... دوائر السوء لا تبقي ولا تذر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر ... هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من فى كفه قدح ... يحدو به ملهياه : الناى والوتر
صمت مسامعه فى غير نعمته ... فما تمر به الآيات والسور
تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه ... له خوار ولكن حشوه خور

وعندما جاء المرابطون لم يتعاطف معهم الأندلسيون ، ونظروا إليهم على اعتبار أنهم دخلاء اقتحموا بلادهم واستمتعوا بخيراتها ، وخلق حكمهم الأندلس أوضاعاً جديدة أثارت غضب الأندلسيين وتمثلت هذه الأوضاع فى استئثار المرابطين بالوظائف والمناصب الهامة ، وافتئاتهم على السكان ، وتمتعهم بنفوذ خاص ، حتى بات من العسير أن يحاسب المرابطى فى عمله ، أو ينكر عليه شيء فى الخطة التى وليها [2] . كما اشترط المرابطون أن كل من يلثم يجب أن يكون صنهاجياً أو لمتونياً أو لمطياً ، أما من هم من الحشم والعبيد فإنهم حين يلثمون يهيبون على الناس ، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة ، بسبب اللثام وهماً [3] . واضطربت أحوال الأندلس فى أواخر حكم المرابطين ، وأشار إلى ذلك المراكشي فقال [4] : " فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا فى أعينهم . واجترأ عليهم العدو ".

---

(1) أعمال الاعلام ص ٢٤١ .

(2) ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة لابن عبدون التجيبى ص ١٦ .

(3) نفسه ص ٢٨ .

(4) المعجب ص ٢٧٧ .

يضاف إلى بواعث هجاء المرابطين باعث آخر على جانب كبير من الأهمية، ونعنى به موقف المرابطين من الشعر ، فقد تقهقرت مكانة الشاعر فى عهدهم " وأصبح التصريح بكساد الشعر أشد وأوضح – ذلك أن الشاعر حتى فى أسمى ما غدا يستطيع بلوغه من مكانه لم يعد فى طوقه منافسة رجل السيف (وهو من الملثمين) والفقيه والكاتب ، ولعل الأعمى التطيلى قد عبر فى بعض لحظات الإحساس بالتعاسة عن هذا المعنى بأجلى عبارة حين قال " إنَّ قال مالك " قد طردت " قام زيد " أى أن الفقه قد أبعد الأدب واللغة ، وأصبحت الكلمة العليا للفقهاء [1] يقول التطيلى معبراً عن هذه الأحاسيس : [2]

أيا رحمتا للشعر أقوت ربوعه ... على أنها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثُلَّت عروشهم ... فلا الفخر مختال ولا العز تامك
إذا ابتدر الناس الحظوظ وأشرفت ... مطالب قوم وهى سود حوالك
رأيتهم لو كان عندك مدفع ... كما كسدت خلف الرئال الترائك
فيادولة الضيم اجملى أو تجاملى ... فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا " قام زيد " أعرضى أو تعارضى ... فقد حال من دون المنى " قال مالك"

ويعبر ابن بقى عن هذا الإحساس بالخمول وضآلة الشأن مصرحاً بكساد العلم والشعر فى دولة المرابطين فيقول : [3]

أقمت فيكم على الإقتار والعدم ... لو كنت حراً أبى النفس لم أقم
فلا حديقتكم يجنى لها ثمر ... ولا سماؤكم تنهلُّ بالديم
أنا امرؤ إن نبت بى أرض أندلس ... جنت العراق فقامت بى على قدم
ما العيش بالعلم إلا حيلة ضعفت ... وحرفة وكلت بالقعدد البرم

وقد اشتهر بهجاء المرابطين شاعران هما ابن سهل اليكى والأبيض . أما اليكى فقد حمل عليهم حملة شديدة ، فوصفهم بالدناءة والخسة ، ورماهم بأبشع الصفات كقوله : [4]

تاريخ الأدب الأندلسى – عصر الطوائف والمرابطين – ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٠ .

(٣) نفح الطيب ٤ / ٤١٠ .

(٤) المغرب ٢ ٢٦٧ .

فـي كـل مـن ربـط اللـثام دنـاءة — ولوانـــه يعلـــو عـــلى كـــيوان
مـا الفخـر عـندهم سـوى أن يـنقلوا — مـن بطـن زانـية لظهـر حصـان
المنـــتمون لحمـــير لكـــنهم — وضـعوا القـرون مواضـع التـيجان
لا تطلـــبن مـــرابطاً ذا عفـــة — واطلـب شـعاع الـنار فـى الغـدران

وفـى قصيدة أخرى يعرض اليكى ببخل المرابطين ويتندر باستخدامهم اللثام فيرى أنهم اضطروا إلى ذلك لإخفاء وجوههم مما يرتكبون من أفعال قبيحة [1] .

إن المـــرابط يـــاخل بـــنواله — لكـــنه بعـــياله يـــتكرم
الوجـه مـنه مخلـق بقبـيح مـا — يأتـيه فهـو مـن اجلـه يتلـثم

ويصفهم اليكى بالجبن ويعرض بهم فيقول : [2]

إن المـــرابط لا يكـــون مـــرابطاً — حـــتى تـــراه إذا تـــراه جـــبانا
تجلـو الرعـية مـن مخافـة جـوره — لجلائـــه إذ يلـــتقى الأقـــرانا
إن تظـــلمونا ننتصـــف لنفوســـنا — يجـنى الـرجال فـنأخذ النسـوانا

ويهـاجم أحـد حكـام المـرابطين واصـفاً إيـاه بالعجـز عن تسيير دفة الحكم وبالضعف في مواجهة الثوار والمنشقين فيقول : [3]

عـليٌ حمـى الملـك مـن ساسـة — ومـــا أنـــت لـــلملك بالســـائس
من السـوس أصبحت تخش النفاق — وقـد جـاءك الـنحس مـن بـادس

أما أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى المعروف بالأبيض ، فقد وقف هجاءه عـلى الـزبير بـن عمر اللمتونى أمير قرطبة وغرناطة على عـهد المرابطين ، وولع بهجائـه حسـبما يقـول ابـن سـعيد [4] ويـبدو أن عـداء الأبيض لهذا الأمير كان ناجمـاً عـن بعـض التصـرفات السـلوكية التى لم تعجبه فى شخصه فهو يتهمه

---

[1] نفح الطيب ٣ / ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
[2] المغرب ٢ / ٢٦٨ .
[3] نفسه ٢ / ٢٦٨
[4] المغرب ٢ / ١٢٧ .

بالغي والعكوف على اللهو والانهماك في الخلاعة والمجون ، كما يبدو في قوله : [1]

عكف الزبير على الضلالة جاهداً ووزيره المشهور كلب النار
مازال يأخذ سجدة في سجدة بين القيان ونغمة الأوتار
فإذا اعتراه السهو سبح خلفه صوت القيان ورنة المزمار

وتتكرر هذه المعاني في قصيدة أخرى مشيراً إلى أن انغماسه في الخمر والقصف أضاع الجيش وأودى ببيت المال [2]

يا سائلي عن زبير أين مسكنه هيهات تطلب شمساً ما لها وضح
لا تطلبن زبيراً في مساكنه واسأل عرابة عنه حين يصطبح
نشوان يكرع في فرج وفي قدح والملك تحت لبان العود مطرح
يا ضيعة الجيش لن يبقى لهم سبد أودى السماع ببيت المال والقدح

ويقول أيضاً في هجائه : [3]

أما زبير فقد أودى بأندلس ما كان من حرمة فيها وصديق
وصده عن قراع الدارعين بها قرع القواقير أفواه الأباريق

ويفحش الأبيض في هجائه للزبير مركزاً على عيب خلقي فيه إذ كان مصاباً بالبرص ، فيقول : [4]

قالوا الزبير مبرص فأجبتهم لا تعذلوه ، فداؤه من عنده
رضعت مباعره الأيور فأكثرت حتى بدا وسم المني بجلده

وهذه الصورة القاتمة التي رسمها الأبيض للزبير تتعارض مع صورته في نظر المؤرخين ، فصاحب الإحاطة يصفه بأنه " ندرة الزمان كرماً وبسالة وحزماً

(1) نفح الطيب ٣ / ٤٨٩ .
(2) خريدة القصر ٢ / ٢٥٩ .
(3) زاد المسافر ص ١١٢ .
(4) نفسه ص ١١٢ .

وأصالة " [1] وتشير إحدى الروايات إلى مشاركته فى المعارك حتى قيل إنه قتل فى إحدى هذه المعارك سنة ٥٣٧هـ فى موضع يقال له " وادى الدروع " . [2]

ونستبعد إرجاع هجاء الأبيض للزبير إلى الدوافع المادية لأن ثمة رواية يعزو فيها الأبيض هجاءه إلى ما رآه فى شخص الزبير من تصرفات شائنة ، فيقال إن الزبير لما بلغه هجاء الأبيض له أمر بإحضاره ، فقرعه ، وقال : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنى لم أر أحق بالهجو منك ، ولو علمت ما أنت عليه من المخازى لهجوت نفسك إنصافاً ولم تكلها إلى أحد ، فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته وأمر بقتله [3].

وهذه الرواية تنفى الدافع المادى أو المصلحة الذاتية وإن ظل التناقض قائماً بين رأى الأبيض فى الزبير ورأى المؤرخين الآخرين فيه .

وقد شارك النثر فى هجاء المرابطين ، ويحتفظ المراكشى بجزء من رسالة لأبى مروان بن أبى الخصال يذم فيها المرابطين لتقاعسهم عن قتال الأعداء فمن ذلك قوله : " أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة ، إلام يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ، فليت لكم بارتباط الخيول ، ضأناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونطهّر الجزيرة من رحضائكم " [4].

وإذا تركنا عصر المرابطين إلى عصر الموحدين ، فإن أكثر الظواهر وضوحاً هى خضوع الهجاء السياسى للتوجيه الرسمى ، فالخليفة عبد المؤمن بن على يمتحن شعراءه بهجاء أحد الوزراء عندما أمر بسجنه [5] ، وعندما ثار المأمون الموحدى على فكرة الإمامة التى قامت عليها الدولة ، وسخر من دعوة المهدى

---

[1] الإحاطة ١ / ٤٥٠ .

[2] خريدة القصر ٢ / ٢٥٩ .

[3] نفح الطيب ٣ / ٤٩٠ .

[4] المعجب ص ١١٤ .

[5] نفح الطيب ٥ / ١٨٦ .

ابن تومرت المؤسس الروحي للدولة ، الذى زعم أنه المهدى الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً ، نجد بعض الشعراء يسخرون من هذه الدعوة وينكرونها ويعرضون بصاحبها خضوعاً لرغبة المأمون مع أنهم طالما امتدحوا المهدى وأشادوا بدعوته حين كان الخلفاء السابقون يميلون إلى ذلك ، فمن أمثلة التعريض بالمهدى ودعوته قول أحد الشعراء : [1]

وجد النبوة حلة مطوية ... لا يستطيع الخلق نسج مثالها
فأسر حسوا فى ارتغاء يبتغى ... بمحاله نسجاً على منوالها

وعندما نشبت الفتن بين أمراء البيت الموحدى فى أواخر خلافة الموحدين اتجه كل منهم إلى تكليف من يشايعه من الشعراء بهجاء منافسيه ، ففى الفتنة التى تشبت بين المأمون وأخيه يحيى الناصر انقسم الشعراء فريقين ، فانضم فريق منهم إلى جانب المأمون ، وانحاز الفريق الآخر إلى جانب يحيى الناصر ودارت معركة هجائية بين الطرفين ، وعندما نظم أحد شعراء المشايعين للمأمون قصيدة يؤيد فيها بيعته ويعرض بأخيه أمر يحيى شعراءه أن يردوا عليها ، فرد عليها ابن الصفار بقصيدة يعرض فيها بالمأمون الذى صانع النصارى واستعان بهم فى حربه ضد أخيه ، وفيها يقول : [2]

يحيى خليفة رب العالمين ومن ... يجهله يعلمه حظُّ السُّمر والقُضُب
نال الخلافة عن خُبرٍ وعن خَبَرٍ ... محقق وبإرثٍ عن أخٍ وأب
لم ينتصر بالنصارى والبغاة على ... مطهَّرين من الأدناس والريب

وعلى هذا النحو خضع شعراء الموحدين فى هجائهم لتوجيه الحكام ، ولم نسمع فى ذلك العصر أصواتاً غاضبة تهاجم أمراء الموحدين وتندد بسياستهم على النحو الذى رأيناه فى عصر المرابطين ، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى اختلاف طبيعة حكم المرابطين عن الموحدين ، فبينما ضيق المرابطون على

---

(1) أزهار الرياض ٢ / ٣٧٩ .
(2) البيان المغرب ٣ / ٢٦٢ (ط . تطوان) .

الشعراء وأهملوا قدرهم ، جاء الموحدون فأعلوا منزلتهم ، وتنافسوا فى تقربهم ، وكان يهتزون للشعر ويثيبون عليه [1] وظهر من بينهم شعراء مثل الأمير أبى الربيع سليمان بن عبد المؤمن ، وفى ولايته جمع حوله أهل الأدب ؛ وكان جواداً لمن يتعلق به بأدنى سبب يجب رعيه . [2] فانتفت بذلك البواعث المادية التى حفزت بعض الشعراء إلى هجاء الحكام ومن جهة أخرى ، فإن الروايات التاريخية تشير إلى أن الموحدين " كانوا يبدون اهتماماً كبيراً بالأندلس باعتباره دار جهاد ، ولذلك فلعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن المجتمع الأندلسى تمتع فى هذا العصر إلى حد ما بالاستقرار والأمن ، ونستطيع أن نرى فى الرسائل الموحدية الرسمية شيئاً من هذا الاهتمام فكانت الكتب تنفذ بانتظام إلى ولاة الأندلس ، وفيها يوصى الخلفاء بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وألا يقضى الولاة فى أحكام القتل من تلقاء أنفسهم إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل وكذلك فى سائر المعاملات والأموال ، فلا يبت فى أمرها إلا بعد التثبت والمطالعة ، وتعرف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة [3] وتشير رواية أخرى إلى أن أحد خلفاء الموحدين انتصر لأحد الشعراء على بعض عماله ، فمن الطبيعى إذاً أن ينكمش هجاء الحكام فى عصر الموحدين .

وقد تضاءل هجاء الملوك والحكام أيضاً فى العصر الغرناطى وذلك بسبب الظروف التى طرأت على الأندلس ولاسيما بعد أن تساقطت المدن الأندلسية خلا غرناطة وبعض الحصون ، وشغل الأندلسيون بالتأقلم مع هذه الأوضاع الجديدة ، ولم يعد المناخ مهيأ لاستمرار هذا اللون من الهجاء .

---

[1] المعجب ص ٢٩٣ .

[2] الغصون اليانعة ص ١٣١ .

[3] الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٤١ .

الهجاء القبلى :

كان العنصر العربى الذى استقر فى الأندلس بعد الفتح ينتمى إلى قبائل عربية عديدة ، وانتشر النازحون من هذه القبائل فى شتى بقاع الأندلس ، فاستقرت لخم فى الجزيرة الخضراء وإشبيلية وكان منهم بنو عباد ، وأقام بنو صخر من غطفان بناحية قرمونة ، وبنو مرة بإلبيرة ، وبنو منذر بن الحارث من ثقيف بباجة ، وبنو عقيل بجيّان ووادى آش ، وخثعم وهمدان بإلبيرة وعنس بجهة قلعة يحصب ، وخولان بقرطبة ، والمعافر ببلنسيه وجهان وجذام بشذونة وتدمير ، وهوازن بالقرب من إشبيلية ، وبلى فى شمال قرطبة ، وبنو عذرة بجيان وسرقسطة .[1]

وانتقلت العصبية القبلية إلى الأندلس مع طلائع العرب الفاتحين الذين وفدوا من المشرق ، وظهر النزاع من جديد بين القيسية واليمنية .

يقول لين بول ***Lane - Poole*** " ما كادت موجات الفتوحات العربية تهدأ ويستقر سلطان المسلمين بالأندلس حتى تيقظت فيهم روح العصبية القبلية عاتية مدمرة مما أسلم البلاد إلى طوفان من الفوضى والإنحلال "[2] وبلغت هذه العصبية ذروتها فى عصر الولاة ، وكان كل وال يتعصب لبنى جلدته ، فحين تولى أبو الخطار الحكم انحاز لقومه اليمنيين ضد القيسيين لاسيما وقد كانت له ترات قديمة " منها أنه كان هو ذاته ضحية ظلمهم فى إفريقية ومنها قتلهم واحداً من أعظم رجال قبيلته فى الأندلس وهو سعيد بن حواس ."[3]

وقد أغلظ الخطار فى معاملة القيسية لاسيما بعد مقتل ابن حواس الذى يقول عنه .[4]

فليت ابن حواس يخبر أننى   سعيت به سعى امرىء غير غافل

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسى – عصر سيادة قرطبة ص ١٤ .

[2] The Moors in Spain By Stanly Lann – Pool, 51, London, 1920 .

[3] تاريخ مسلمى أسبانيا – الحرب الأهلية – ص ١٦٨ .

[4] تاريخ مسلمى أسبانيا ص ١٦٨ .

قتلت به تسعين يحسب أنهم جذوع نخيل صرعت بالمسائل

وأمعن الخطار في إهانة القيسيين حتى لقد طرد الصميل بن حاتم أحد شيوخ القيسية من قصره فانصرف الصميل غاضباً وغادر القصر مائل العمامة فلقيه رجل عند الباب فسأله " يا أبا جوشن ما بال عمامتك مائلة " فأجابه الشيخ القيسي : " إن كان لي قوم فسيقيمونها " [1]

وجمعت القيسية جموعها بعد أن تحالفت مع الجذاميين واللخميين وتقابلوا مع الكلبيين في " وادى لكة " سنة ١٢٧هـ وانتهت المعركة بهزيمة الكلبيين ووقوع ابن الخطار في الأسر . [2]

ودارت رحى الحرب مرة أخرى بين الفريقين حين حاول الكلبيون الثأر من القيسية وأمروا عليهم يحيى بن حريث الذى كان يكره الشاميين كرهاً شديداً وكان يقول " لو أن دماء أهل الشام جمعت لى في قدح لشربتها حتى الثمالة " ولكن الكلبيين منوا بالهزيمة مرة أخرى ، وقال الصميل ليحيى بن حريث معرضاً به — وقد سيق إلى الموت بعد هزيمته : " يا ابن السوداء هل بقى في قدحك شيء لم تشربه ؟ ! " [3]

وظلت العصبيات القبلية محتدمة في الأندلس حتى جاء عبد الرحمن الداخل فانتهج سياسة جديدة للقضاء على هذه العصبيات وذلك بالإكثار من شراء العبيد وإلحاقهم بديوان الجند ، كما جلب من إفريقية أعداداً كبيرة من البربر .

ومن هذا العرض يتضح أن العصبية القبلية لم تشتعل إلا في العصور الأولى في الأندلس ثم خمدت بعد ذلك لانصهار عناصر السكان من العرب في بوتقة

---

[1] تاريخ مسلمي أسبانيا ص ١٦٨ .

[2] نفسه ص ١٧٣ .

[3] أخبار مجموعة ص ٥٩ ٦٠ .

واحدة ولظهور الإحساس بالانتماء إلى الوطن الأندلس ، وتأصل النزعة الأندلسية الأصيلة في نفوس الأندلسيين .

وبرغم ندرة شعر الهجاء الذى يصور هذه العصبيات القبلية إلا أن هذا لا يمنع من افتراض ازدهار الهجاء القبلي في تلك العصور الأولى ، لا سيما وأن الروايات تشير إلى أن كل شيخ من شيوخ العرب في الأندلس كان له شاعره الخاص [1]. كما كان بعض شيوخ العرب وقادتهم ينظمون الشعر ، وثمة رواية تقول إن الصميل نظم قصيدة يعبر فيها عن غضبه من اليمنيين ورغبته في الانتقام منهم ولكن لم يصلنا منها غير هذا البيت : [2]

ألا إن مالي عند طي وديعة	ولابد يوماً أن ترد الودائع

واشتهر بالهجاء القبلي في عهد الولاة أبو الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي وكان من الطارئين الأوائل ، كما كان فارساً شجاعاً ، ولم يكن يقيم في مكان معين وإنما كان ينتقل في النواحي ويحل أكناف قرطبة ، وقد هجا الصميل بن حاتم القيسي ، ويشير ابن حزم إلى أن منزلته في الهجاء لم تقل عن منزلة جرير والفرزدق .[3]

ويعكس الهجاء القبلي بعض الصراعات والفتن التي احتدمت من أجل الاستئثار بالحكم أو الخلافة ، ففي عهد المستنصر بالله خرج حسن بن قنون القرشي عن الدعوة ، وزعم بأحقيته في الخلافة لانتسابه لقريش ، وقد هجاه محمد بن شخيص شاعر المستنصر فقال : [4]

كيف يرجى بأن يوفى قريشاً	حقها وهو من قريش نقي
قدمته الطغام أن قال جدى	حسني وليته حسني
فيرى في أمية ما رآه	حسن الفاضل التقى الرضي

---

[1] تاريخ مسلمي أسبانيا ص ١٦٩ .
[2] تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٢٢ .
[3] تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة - ص ٤٤ .
[4] المقتبس ، (تحقيق عبد الرحمن حجي) ص ٨٥ .

كما هجاه وأشياعه بقصيدة أخرى قال فيها :[1]

عصابة تدعى في هاشم نسباً ... وما يصح لها في معشر نسب
عمى البصائر لم يسلس معاطفها ... إلى مساعى التقى دين ولا حسب
وزادها في عماها أن أولها ... ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب
نشت مع الوحش في دهماء ليس لها ... في غير حسو الحسى رأى ولا أرب
ولو غدت من قريش في ذوائبها ... لأوجبت نفيها الأحداث والريب
وكل ملتهب يطفا وشرهم ... من بعد عثمان يطفا ثم يلتهب
إذا غدا حسن في الآل من حسن ... رأساً فياليت شعرى أيما الذنب

وهذه الأمثلة التي عرضناها تشير إلى أن الهجاء القبلي كان قريب الشبه من الهجاء المشرقي في معانيه وأساليبه وصوره .

---

[1] نفسه ص ١٥٩ ١٦٠

هجاء البربر :

كان البربر يشكلون عنصراً رئيسياً من عناصر السكان في الأندلس بعد أن شاركوا مشاركة فعلية في فتح الأندلس ، بل إن الحملة الأولى كانت مؤلفة من البربر فقط كما يذكر ليفي بروفنسال [1] ، ولم يدخل العنصر العربي الأندلس إلا عندما قدم إليها موسى بن نصير ، وبين جنوده العرب عدد كبير من اليمانية والقيسية [2] . ولكن البربر أخذوا يتدفقون من المغرب نحو جزيرة الأندلس في موجات كبيرة حتى صاروا يشكلون طبقة كبيرة ، وقد أشرنا من قبل إلى أن عبد الرحمن الداخل استقدم أعداداً كبيرة من البربر لتثبيت دعائم ملكه ولإخضاع العناصر العربية المتصارعة ، غير أن وجود البربر بجانب العرب في الأندلس أدى إلى نشوب فتن كثيرة بين الفريقين لاسيما في عصر الولاة ، وكان كل فريق يؤمن بأحقيته في السيادة على الأندلس ، فالبربر يفخرون بأن طارق ابن زياد فاتح الأندلس ينتمي إلى جنسهم ، ويتباهون بأن الفتح لم يتحقق إلا على أيديهم بينما يؤمن العرب بأنهم هم الفاتحون الحقيقيون للأندلس .

وكانت الفتن بين العرب والبربر تهدأ أحياناً ثم تعود للظهور من جديد واستفحل خطر البربر في فترات كثيرة ، حتى لقد وجدت بيئات بربرية بأكملها ؛ ففي عصر ملوك الطوائف استأثر البربر بحكم غرناطة فتحولت في عهد بني زيري (٤٠٣هـ - ٤٨٣هـ) إلى جزيرة بربرية تطوّقها بحار من العداوة العربية على حد تعبير جارثيا جومث [3].

ولم يترك ملوك البربر الذين حكموا غرناطة أثراً طيباً في نفوس المؤرخين أو الأدباء ، فهم " لم يشيدوا ، فيما يبدو ، غير سور متين ، لا يزال باقياً حتى أيامنا هذه كهيكل عظمي للمدينة ، وآثروا أن يكدسوا الأموال التي استولى

---

[1] Levi - Provencal ; Histoire de l'Espagne mustmane Pairs 1950 - 1953. P 40
(نقلاً عن الركابي . في الأدب الأندلسي ص ٣٤) .

[2] في الأدب الأندلسي للركابي ص ٣٤ .

[3] مع شعراء الأندلس والمتنبي ص ١١٨ .

عليها المرابطون فيما بعد ، وامتد الجدب إلى الحياة الأدبية نفسها ، فعلى امتداد نصف قرن ، وفى بلد يرتوى بالشعر ويتغذى بالغناء ، بقيت غرناطة طوال القرن الحادى عشر الميلادى ، خارج المهابط التى يتردد عليها الشعراء ولم يحدث أبداً أن أياً من كبار الشعراء خارجها ، فكر أن يرتحل إليها ليمدح عبثاً أمراءها البربر أو وزراءها اليهود " [1].

وقد أكثر الشعراء من هجاء البربر ، فرموهم بكل منقصة ، وعيروهم بمثالب الجنس ، فمن ذلك قول السميسر : [2]

رأيت آدم فى نومى فقلت له ... أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك قال إذاً ... حواء طالقة إن كان ما زعموا

ويقول شاعر آخر معبراً عما يضمره فى قلبه من كراهية وحقد إزاء البربر[3].

هم البرابر لا ترجوا نوالهم ... وسل من الله تعجيل النوى لهم
لا بلغ الله قلباً منهم أملا ... وبلغ الله قلبى ما نوى لهم

ويعرض هذا الشاعر بما يجرى على ألسنة البربر من مخاطبة الله سبحانه بقولهم (أبابا ربى) فيقول : [4]

فلو كنت فى الفردوس جاراً لبربر ... لحولت رحلى من نعيم إلى سقر
يقولون للرحمن (بابا) بجهلهم ... ومن قال للرحمن (بابا) فقد كفر

وقد ردَّ عليه أحد شعراء البربر بقصيدة قال فيها : [5]

كفى بك جهلا أن تحن إلى سقرْ ... بديلا عن الفردوس فى شر مستقر
وتجهل معنى مستبيناً مجازه ... لدى كل ذى فهم سليم وذى نظر
فإن أبا الإنسان يدعوه أنه ... كفيل وقيوم رحيم به وبر

---

(1) المرجع السابق ص ١١٩ .
(2) نفح الطيب ٣ / ٤١٢ .
(3) أدب الفقهاء ص ١٧٣ .
(4) المرجع السابق ص ١٧٣ .
(5) أدب الفقهاء ص ١٧٤ .

ومن قال للرحمن (بابا) فقد عنى ... به ذلك المعنى المجاز وما كفر
وقد قال عيسى إننى ذاهب إلى ... أبى وأبيكم جاء ذلك فى الأثر

وفى هجاء البربر صدر كثير من الشعراء عن موقف سياسى على نحو ما نرى عند (ابن حربون) شاعر الخلافة الموحدية ، الذى يصفهم بـ " الرعاع " ويشيد بموقف الموحدين منهم عندما قادوا حركة عصيان ، وأشعلوا فتنة فى جهة جبل (تاسررت) سنة ٥٦٣هـ فتصدى لهم الموحدون وأخمدوا فتنتهم ، وقتلوا منهم كثيرين ، وأجلوهم عن تلك الأماكن ، وفى ذلك يقول ابن حربون : [١]

وماذا تؤمل هذى الرعاع ... وأنى لها عنكم مهرب
ستبرأ منهم إليك الشعاب ... ويسلمها البازل الأصهب
لقد ركبوا مركب الجاهلين ... وذلك من شر ما يركب
فمزقتم شملهم فى البلاد ... كأنهم جمل أجرب

وهجا ابن حربون البربر مرة أخرى عندما أضرموا فتنة أخرى فى جبال غمارة المتصلة بسبتة فى عهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٢هـ ، وتزعم هذه الفتنة ثائر بربرى يدعى (سعد بن منعفاد) انشق عن طاعة الموحدين ، وأخذ يقطع الطرق ويبث الرعب فى قلوب الناس واستفحل أمره حتى تحرك الخليفة إليه بنفسه وتمكن من قتله وإخماد فتنته ، وفى ذلك يقول ابن حربون . [٢]

ضرب الشقاء وجوههم بضلالة ... تاهت بهم فى جور ليل أليل
واستعجلوا أمر الإله فجاءهم ... والويل كل الويل للمستعجل
فغدا غوييم برأس منيفة ... يهوى إلى درك الجحيم الأسفل

ويتكىء ابن أغلب الخولانى المعروف بالزوالى فى هجائه لأحد البرابرة المنشقين بقفصة على المعانى الدينية ملوحاً بما جاء فى سورة (المسد) من

---

[١] المن بالإمامة ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .
[٢] البيان المغرب (ط. تطوان) ٣ / ٧٠ وما بعدها .

تصوير لأبى لهب وامرأته رابطاً بين هذه الصورة من ناحية وبين ما كان عليه هذا الشقي ومدينته (قفصة) من غواية فيقول :[1]

سائل بقفصة هل كان الشقي لها ... بعلا فكانت له حمالة الحطب
تبت يدا كافر بالله ألهبها ... فكان كالكافر الأشقى أبى لهب
لما زنت وهى تحت الأمر محصنة ... رجمتموها اتباع الشرع بالحصب

وربما كان ابن سهل اليكى أكثر شعراء الأندلس هجاء للبربر ، وإن كان قد صدر فى هجائه لهم عن بواعث ذاتية ، فقد أفرط فى هجاء أهل فاس لما لقيه فيها من جفوة وخشونة وسوء معاملة ، ولذلك فقد وصمهم بكل منقصة ، ورماهم بالكذب والسرقة والزنا واللواط ، وأفحش فى هجائهم كقوله :[2]

يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم ... فاصبحت فيكم الآراء متفقة
كل امرىء منكم قد حاز منقصة ... بها أحاط كدور العين بالحدقة
وربما اجتمعت فى بعض سادتكم ... نقائص أصبحت فى الناس مفترقة
كالقرن والقود المشهور والكذب ال ... معروف والخلة الشنعاء والسرقة
فلا تهابن فاسياً مررت به ... وإن تقل فيه خيراً حول الورقة
والعنه شيخاً وكهلاً واجفه حدثاً ... و(....)[3] طفلا ولو ألفيته علقه
فلا سقى الله فاساً صوب غادية ... نعم ولا اخضر فى أرجائها ورقة

ولم ينج أحد من أهل فاس من لسان اليكى — حتى الطفل الصغير —[4] :

إذا الطفل منهم مس دائرة استه ... درى أنها مخلوقة للفياشل

ويهجو ابن ملجوم أحد أعيان فاس وأصلائها فيقول :[5]

وما سمى الملجوم إلا لعلة ... وهل تلجم الأفراس إلا لتركبا

---

[1] زاد المسافر ص ١٣٥ .
[2] نفسه ص ١٢١ .
[3] حذفنا الكلمة الصريحة وهى بصيغة فعل الأمر .
[4] زاد المسافر ص ١٢١ .
[5] المغرب ٢ / ٢٦٧ .

ويعرض اليكي ببخل أثرياء فاس وتقتيرهم فيقول [1]

قصدت جلة فاس أسترزق الله فيهم
فما تيسر منهم دفعته لبنيهم

ويذكر المقرى أن اليكي عندما أفرط في هجاء أهل فاس تعسفوا عليه وساعدهم واليهم مظفر الخصي من قبل علي بن يوسف ، والقائد عبد الله بن خيار الجياني ، فقدموا رجلا ادعى عليه بدين وشهد عليه رجل فقيه يعرف بالزناتي ، ورجل آخر يكنى بأبي الحسين من مشايخ البلد ، فأثبت الحق عليه وأمر به إلى السجن ، فرفع إليه ، وسيق سوقاً عنيفاً ، فلما وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه وكتب فيها : [2]

أرشو الزناتي الفقيه ببيضة يشهد بأن مظفراً ذو بيضتين
واهدوا إليه دجاجة يحلف لكم ما .... [3] عبد الله عرس أبي الحسين

ومن الطريف أن بعض شعراء البربر شاركوا شعراء الأندلس في هجاء البربر، على شاكلة أبي العباس الجراوى — وهو من أكبر شعراء المغرب — فقد هجا قبيلته — بني غفجوم — واستطرد إلى هجاء أهل فاس وقاضيهم ابن ملجوم على نحو ما صنع اليكي فقال : [4]

يا ابن السبيل إذا نزلت بتادلا [5] لا تنزلن على بني غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى إلا مجاوبة الصدى للبوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللوم
لا يملكون إذا استبيح حريمهم إلا الصياح بدعوة المظلوم
لاحظ في أموالهم ونوالهم للسائل العافي ولا المحروم
يا ليتني من غيرهم ولو انني من أرض فاس من بني الملجوم

---

[1] زاد المسافر ص ١٢٢ .
[2] نفح الطيب ٣ / ٣٢٤ .
[3] حذفنا الكلمة الصريحة وهي بصيغة الماضي المفرد
[4] أزهار الرياض ٢ / ٣٦٥ .
[5] تادلا : من جبال البربر تقع قرب فاس وتلمسان .

فـأبو العباس الجراوى – وهو شاعر بربرى – لم يتصد للدفاع عن قومه ولم يرد هجاء الأندلسيين لهم وهو ما كانت تفرضه طبيعة انتمائه وعصبيته لقومه ، ولكـنه شـارك الأندلسـيين فـى الهجـوم عـلى قومـه ، ورمـاهم كما فعل شعراء الأندلـس بالـبخل والجبن ولؤم الطباع وغير ذلك من الصفات القبيحة ، وركب الجـراوى طـريقة الجاهلـيين فـى الهجـاء من إحكام النسج ، وإتقان الصنعة ، وتـرديد المعـانى القديمـة – كالعجز عن حماية الذمار والنساء ، والصياح بدعوة المظلوم – فجاء هجاؤه أقرب إلى الهجاء الجاهلى .

ويمكـن أن نفسـر موقـف الجـراوى مـن زاويـتين : الأولى هـى خفـة حـدة التعصـب القبـلى عـنده ، أما الثانية فربما تتصل بدوافع ذاتية نجمت عما رآه الجراوى من صفات مستهجنة فى بعض أبناء قومه .

ومهمـا يكن من أمر ، فإن هجاء الأندلسيين للبربر سار فى اتجاهين ، كان أحدهمـا انطلاقـاً مـن دوافـع ذاتية ، أما الآخر فكان تعبيراً عن موقف سياسى ونتاجاً لعصبية قبلية تأصلت فى نفوس بعض الشعراء .

رسالة الشقندى :

تعد رسالة الشقندى فى الدفاع عن الأندلس انعكاساً لنزعة العصبية والتنافس بين الأندلسيين والمغاربة أو بين الأندلس وبر العدوة ، وقد كتب الشقندى رسالته إثر معركة كلامية حامية نشبت بينه وبين أبى يحيى ابن المعلم الطنجى حول المفاضلة بين بلديهما فكانت رسالة الشقندى التى أشاد فيها بمآثر الأندلس وعرض فيها بأبى يحيى فقال (1) : " أما بعد ، فإن حرك منى ساكناً وملأ منى فارغاً ، فخرجت عن سجيتى فى الإغضاء ، مكرهاً إلى الحمية والإباء ، منازع فى فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع ، ويأتى بما لا تقبله النواظر والأسماع . إذ من رأى ومن سمع لا يجوز عنده ذلك ، ولا يضله من تاه فى تلك المسالك ، رام أن يفضل بر العدوة على بر الأندلس ، فرام أن يفضل على اليمين اليسار ، ويقول الليل أضوأ من النهار ، فياعجباً كيف قابل العوالى بالزجاج ، وصادم الصفاة بالزجاج ، فيا من نفخ فى غير ضرم ورام صيد البزاة بالرخم ، كيف تتكثر بما جعله الله قليلاً ، وتتعزز بما حكم الله أن يكون ذليلاً ، ما هذه المباهتة التى لا تجوز ؟ وكيف تبدى أمام الفتاة العجوز . سل العيون إلى وجه من تميل ؟ واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغى ؟

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى　　　يزيد سليم والأغر بن حاتم

وتأخذ الرسالة شكل المناظرة ، ويشرع الشقندى فى الرد على أقوال أبى يحيى مظهراً تفوق الأندلسيين على المغاربة فى شتى المجالات ، ويبدأ بالرد على ما ذهب إليه أبو يحيى من الفخر بملوك المغرب فيقول : " أما قولك الملوك منا " فقد كان الملوك منا أيضاً ، وما نحن إلا كما قال الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا　　　ويوم نُساء ويوم نُسَر

---

(1) نفح الطيب ٣ / ١٨٦ .

" إن كـان الآن كرسى جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بنى عبد المؤمن ، أدامهـا الله تعـالى ، فقـد كـان عـندنا بخلافـة القرشيين " . ويتباهى الشقندى بمآثـر ملـوك الأندلـس ، كالمنصور ابن أبى عامر " الذى بلغ فى بلاد النصارى غازيـاً إلى البحر الأخضر ، ولم يترك أسيراً فى بلادهم من المسلمين ، ولم يبرح فـى جـيش الهـرقل وعـزمة الإسـكندر " ،ويفخر بملوك الطوائف الذين " نفقوا سـوق العلوم ، وتباروا فى المثوبة على المنثور والمنظوم ويخص منهم بنى عباد " فإن الأيام لم تزل بهم كأعياد ، وكان لهم من الحنو على الأدب ، ما لم يقم به بـنو حمـدان فى حلب " ، ويعرض الشقندى بملوك البربر السابقين على ملوك الموحدين فيقول : " وبالله إلا سميت لى بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ، أبسـقون الحاجـب ؟ أم بصـالح الـبرغواطى ، أم بيوسف بن تاشفين الذى لولا توسـط ابـن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه قدراً ؟

ويسخر الشقندى من جهل يوسف بن تاشفين باللغة وافتقاده إلى فهم الشعر والإحسـاس بـه فيشـير إلى أن المعتمد قال له وقد أنشده الشعراء : " أيعلم أمير المسـلمين مـا قـالوه ؟ قال : لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبر ، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها :

بنـتم وبـنا فمـا ابتلـت جوانحـنا	شـوقاً إلـيكم ولا جفـت مآقيـنا
حالـت لفقدكـم أيامـنا فغـدت	سـوداً وكانـت بكـم بيضـاً ليالـينا

فـلما قـرىء علـيه هـذان البيـتان قـال للقـارىء : يطلـب منا جوارى سوداً وبيضـاً؟ قال : لا يا مولانا . ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأن لـيالى السـرور بـيض ، فعـاد نهاره ببعده ليلاً لأن أيام الحزن ليال سود ، فقـال : والله جـيد ، اكتب له فى جوابه : إن دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده ! " [1]

---

[1] نفح الطيب ٣ ١٩١ ١٩٢ .

وينـتقل الشـقندى إلى المفاخـرة بعلماء الأندلس الذين برعوا فى الفقه واللغة والأدب وعـلم الـنجوم والفلسـفة وغيرها جارياً على طريقته فى الحوار والمناظرة كقولـه : " وإنـك إن تعرضـت للمفاضـلة بالعلماء فأخبرنى : هل لكم فى الفقه مثل عبد الملك بن حبيب .. ومثل أبى الوليد الباجى ؟ "

" وهـل لكـم فى النحو مثل أبى محمد بن السيد وتصانيفه .. وهل لكم فى عـلم الـنجوم والفلسفة والهندسة ملك كالمقتدر بن هود صاحب سرقسطة ، وهل لكـم فـى الطـب مـثل ابن طفيل .. ومثل بنى زهر .. وهل لكم فى علم التاريخ كـابن حـيان صـاحب " المتين " و " المقتبس " .. وهل لكم فى الاعتناء بتخليد مآثـر فضـلاء إقليمـية ، والاجـتهاد فـى حشد محاسنهم مثل ابن بسام صاحب "الذخيرة" ؟ وهب أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكيسة فى البيت الفارغ".

ويكثر الشقندى من الوقوف عند شعراء الأندلس مفتخراً بإجادتهم فى فنون الشـعر ، ومدلـلاً على براعتهم فى الوصف والتخيل ، ويقول مخاطباً أبا يحيى مشـيراً إلى ضـآلة مـنزلة شـعراء المغـرب بالقـياس إلى شـعراء الأنـدلـس : " وقد أطلت عنان النظم ، على أنى اكتفيت عن الاستدلال على النهار بالصباح فـبالله إلا مـا أخـبرتنى : مـن شاعركم الذى تقابلون به شاعراً ممن ذكرت ؟ لا أعـرف لكم أشهر ذكراً ، وأضخم شعراً ، من أبى العباس الجراوى ، وأولى لكم أن تجمـدا فخـره ، وتنسوا ذكره ، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم فى قوله من قصيدة يمدح بها الخليفة :

إذا كـان أمـلاك الـزمان أراقمـاً　　　فـإنك فـيهم دائـم الدهـر ثعـبان

فمـا أقبح " ثعبان " وما أضعف ما جاء " دائم الدهر " . ولقد أنشدت أحد ظرفاء الأندلـس هـذا البيت ، فقال . لا ينكر هذا على مثل الجراوى فسبحان من جعل نسبه وروحه وشعره تتناسب فى الثقالة ." [1]

---

(1) نفح الطيب ٣ - ٢٠٩ - ٢١٠ .

وعلى هذا النحو يمضي الشقندى في رسالته ، فيتفاخر بالفرسان والشجعان من أهل بلده ، ويسوق حكايات تدل على كرم النفس وشمائل الرئاسة ، ويأخذ في تعداد محاسن المدن الأندلسية ، فيشيد بمزايا إشبيلية وقرطبة ومرسية وغرناطة وغيرها ، ولا ينسى في ذلك كله أن يعرض بالمغاربة ، فإذا تحدث عن أصناف أدوات الطرب المنتشرة في مدن الأندلس " كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون .. إلخ " أشار إلى أنه " ليس في بر العدوة من هذا شيء إلا ما جلب إليه من الأندلس ، وحسبهم الدف وأقوال وليرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحماقى البربر " [1] وحين يتحدث عن شهرة بليش إحدى قرى مالقة بشجر التين يقول : " وتين بليش هو الذى قيل فيه للبربرى : كيف رأيته ؟ قال : لا تسألني عنه ، وصب في حلقي بالقفة ؛ وهو لعمر الله معذور لأنه نعمة حرمت بلاده منها " [2]

ورسالة الشقندى ليست هي الرسالة الوحيدة في موضوعها ، فقد سبقتها رسالة لابن حزم [3] ، وأخرى لصفوان بن إدريس [4] في تفضيل الأندلس وهذه الرسائل تعبير واضح عن اعتزاز الأندلسيين بوطنهم ، وتعصبهم له ، وفي مقابل ذلك نجد رسائل أخرى تتحدث عن (مفاخر البربر) [5] مما يشير إلى أن راية النثر كان أكثر وضوحاً من الشعر في إظهار تعصب البربر لقومهم .

---

(1) نفح الطيب ٣ ٢١٣ .

(2) نفسه ٣ - ٢١٩ .

(3) نفسه ٣ ١٥٦ .

(4) زاد المسافر ص ١٣ .

(5) مخطوطة الرباط . ك . ١٢٧٥ .

هجاء اليهود :

تسلل اليهود إلى المجتمع الأندلسى قبل الفتح العربى وباتوا يؤلفون عنصراً من عناصر سكانه وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كمحررين لأن النورمان كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب ، .. وفى القرن العاشر الميلادى كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً ، وكانوا يمتهنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة ، وقد تقلب بعضهم فى مناصب الدولة ولاسيما فى عهد الناصر [1] .

وقد أشاد (جوستاف لوبون) بما لقيه اليهود من معاملة حسنة فى الأندلس فذكر أن أسبانيا العربية كانت هى البلد الأوربى الوحيد الذى كان اليهود يتمتعون فيه بحماية الدولة ورعايتها [2] .

وقد ارتفع شأن اليهود فى بعض الفترات ، وتقلد بعضهم مناصب الوزارة وقويت شوكتهم فى غرناطة فى عصر ملوك الطوائف ، فاستوزرهم بنو زيرى وسيطروا على مقاليد الأمور ، فنشأ تيار مناهض لنفوذ اليهود ، وارتفعت أصوات الشعراء تعبر عن سخط الأندلسيين وغضبتهم لتحكم اليهود فى شئون المسلمين واستئثارهم بخبراتهم وقد عبر عن ذلك أبو الحسين يوسف بن الجد فقال : [3]

تحكمت اليهود على الفروج ... وتاهت بالبغال وبالسروج
وقامت دولة الأنذال فينا ... وصار الحكم فينا للعلوج
فقل للأعور الدجال هذا ... زمانك إن عزمت على الخروج

وكان أبو إسحاق الإلبيرى أبرز شعراء الأندلس الذين عبروا عن مشاعرهم المناهضة لليهود ، فقد عاش حياة قلقة فى غرناطة . وهاله استبداد اليهود بأمورها . ولم يكن راضياً عن إيثار حكام غرناطة لهم ، فقد اختصوا بنى

---

(1) فى الادب الأندلسى للركابى ص ٤١ .
(2) حضارة العرب ص ٢٩٦ .
(3) الذخيرة ٣ ٢ - ٥٦٢ .

النغريلة بمناصب الوزارة ، وتركوهم يصرفون الأمور حسب أهوائهم مقابل الجبايات الضخمة التى كانوا يجمعونها من الناس ويقتسمونها معهم ، فتحكم هؤلاء الوزراء ومعهم المتصرفون اليهود فى مقدرات المسلمين ، يقول ابن عذارى مشيراً إلى تسلط اليهود فى تلك الفترة : " ودامت رياسة حبوس إلى أن هلك سنة ٤٢٨هـ ، فولى بعده ابنه باديس بن حبوس .. فأمضى باديس وزيراً له وكاتباً وزير أبيه اسماعيل بن نغرلة اليهود على وزارته وكتابته وسائر أعماله ورفعه فوق كل منزلة ، فأتخذ هذا اليهودى عمالاً ومتصرفين فى الأشغال واكتسبوا الجاه والمال فى أيامه واستطالوا على المسلمين ، وكان هذا اليهودى من أهل الأدب والشعر ، فدام أمره كذلك إلى أن هلك ، وترك ابناً له اسمه (يوسف) لم يعرف ذلة الذمة ولا قدر اليهودية ، وكان جميل الوجه ، حاد الذهن ، فأخذ نفسه بالاجتهاد فى الأحوال ، واستخرج الأموال ، واستعمل اليهود إخوانه على الأعمال فزادت منزلته عند أميره باديس ، وكانت له عيون عليه فى قصره من نساء وفتيات شغلهم الملعون بالإحسان إليهم والإنعام عليهم فكان لا يخفى عليه شىء من أمور باديس من كل ما يجرى فى منزله من شراب ولهو وجد وهزل إلا ويعلمه ويعلم اليهود به ، فلا يكاد باديس يتنفس إلا ويعلم اليهود ذلك .. وصارت لليهود صولة على المسلمين فى دولته "[1] وتصاعدت مشاعر الغضب تجاه اليهود ، ونظم أبو اسحاق الإلبيرى قصيدته الشهيرة فى هجاء اليهود وتحريض البربر للثورة عليهم . ووضع حد لنفوذهم الذى استشرى وأعضل داؤه المسلمين .

ويمكن أن نقسم القصيدة إلى أربعة أقسام ؛ ففى القسم الأول يستثير الإلبيرى قبائل صنهاجة ، ويحفزهم لتدارك هذه السقطة الشنيعة التى وقع فيها باديس بن حبوس حين استوزر يوسف بن النغرلة ، فعز به اليهود ، وتسلطوا على المسلمين ، وملأوا خزائنهم بالأموال ، وتجاوزوا المقدار فى بغيهم . ويدعو الإلبيرى باديس والصنهاجيين إلى أن يأخذوا القدوة من السلف

---

[1] البيان المغرب ص ٢٦٤ " ط ليفى برنتسال " .

الصالح الذين أدركوا حقيقة اليهود وضربوا عليهم الذلة والمسكنة . يقول أبو إسحاق [(1)] .

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور الندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة	تقرُّ بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً	ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى	فحان الهلاك وما يشعرون
فكم مسلم فاضل قانت	لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم	ولكنْ منّا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالألى	من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستأهلون	وردَّهمُ أسفل السافلين

وفى القسم الثانى من القصيدة يستثير أبو إسحاق حمية باديس ويهيج مشاعره للغضب على أولئك اليهود الذين بغَّضوه إلى الناس ، وهدموا ما شيد من صروح وينعتهم بأقبح الأوصاف ، فهم " فراخ الزنا " وهم أهل الفسق وأرباب الفساد ويلوح بالمعانى القرآنية التى وردت فى شأنهم فيقول : [(2)]

أباديس أنت امرؤ حاذق	تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف اختفت عنك أعيانهم	وفى الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا	وهم بغضوك إلى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى	إذا كنت تبنى وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق	وقارنته وهو بئس القرين
وقد أنزل الله فى وحيه	يحذر عن صحبة الفسقين
فلا تتخذ منهم خادماً	وذرهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم	وكادت تميد بنا أجمعين
تأمل بعينيك أقطارها	تجدهم كلاباً بها خاسئين

---

(1) ديوان أبى أسحق الالبيرى ص ٩٦ ٩٧ .

(2) ديوان الإلبيرى ص ٩٧ .

وفي القسم الثالث يشير أبو إسحاق إلى واقع غرناطة الأليم بعد أن استحالت في عهد باديس إلى بيئة يهودية ، وبعد أن آلت خيرات المدينة إلى اليهود ، ويتكيء أبو إسحاق على عنصر " المقابلة " فيقارن بين ما انصرف إليه اليهود من ثراء وترف ، وبين أحوال البؤس التي صار إليها أهل غرناطة ، يقول أبو إسحاق : [1]

وإني احتللت بغرناطة ... فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ... فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها ... وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا ... وأنتم لأوضعها لابسون
وهم يذبحون بأسواقها ... وأنت لأطرافها آكلون

وفي القسم الأخير من القصيدة يُسخّر الإلبيري كل ما يمتلكه من أدوات لإثارة باديس والصنهاجيين للتنكيل بابن النغريلة وقومه ، فيتحدث عن النعيم الذي يرتع فيه ، ويشير إلى سخريته واستهزائه بمعتقدات المسلمين ويدعو صراحة إلى قتل هذا الوزير وقومه الذين نكثوا العهد ، يقول : [2]

ورخم قردهم داره ... وأجرى إليها نمير العيون
فصارت حوائجنا عنده ... ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فإنا إلى ربنا راجعون
فبادر إلى ذبحه قربة ... وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه ... فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عداهم وخذ مالهم ... فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدرة ... بل الغدر في تركهم يعبثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم ... فكيف نُلام على الناكثين

---

[1] نفسه ص ٩٨ - ٩٩ .

[2] ديوان الإلبيري ص ٩٩ ، ١٠٠ .

وقد أحدثت قصيدة الإلبيرى أثراً هائلاً فى نفوس الصنهاجيين ، فاستثارت هممهم ، واستنهضت عزائمهم ، فاندفعوا فى ثورة عارمة ، فتكوا خلالها بابن النغريلة وبمن وقع تحت أيديهم من اليهود .

ولم يتكلف الإلبيرى فى قصيدته ، ولم يغرب فى صوره ومعانيه وألفاظه بل اختار هذا الأسلوب السهل المباشر الذى يقترب من أسلوب النثر إلى حد بعيد لأنه أدرك بحاسته الفنية الدقيقة أن حظ أولئك البربر من الثقافة العربية ضئيل، وأن نصيبهم من تذوق الشعر والوقوف على أسراره محدود ، فصاغ أفكاره بلغة سهلة ، وعمد إلى استخدام صيغ وتراكيب معينة أخذ يرددها بكثرة كقوله " وهم يقبضون .. وهم يخضمون .. وهم يليسون وهم يذبحون .. إلخ " ومن هذه التراكيب المألوفة التى كررها كثيراً قوله : فكيف اختفت عنك أعيانهم ، وكيف تحب .. وكيف يتم لك المرتقى .. إلخ وجنح إلى الصور البسيطة التى يألفها الذوق العادى والتى لا تخلو فى الوقت نفسه من التهكم والسخرية كقوله: " ورخم قردهم داره ... " وقوله : " وضح به فهو كبش سمين " . واتكأ أبو إسحاق على العاطفة الدينية ، وعزف على هذا الوتر بمهارة حتى استطاع أن يثير مشاعر المسلمين وأحاسيسهم ، يقول جارثيا جومث عن قصيدة أبى اسحق : " والحق أن هذه القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلا فى القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً سياسياً مباشراً فى التاريخ السياسى لأمة من الأمم فكهربت العزائم ، ودفعت بها فى سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، وشحذت السيوف للقتل ، كالدور الذى لعبته هذه القصيدة ... إن ما تعرض له الشعراء فى الأندلس من إشارات سياسية كان يأتى عابراً كوخز الإبر الناعمة ، أو مخبأ كالطعوم المسمومة فى مهارة ، لكن هذا الشيخ لا يهدأ ، إنه برعم وفى لدم عربى ، ما أكثر ما أشعل بالهجاء البدوى الفاحش روح الصراع بين القبائل .. ولعل الشعر الأندلسى لم يعرف أبداً البساطة عارية كما عرفها فى هذه القصيدة ، وفى الوقت نفسه لم

ير قصيدة مثلها ، يلفها مثل هذا الإعصار من المشاعر . لقد اجتاحت أنغامها ، حية ، متوهجة ، أعماق المدينة ، مع زفير النيران ، وحشرجة الموتى ! [1]

لقد وضع بنو النغريلة نهايتهم بأيديهم ليس فقط لأنهم استأثروا بالمناصب الهامة وتحكموا فى مقدرات المسلمين ، بل لأنهم أظهروا عداءهم للإسلام وتطاولوا عليه بشكل سافر على نحو ما صنع يوسف بن النغريلة حين ألف كتاباً زعم أنه ثمة تناقضاً فى كلام الله فى القرآن الكريم ، كما نقل عنه أنه كان ينظم القرآن شعراً وموشحات ، وقد ألمح أبو إسحاق الإلبيرى إلى صنيعه هذا عندما قال :

ويضحك منا ومن ديننا فإنا إلى ربنا راجعون

وكان هذا السبب وحده كفيلاً باستثارة مشاعر المسلمين وحنقهم على اليهود، وقد تصدى ابن حزم للرد على مزاعم ابن النغريلة فى رسالة طويلة عرض فيها لتلك المزاعم ورد عليها واحدة فواحدة ، وكان يشفع رده بانتقاد بعض المسائل التى وردت فى التوراة لافتاً ابن النغريلة إلى أنَّ بيته من زجاج[2] وقد عرض ابن حزم فى رسالته بابن النغريلة وأشار إلى ما حققه من ثروات على حساب المسلمين ، وما أظهره من عداء للإسلام واستخناف بأهله فقال [3] " إن بعض من تلقى قلبه العداوة للإسلام وأهله وذوبت كبده ببغضه للرسول صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل ، وأرذل النحل من اليهود التى استمرت لعنة الله على الموسومين بها ، واستقر غضبه عز وجل على المنتمين إليها ، أطلق الأشر لسانه ، وأرخى البطر عنانة ، واستشمخت لكثرة الأموال لديه ، نفسه المهينة ، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده ، همته الحقيرة ، فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل

---

(1) مع شعراء الأندلس والمتنبى ص ١٣٤ وما بعدها .

(2) الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى لابن حزم تحقيق د. إحسان عباس ص ١٩ .

(3) المرجع السابق ٤٦ ، ٤٧ .

فـى القـرآن ، اغتراراً بالله تعالى أولاً ، ثم بملك ضعفه ثانياً ، واستخفافاً بأهل الديـن بدءاً ، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عوداً ، فلما اتصل بى أمر هذا اللعين لم أزل باحـثاً عن ذلك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرنى الله عز وجل من نصـر ديـنه بلسـانى وفهمى ، والذب عن ملته ببيانى وعملى .. فأظفرنى القدر بنسـخة رد فيها عليه رجل من المسلمين . فانتسخت الفصول التى ذكرها ذلك الـراد عـن هذا الرذل الجاهل ، وبادرت إلى بطلان ظنونه الفاسدة . بحول الله تعالى وقوته " .

ويفهـم مـن كـلام ابـن حـزم أنه لم ينفرد وحده بالرد على ابن النغريلة بل شاركه فى ذلك آخرون .

وقـد أكـثر حـزم فـى رسـالته مـن ذم ابن النغريلة ونعته بأقبح الأوصاف ، فـرماه بالـزندقة والـنذالة والوضـاعة وسـوء الخلق على نحو ما يبدو فى قوله [1] ومـا أرى هـذا الـزنديق الأنـوك إذ اعترض بهذا الاعتراض كان إلا سكران سكر الخمر، وسكر عجب الصغير إذ كبر ، والخسيس إذا أسر ، والذليل الجائع إذا عز وشبع ، والسفلى إذا مر وشط ، والكلب إذا دبك ونشط .. وكيف بخلق سوء متكرر فى الخساسة والهجنة والرذالة والنذالة واللعنة والمهابة ؟

ولله در القائل :

إذا أنـت أكرمـت الكـريم ملكـته   وإن أنـت أكرمـت اللئـيم تمـردا

ويصـوب ابـن حـزم سـهامه إلى الـيهود جمـيعاً فيصفهم بأنهم " عصابة لا تحسـن إلا الخبـث مـع مـبانـة الظاهـر . فـيأنس المغـتر إلى الضعف البادى . وتحـت ذاك الخـتل والخـتر والكيد والمكر . كاليهود . الذين لا يحسنون شيئاً مـن الحـيل ، ولا آتـاهم الله شـيئاً مـن أسـباب القـوة . وإنمـا شـأنهم الغـش والتخابـث والسرقة على التطاول والخضوع ، مع شدة العداوة لله ولرسوله صلى

[1] الرد على ابن النغريلة ص ٤٩ .

الله علـيه وسلم " [1] ويختم ابن حزم رسالته بدعوة المسلمين إلى اجتناب اليهود ومقاطعتهم .

" فليـتق الله تعـالى امـرؤ آتاه الله نعمة من نعمه . ومنحه عزة . وليجتنب هـؤلاء الأنجـاس الأنـتان الأقـذار الذين أحاق الله تعالى بهم من الغضب واللعنة والذلـة والقلـة والمهانـة والسخط والخسـاسة والوسخ مالم يحق بأمة من الأمم قط وليعـلم أن هـذه الكبى التى كساهم الله تعالى إياها أعدى من الجرب ، وأسرع تعلقاً من الجذام " [2] .

فـابن حـزم وأبو إسحاق الإلبيرى – وكلاهما فقيه – هما اللذان قادا حملة المعارضـة ضد اليهود ، والتصدى لهم ، وإن كان ثمة فارق بين طبيعة المعارضة عـند كـل مـنهما ، فقد كان الإلبيرى أكثر جرأة حين دعا – صراحة إلى الثورة عـلى الـيهود واستئصـال شـأفتهم بيـنما اكـتفى ابن حزم بالدعوة إلى تحاشيهم وفرض العزلة عليهم .

---

[1] نفسه ص ٤٦ .

[2] الرد على ابن النغريلة ص ٨١ .

هجاء الشعوبية

كانت مشكلة الشعوبية إحدى المشكلات الخطيرة التى عانى منها المجتمع العربى لاسيما فى العصر العباسى . ويشخص أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام بواعث هذه المشكلة فيقول [1] : " وقد أدت إلى قيام هذه المشكلة أسباب عدة منها عصبية العرب لعروبتهم ، وتمسكهم بأنسابهم ، واعتبارهم كل من لا يمت بنسب أو من لا يمتد نسبه ويعرق دعياً .. وشعر المولدون أو الموالى باحتقار العرب لهم ، فأحسوا فى نفوسهم بالضيق . وشعروا أنهم لا يقلون عن العرب استحقاقاً ورعاية من الناس والدولة ، فهم أكفاء للعرب لا يقلون عنهم من حيث الثقافة والاستعداد والحضارة والتاريخ القديم . بل لعلهم يفوقونهم فى التاريخ القديم . ومن هنا نشأت مشكلة الشعوبية التى أثرت تأثيراً كبيراً فى الأدب والعلم والحياة ، وظلت أصداؤها تتجاوب فى أنحاء الأمة الإسلامية مدة مديدة من الزمن " .

وقد وجدت مشكلة الشعوبية أصداء لها فى المجتمع الأندلسى ، وكانت بواعث وجودها فى الأندلس هى نفس البواعث التى أدت إلى وجودها فى المشرق ، ونعنى بذلك وجود طبقة من المولدين تشعر بالغبن والازدراء ، فى مقابل طبقة أخرى من العرب تشعر بالتفوق والزهو " ويميز المؤرخون بين العناصر العربية أو البربرية التى جاءت فحلت الجزيرة الأندلسية منذ الفتح وبين العناصر الإسبانية التى اعتنقت الإسلام . وهذه العناصر الأسبانية المسلمة تسمى عند المؤرخين العرب بالمسالمة أو بالمولدين . فاسم (المسالمة) يطلق على الإسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام . واسم (المولدين) على نسلهم وكان المولدون يؤلفون زمن الأمويين القسم الهام من شعب الدولة الأموية لتد اعتنقوا الإسلام بسرعة وأصبح من الصعب . بعد عدة أجيال مضت . تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة . وقد أخذ عددهم فى الازدياد منذ حكم عبد الرحمن

---

[1] دراسات فى الأدب العربى – العصر العباسى . ص ١٦ ١٧ .

الثاني إذ اعتنق في عهده أعداد كثيرة من الإسبانيين الدين الإسلامي ، وكان بينهم من دخل في خدمة المسلمين وأصبحوا موالي لأسيادهم وتلقبوا بألقابهم ، ومنهم من احتفظ باسمه الأسباني .. وكان من عادة مؤلفي التراجم عندما يذكرون ترجمة رجل عربي أن يأتوا على ذكر نسبه مشيرين إلى اسم الجد الأول الذي جاء إلى الأندلس [1] .

وبجانب طبقة المولدين وجدت طبقة اجتماعية أخرى كان لها تأثيرها في المجتمع الأندلسي ، ونعني بذلك " الصقالبة " وهذه التسمية تنسحب على السلافيين بوجه خاص ، وعلى أسارى الحرب والأرقاء من مختلف الشعوب الشمالية بوجه عام [2] .

وبمرور الوقت أصبح الصقالبة يشكلون طبقة هامة في المجتمع الأندلسي " واستطاع فريق منهم أن يتحرر من العبودية ويشغل مكاناً لائقاً في الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك الأراضي غنياً ، وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة الأندلسية فرأينا فيهم بعض الأدباء والشعراء والمؤلفين .. وكلما ازداد عدد الصقالبة ازداد تأثيرهم ، وقاموا يلعبون دوراً سياسياً هاماً ، وقد بدءوا في عهد عبد الرحمن الثالث بتقلد المناصب العالية في الدولة حتى إنهم قد قلدوا مناصب القيادة العسكرية وكان الخليفة يستخدمهم ليضعف من سلطة الأرستقراطية العربية ويحاربها . وقد أظهر خليفة الناصر . الحكم الثاني كثيراً من التساهل تجاه الصقالبة مما جعل المؤرخين العرب يدهشون لموقفه السياسي لاسيما بعد أن أخذوا يمعنون في التكبر والوقاحة .. " [3]

وقد أدى وجود المولدين والصقالبة إلى ظهور النزعة الشعوبية في الأندلس ويبدو أن ظهورها يرجع إلى وقت مبكر ، فنقرأ أن أحد الصقالبة . ويدعى

---

[1] في الأدب الأندلسي . ص ٣٥ – ٣٦ .

[2] انظر موجز بحث جولد تسيهر عن (الشعوبية عند مسلمي اسبانيا) أورده الأستاذ عبد السلام هارون في (نوادر المخطوطات) جـ ١ ص ٢٤١ .

[3] في الأدب الأندلسي للركابي ص ٣٨ وما بعدها .

حبيباً – يؤلف كتاباً يشيد فيه بمآثر قومه فيسميه (كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) "[1] . ولعل هذا الكتاب أول محاولة للكتابة فى دائرة الشعوبية ، وإن لم يكن فى صميمها ، لأن مؤلفه دافع عن عنصره ولم يهاجم غيره .[2]

وظهرت بوادر الشعوبية فى الشعر الأندلسى منذ وقت مبكر ، ففى عصر الخلافة ، عبر الشعر عن الصراع الأدبى بين العرب والمولدين ، " وكان يمثل صورة من النقائض المشرقية ، وفيه فى الجانب العربى الفخر بالقبلية ، وكان العرب لهم قادتهم مثل سوار بن حمدون القيسى الثائر بناحية البراجلة ، وقد انضمت إليه بيوتات العرب من كورة وجيان ورية وغيرها ، فتغلب على المولدين ، وافتخر بنصره . وامتداد سلطانه وبقومه قيس فى قصيدة طويلة ثم وجه سوار همته إلى محاربة ابن حفصون وأتباعه وانتصر عليهم فى وقعة (المدينة) وكان صاحبه سعيد بن جودى أحد الشعراء الذين تمدحوا بذلك الانتصار فقال :[3]

يقول بنو الحمراء لو أن جنحنا ... يطير لغشاكم بشؤبوب وابل

وكان من مظاهر احتدام الصراع الأدبى بين المولدين والعرب فى عصر الخلافة ظهور لون من المناقضات الشعرية بين الفريقين ، " وكان للمولدين شاعرهم المحامى عنهم ، ويعرف بالعبلى ، واسمه عبد الرحمن أحمد وينسب إلى قرية عبلة ، ويناظره الشاعر الأسدى واسمه محمد بن سعيد مخارق الأسدى أسد بنى خزيمة ، وكان كل منهما يحرض قومه ويناضل عن مذهبه . ويصف ما يجرى لقومه على أضدادهم من الوقائع المخزية "[4] . فمن أمثلة هذه المناقضات قول العبلى يشيد بأحد انتصارات قومه على العرب :[5]

---

[1] نفح الطيب ٣ – ٨٢ .

[2] (الشعوبية عند مسلمى أسبانيا) بحث جولد تسيهر ، نوادر المخطوطات ص ٢٤١ .

[3] تاريخ الأدب الأندلسى – عصر سيادة قرطبة ص ٩٧ وما بعدها .

[4] فى الأدب الأندلسى – عصر سيادة قرطبة – ص ٩٨ .

[5] المرجع نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .

قــد انقضــت قــناتهم وذلــوا وزعـــزع ركـــن عـــزهم الأذل

ورد عليه الاسدى شاعر العرب بقصيدة من نفس البحر والروى يعتمد فيها طريقة القدماء فى النسج والصياغة ، منها قوله : [1]

قــد احــتمل الأحــبة واســتقلوا لطيـــتهم بلـــيل واحـــزألوا
فظــل الدمــع مــن جــزع علــيهم إذا احـــتملوا يســـح ويســـتهل
سأصــرف همــتى عــنهم وأســلو بهجــوى معشــراً كفــروا وضــلوا

وكانت منطقة إلبيرة من أظهر مناطق الصراع بين العرب والمولدين فى عصر الخلافة ، فقد أحدث فيها المولدون فتناً كثيرة مثل فتنة عمر بن حفصون زعيم العجم التى استمرت أكثر من نصف قرن حتى تم القضاء عليه فى خلافة عبد الرحمن الناصر ، وقد تغنى ابن عبد ربه بهزيمة ابن حفصون فقال : [2]

رام ابـن حفصـون الـنجاة فـلم يسـر والســيف طالــبه فلــيس بــناج
مــازال يلقــح كــل حــرب حــائل فـــالآن أنـــتجها بشـــر نـــتاج
ركــبوا الفــرار بعصــبة قــد جــربوا غـــب الســـرى وخوافـــت الإدلاج
وإذا ســـألتهم مـــوالى مـــن هـــم قـــالوا : مـــوالى كـــل لـــيل داج

وبسقوط الخلافة الأموية وانقسام الأندلس إلى دويلات أتيح للنزعة الشعوبية أن تقوى وتحتدم ، وكان من أهم الأسباب التى أدت إلى احتدامها ضعف النفوذ العربى ووصول بعض أبناء الصقالبة والمولدين إلى الحكم على شاكلة أبى الجيش مجاهد العامرى – وهو أحد الموالى الصقالبة – الذى استأثر بحكم مملكة (دانية) ، وقد أضحى بلاط مجاهد ملاذاً للشعوبية ، فقد لاذ بكنفه اللغوى (ابن سيدة) صاحب (المخصص) الذى قال عنه صاحب سير النبلاء : " كان شعوبياً يفضل العجم على العرب .. وكان منقطعاً إلى الأمير مجاهد العامرى[3] وقد نشأ فى بلاط مجاهد أبو عامر بن غرسية أقوى صوت شعوبى

---

(1) المرجع نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .
(2) نفسه ص ٩٧ .
(3) سير النبلاء القسم الثانى ١١ ٨٠ مصورة دار الكتب .

ظهر في الأندلس ، فقد ألف رسالة مشهورة في تفضيل العجم على العرب ، وهي كما وصفها ابن بسام " رسالة ذميمة ، أغرب في تسطيرها وذم فيها العرب ، وفخر بقومه العجم " .[1]

وقد ترجم ابن سعيد لأبي عامر بن غرسية فوصفه بأنه " من عجائب دهره، وغرائب عصره ، وإن كان نصابه في العجمية ، فقد شهدت له رسالته المشهورة بالتمكن من أعنة العربية ، وهو من أبناء نصارى البشكنس ، سبي صغيراً ، وأدبه مجاهد مولاه ، ملك الجزر ودانية ، وكان بينه وبين أبي جعفر ابن الجزار صحبة أوجبت له أن استدعاه من خدمة المعتصم بن صمادح ملك المرية. ناقداً عليه ملازمة مدحه وتركه ملك بلاده " [2]

فالباعث على كتابة رسالة ابن غرسية هو ذلك الخلاف الذي نشب بينه وبين الأديب أبي جعفر بن الجزار ، وقد تفاقم الخلاف بين الرجلين مما دعا ابن غرسية إلى هجائه بمثل قوله : [3]

بطرنة تعلم أصلاً له	عزبت فسلها فما تنكر
ومثل بها وضماً ماثلا	وشفرة جزر ولا أكثر
تجر ذيول العلى تائهاً	وجدكم الجازر الأكبر

وقد بدأ ابن غرسية رسالته بالسخرية من ابن الجزار الذي وقف شعره على مدح أمراء العرب والإشادة بمآثرهم كأنه لا يوجد في الأرض سواهم فقال [4]
" سلام عليك ذا الروى المروى ، الموقوف قريضه على حللة بجانة أرش اليمن ، بزهيد الثمن ، كأن ما في الأرض إنسان ، إلا من غسان ، أو من آل حسان .."

وينتقل ابن غرسية إلى الفخر بقومه العجم والتعريض بالعرب فيقول :
" أحسبك أزريت ، وبهذا الجيل ازدريت ، وما دريت ، أنهم الصهب الشهب

---

(1) الذخيرة ٣ - ٢ - ص ٧٥٢ - ٧٥٣ .
(2) المغرب ٢ - ٤٠٦ وما بعدها .
(3) نفسه ٢ / ٣٥٦ .
(4) نوادر المخطوطات ج١ ص ٢٤٦ وما بعدها .

ليسوا بعرب ذوى أينق جرب ، أساورة ، أكاسرة ، مجد ، نجد ، بهم ، لا رعاة شويهات ولا بهم ، شغلوا بالماذى والمران ، عن رعى البعران ، وبجلب العز عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة الروح ، نماة الصروح ، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الخرصان ، لكنهم خطبة بالخرصان :

مـا ضـرهم أن شـهدوا أمجـادا أو كـافحوا يـوم الوغـى الأنـدادا

ألا يكون لونهم سوادا

وفـى مقام الفخر بقومه يلتفت ابن غرسية إلى التاريخ فيشير إلى أن هاجر أم العرب كانت أمة لسارة أم العجم ويحمل على العرب بشدة فيقول : " أرومة رومية ، وجرثومة أصغرية .. حسب جرى ، ونسب سرى ، أمكم لأمنا كانت أمة ، إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة ، ولا تهايل فى التكايل ، فما سنساقط قروداً ، ولا حكنا بروداً ، ولا لكنا عروداً ، فلا تهاجر ، بنى هاجر أنتم أرقاؤنا وعبدتنا ، وعتقاؤنا وحفدتنا ، مننا عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق ، وألحقناكم بالأحرار ، فغمطتم النعمة ، فصفعناكم صفعاً ، يشارك سفعاً ، اضطركم إلى سكنى الحجاز ، وألجأكم إلى ذات المجاز " .

وعلى هذا النحو تمضى رسالة ابن غرسية ، فما من فضيلة يراها إلا وينسبها لقومه ، وما من منقصة إلا ويلصقها بالعرب ، فقومه من العجم ضراغمة الأجم ، لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبجحت عليهم سارة الجمال ربه الإياة .. دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب .. شرهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ، وبركوب السروج عن الكلب والفروج ، وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبائب ، وبالحب عن الخب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الخمر والزمر وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان "

ويعود ابن غرسية إلى أحداث التاريخ مرة أخرى مفتخرا بأمجاد قومه السياسية ومزرياً بالعرب فيقول : " أما علمتم أن الدولة النوشروانية ، والمملكة الأردشيرية بقروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الحيرة بعد الحيرة ، قللا ذللا ، تتخيرون البنات ، عند البيات ، مبهورات لا ممهورات ، فبرم من ذلك غسانكم ونعمانكم " .

ويتباهى ابن غرسية بأمجاد العجم فى شتى مجالات العلوم فيقول : " حلم، علم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ،والعلوم المنطقية الرياضية ، كحملة الأسترلوميقى والموسيقى ، والعلمة بالأرتماطيقى والجو مطريقى ، والقومة بالألوطيقى والبوطيقى ، والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع ، والمهرة فى علوم الأديان ، والأبدان ... "

ولكى ينأى ابن غرسية بنفسه عن مظنة الطعن فى العقيدة الدينية يفتخر بالنبى عليه السلام وإن ظلت روح كراهية العرب تسيطر عليه فيقول : " ولا غرو أن كان منكم حبره وسبره ، ففى الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف العذاب مستودعات بمسك العزال .. "

ويختم رسالته بذم ابن الجزار قائلاً : " فاذهب يا غث المذهب . وابتغ فى الأرض نفقاً ، أو فى السماء مرتقى ، فهذه ألية ، جلبت عليك بلية ، أوحك من البسيط والمديد ، ما تستجيز به من بطشنا الشديد ، إذ نحن معشر الموالى ، لا نوالى ، إلا من هو لعظيمنا موالى " .

وواضح من رسالة ابن غرسية أنه يردد كثيراً من المثالب التى اتكأ عليها دعاة الشعوبية فى المشرق كوصف العرب بالغلظة والجلافة وامتهان المهن الحقيرة ، والانغماس فى الشهوات ومعاقرة الخمر ، والتعريض بطريقتهم فى المأكل والمشرب والملبس وما إلى ذلك من صور الطعن والزراية غير أن ثمة اختلافا بين مفهوم ابن غرسية لكلمة (عجم) ومفهوم شعوبية المشرق لها . فهم يعنون بهذه الكلمة (الفرس) على حين يتسع مدلول هذه الكلمة عند ابن

غرسية فيعني كل ما هو عجمي ، ومن هنا كان إشادته بالأكاسرة والقياصرة والروم وبني الأصفر ويقارن " جولد تسيهر " بين الشعوبية المشرقية والشعوبية الأندلسية فيرى " أن الميل الحقيقي للشعوبية في الأندلس يمتاز بحرصه على أن ينسجم مع العقيدة الإسلامية ، على حين نجد شعوبية المشرق على النقيض من ذلك ، إذ نرى ممثلي الشعوبية فيه من الملاحدة والزنادقة في أكثر الأمر"[1] كما يرى أن " جدل الشعوبية بالمشرق من جهة الأسلوب كان أبعد عن الصناعة الفنية ، ومن جهة المبدأ أقرب إلى الموضوعية العلمية منه إلى الذاتية الشخصية، على حين نجد كتابة ابن غرسية رسالة شخصية يستعمل فيها كل التعبيرات الفنية من ترادف وطباق ، وتلاعب بالألفاظ ، وتعريض وتضمين ، واقتباس ، ورمز إلى حوادث أدبية وحقائق تاريخية ، مما يطبع الرسالة الفنية بالطابع المطلوب . كما أن نمو وسائل الأسلوب الفني وتنوعها على الصورة التي يستخدمها كتاب القرن الخامس قد أعارت قلمه أحياناً لون التهكم والفكاهة الذي استغنى عنه جدل الشعوبية في المشرق " [2]

ومهما يكن من أمر ، فإن رسالة ابن غرسية كان لها أصداء واسعة المدى في الأندلس ، سواء في عصرها ، أو فيما تلاه من عصور ، ورغم أن ابن غرسية وجه رسالته أصلاً إلى أبي جعفر بن الجزار إلا أن المصادر لم تشر إلى أنه رد على رسالة ابن غرسية ، ومع ذلك فقد انبرى كثير من الكتاب للرد على رسالة ابن غرسية ، وقد وصلت إلينا بعض هذه الردود ، بينما ضاعت ردود أخرى لم يبق منها غير أسمائها وأسماء أصحابها ، نذكر منها : [3]

١- رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسي الذي سمى رسالته : "رسالة الاستدلال بالحق ، في تفضيل العرب على جميع الخلق ،

---

[1] انظر بحث جولد تسيهر عن (الشعوبية عند مسلمي أسبانيا) في نوادر المخطوطات ١ / ٢٤١ .

[2] المرجع السابق ١ / ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

[3] نوادر المخطوطات ١ ٢٣٩ .

والـذب والانتصـار لصـفوة الله المهاجـرين والأنصـار " وقـد أشـار إليها البلوى وصاحب كشف الظنون .

٢- رد الكاتـب ذى الوزارتين أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال الغافقى (ت سـنة ٥٤٠هــ) وسماه : " خطف البارق وقذف المارق ، فى الرد عـلى ابـن غرسـية الفاسـق ، فـى تفضيله العجم على العرب ، وقرعه النبع بالغرب " وقد أشار إليها البلوى فقال : " فأما ابن أبو الخصال، فأخـنى علـيه وصـال ، بحجـاج أمضـى مـن النصـال ، مالـه عـنها انفصال". [1]

٣- رد أبـى محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجى الغرناطى وكان يعرف بابن الفرس .

٤- رد عـبد الحـق بـن خلـف بـن مفرج ، وقد أشار إليه صاحب (تكملة التكملة) . [2]

أما الردود التى وصلت إلينا فهى : [3]

١- رد أبـى جعفر بن الدودين البلنسى ، كان معاصراً لابن بسام الذى قال عـنه[4] : " هـو أحـد مـن لاقيـته وشـافهته ، وأمـلى عـلى نظمه ونثره بأشـبونة سـنة سبع وسبعين وأربعمائة وأخبرنى برسالته التى رد فيها على أبى عامر بن غرسية " .

٢- رد أبـى الطيـب بـن مـن الله القـروى (ت سـنة ٤٩٣ هــ) وقد سـمى رسـالته " حديقـة البلاغة . ودوحة البراعة . المورقة أفنانها . المثمرة

---

(١) ألف باء للبلوى ١ / ٣٥١ نقلاً عن نوادر المخطوطات .
(٢) تكملة التكملة ص ٤٢٢ .
(٣) نوادر المخطوطات ١ / ٢٣٦ وما بعدها .
(٤) الذخيرة . القسم الثالث . المجلد الثانى ص ٧٠٣ - ٧٠٤ (تحقيق د. احسان عباس) .

أغصانها ، بذر المآثر العربية ، ونشر المفاخر الإسلامية ، والرد على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم العجمية "

٣- رد أبى يحيى بن مسعدة الذى عاش فى عصر الموحدين .

٤- رد لمجهول وعنوانه " رسالة ثانية فى الرد على ابن غرسية " ويرجح الأستاذ عبد السلام عارون أن تكون هذه الرسالة أيضاً ليحيى بن مسعدة ، وذلك للتشابه الواضح بين أسلوبى الرسالتين ، ولتقارب بعض العبارات فيهما [1] .

رد ابن الدودين البلنسى على ابن غرسية :

استهل ابن الدودين رسالته بذم ابن غرسية فرماه بالخسة والنفاق ووصمه بالنذالة وخطل الرأى ، : فقال : [2] " اخسأ أيها الجهول المارق ، والمرذول المنافق ، أين أمك ، ثكلتك أمك ، أو ما علمت أنك سحبت من عقالك لعقالك، وقدمت أول قدمك ، لسفك دمك ، وبسطت مكفوف كفك ، لسلطان حتفك ، وقلمت شبا أقلامك ، لاصطلامك ، وحبرت بحبرك ، لذهاب خبرك ، مشقت فى قرطاسك ، لشق راسك ، فما حقيقة جوابك على خطك خطابك ، إلا سلبك عن إهابك ، وصلبك على بابك " .

ويمضى ابن الدودين فى تهديد ابن غرسية ، ويشرع بعد ذلك فى تعداد الصفات التى أسبغها ابن غرسية على قومه ، فينقلها من معنى المدح الذى وضعت له إلى معنى الثلب والهجاء كقوله " الصهب السبال ، من ولغ الدم وشرب الأبوال . أكلة الجيف ، وحللة الكنف " ، " والوضوح ، الرجح " رجح الأكفال ، وضح كذوات الأحجال ، " علم ، حلم " علم بالتداوى من القرم ، ومنافع القلم ، حلم عن كل مجاوز الحلم ، " جمح طمح " الآن

---

[1] نوادر المخطوطات ١ / ٢٣٧ .

[2] المرجع السابق ١ / ٣٠٢ وما بعدها .

صدقت، وغلطك استدركت ، جمح فى الإحجام : عن الإقدام ، طلب الفرار، يوم الانتصار ، وإدراك الثار ، طمح إلى كل رموح طموح "

وحين وصف ابن غرسية قومه بأنهم " حماة السروح نماة الصروح " رد عليه ابن الدودين بقوله : " هل يصح فى التحصيل ، أو يجوز فى العقول ، أن يحمى قومك سروح شائهم ، وقد أباحوا فروج نسائهم ، أليس هذا عين المحال ومغالطة الجهال ؟ " .

ويكثر ابن الدودين من التعريض بابن غرسية وقومه كقوله : " ملس الأدم ما حاكوا قط بروداً ، ولا لاكوا عرودا " هذا وأبيك من التعريض الرقيق فى مقالك، وآلك ، وذلك أنك وصفتهم بأملاس الجلود ، وقضيت بنفى لوك العرود وإيجاب ذلك ، لا يليق إلا ببالك . فهذا لعمرك من بديع التحقيق ، فافخر ، فهاتان صفتان سلمتالكم . وأما لوك العرود ، فإن ذلك أوضح من السراج الوهاج، فى الليل الداج . قد تحدث أن ولدانكم عطلوا فى وقت سوق نسائكم ، فنمى ذلك إلى مليككم ، فحكم ، أكرم به من حكم ، أن يبيح النسوان ، من أنفسهن ما أباح الولدان ، وامتثلن ذلك فاتسقت الحالات ، ونفقت السوقات ، وما سمع فى الأزمان ، بأغرب من هذا الشأن ، فاشمخ بأنفك . وافخر بنصفك" .

ويقف ابن الدودين عند كل مثلبة ألصقها ابن غرسية بالعرب فيفندها واحدة إثر أخرى كقوله : " وأما ما قعقعت به ووعوعت ، من صواحب الرايات ، فهن وأبيك بعض بنات ربة الإياة . إمائنا المسبيات المتبنات ، لكتناهن ظبا البيض الهندية ، وشبا السمر الردينية ، فما عجنا بهن عما عودتموهن من البغاء ، للاسترضاء ، فيكثر معشر العربان من ولد سارتكم الأموان والعبدان ، وفيك من ذلك أصحُّ دليل وأوضح برهان " .

وحين وصف ابن غرسية العرب بأنهم حاكة برود رد عليه ابن الدودين بأن العجم هم الذين يمتهنون تلك المهنة " وأما حوككم البرود ، فناهيك من الغفارة الإفرنجية ، إلى الديباجة الرومية ، والنستبان بذلك تشهدان " .

ويمضى ابن الدودين فى رسالته فيقرع الحجة بالحجة ، ويرد الطعنة إلى صدر خصمه كقوله : " وقضية أبى عبشان التى عظمت ، ليس الأمر كما توهمت ، لأن الكعبة بيت الله لا شريك له ، وضعه تعالى للعُبَّاد ، وسوى بين العاكف فيه والباد ، وأبو عبشان إنما باع خدمته فى البيت ، وهبها قضية سفيهنا الغوىّ ، أين تقع فى قضية إمامكم يهوذا الحوارى ، إذ باع نبيه روح القدس ، بأعوانه بالأفلس ، فكذب الله ظنه ، وأنجى نبيه ، فدونك ضع قضية سفيهنا فى كفة ، وفى أخرى قضية إمامك ، ورجح بينهم بفض ختامك".

وينفى ابن الدودين ما ادعاه ابن غرسية لقومه من تفوقهم فى علم الشرائع فيقول " وأما فخرك بعلمهم الشرائع ، فمن أبدع البدائع ، " استنت الفصال حتى القرعى " " وجهلهم بذلك أوضح ، من أن يشرح ، وأبين من أن يبين لكن أنكت من ذلك نكتة ، وأنبذ منه نبذة ، تصفعهم صفعاً ، وترد صهب أدمهم سفعاً . وأنى يكون ذلك ، هبلت لآلك ، ولم يأخذه عن نبى ولا نقلوه عن حوارى ، ولم يزالوا يتعاورون أصلهم الإنجيل بالزيادة والنقصان ، إلى أن أصاروه فى خبر الهذيان ، وحسبك بهم جهلا أنهم يعتقدون إلهاً نبيهم ، يسمونه بالرب المعبود ، وصيروه بعد مصلوب اليهود ، فاعجب بجهل يجمع بين هذين ، الطرفين " .

وينفى أيضاً ما ادعاه ابن غرسية لقومه من عراقة الأصل ، ويضيف هذه المكرمة إلى العرب فيقول : " وأما وصفك قومك أنهم " مجد ، نجد ، شمخ ، بذخ ، عرق " ، فهيهات ذلك منهم ، تلك صفات قومنا العرب ذوى الأنساب والأحساب ، والعلوم ، والحلوم ، أولى اللسن ، والبيان واللحن ، والإسهاب

فـى الصـواب والحكمـة وفصـل الخطـاب ، فرسـان الإعراب ، وأرباب القباب ومعمـلى الصـوارم والحـراب ، أنديتهم عراص المنية ، وأرديتهم بيض المشرفية ولبوسهم مضاعفة الماذية .. مجالسهم السروج ، وريحانهم الوشيج ، وموسيقاهم رنات الردينيات . لم تكن قادتهم النساء ، ولا رادتهم فى آجالهم النساء " .

ويخـتم ابـن الدودين رسالته كما بدأها بذم ابن غرسية الذى فضح جهله ما كـان مستوراً مـن عـورات قومـه : " ومـا كـان أغـناك يا كشاجم ، عن كشف عـورات آلـك الأعاجم ، لكن ضعف نظرك ، حداك إلى هذرك ، وسوء أدبك ، وافى بك إلى عطبك " .

رد ابن من الله القروى :

كتـب ابـن مـن الله القروى رسالته " حديقة البلاغة " للرد على رسالة ابن غرسية ، وهى رسالة طويلة قسمها إلى فصول وافتتحها بهذه الأبيات : [1]

وذى خطـل فـى القـول يحسب أنه	مصـيب فمـا يـلمم بـه فهـو قائلـه
نهـــدت له حتى ثنيـــت عنانـــه	عـن الجهـل واستولت عليه معاقلـه
تعـــال فخـــبرنى عـــلام تشـــددت	قـوى العير حتى أحـرزتك مجاهلـه

وذيـل هذه الابيات بذم ابن غرسية فقال " أيها الفاخر بزعمه ، بل الفاجر برغمه ، ما هذه البسالة ، فى الفسالة ، ما هذه الجسارة على الخسارة " .

ويشـير ابـن مـن الله إلى فضـل العـرب على ابن غرسية ، هذا الفضل الذى قابلـه بالجحود والنكران " أما كانت للعرب يد تشكرها ، أو منة تذكرها . أما جـبرت نقيصـتك ، أمـا رفعـت خسيسـتك ، أمـا استنهضتك من وهدتك ، أما أيقظتك من فضلتك وقدرتك ، ألم تربك فيها وليدا ، ألم تتخذك لها تليدا ، ألم تعن بتخريجك وتدريجك ، أما أنطقتك بعد العجمة ، أما أسلقتك بعد اللكنة ، حـتى إذا اشـتد كـاهلك ، وعـلم جـاهلك ، وقـوى ساعدك ، ورقى صاعدك ،

---

[1] نوادر المخطوطات ١ / ٣١٠ وما بعدها .

كفرت نعمتها لديك ، ونثرت عصمتها من يديك ، وأخذت تطاولها بأرسانها ، وتقاولها بلسانها ، وتناضلها بسهامها ، وتهاطلها برهامها " .

وينحو ابن من الله منحى ابن الدودين فى تعداد المآثر التى خلعها ابن غرسية على قومه ، فيصرفها عن مواضعها ، ويحيلها إلى سهام يسددها إلى صدر غريمه ، وينقلها من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، كقوله : " وهات أرنا مفاخرك ، ونرك مساخرك ، أنت صاحب الشهب ، الصهب ، والسنة شهباء، والجهام صهباء ، كذلك أنت لا خير ولا مير ، ولا عمر ولا عمير ، ليس للسخاء بالرومية اسم ، ولا للوفاء فى العجمية رسم ، أين أنت عن السمر القمر ، البيض غرراً وصفاحاً ، السود طرراً وأوضاحا .. سعروا عليكم نار الحرب بتلك الأنيق الجرب ، فكسروا كياسرتكم ، وقصروا قياصرتكم ، وأخمدوا نار صولتكم ، ومحو آثار دولتكم ، وطهروا الأرض المقدسة من أنجاسكم ، والمسجد الأقصى من أرجاسكم .. " .

ويشتد (ابن من الله) فى حملته على قوم ابن غرسية ، ويكثر من إلحاق الصفات الذميمة بهم ، ويصمهم بكل منقصة على نحو يذكرنا بهجاء جرير للأخطل . فهم " الذين ينجون ولا يستنجون ، ويتجنبون ولا يتطيبون " وهم " رعاة الخنازير ، وأكلة السنانير " أما رجالهم " فقلف غلف " وأما نساؤهم " فقذر بظر ، لا يعرفون الخفاض ولا الختان ، ولا يألفون السنان ولا العنان " .

ويمضى (ابن من الله) فى هجائه لابن غرسية وقومه مقتفياً طريقة ابن الدودين فى صرف معانى المدح إلى الهجاء فيقول : (وأنتم كما وصفت ، ملس لس ، لا تغيرون ولا تغارون ، تمنعون ، ولا تمتنعون ، قلوبكم قواء ، وأفئدتكم هواء ، وعقولكم سواء ، قد لانت جلودكم ، ونهدت نهودكم ، واحمرت خدودكم تحلقون اللحى والشوارب ، وتتهادون القبل فى المشارب " .

ويحذو حذو ابن الدودين فى رد المثالب التى ألصقها ابن عرسية بالعرب إلى صدور العجم فيقول : " ومن الآيات ذكر صواحب الرايات ، والمباضعة

عـندكم كالمراضعة . مـا فـى السكر عندكم نكر . تبيحون ولوج العلوج ، على بـدور الخـدور . الـزنا عندكم سنا ، والفجار بينكم فخار بينكم فخار ، فكيف أنكـرت ، مـا ذكـرت ، وأنـت على سنن تلك السنن ، الحال قائمة ، والقصة دائمة " .

ويفخـر (ابـن مـن الله) بأمجـاد العـرب الذيـن فـتحوا بـلاد العجـم ، وأخضـعوهم لحكمهـم فانقـادوا لهـم أذلـة متصـاغرين " فما تعرضك لقوم سلكوا بلادكـم ، واسـتعبدوا أولادكـم ، ثم إنهم حين قدروا ، غفروا ، ووضعوا الإتاوة عـلى جمـاجم ، الأعـاجم ، والمرسـوم فـى بـراجم ، السـلاجم ، فلا يحضرون العشـار . إلا بالعـثار ، ولا يشـهدون الأسواق ، إلا بالأطواق ، فإن دخلتم فى الدين قطعت أستاهكم ، وأن خرجتم منه أخذت التى فيها شفاهكم وكنت أنت مـن رذايـا تلـك السـبايا ، ومـن عـبايا . تلـك الخـبايا ، ومـن خطايـا ، تلك العطايا.. "

وعـلى هذا النحو من الإزراء بالعجم ، والإشادة بالعرب ، يمضى (ابن من الله) فى رسالته ، فيتباهى بما أحرزه العرب من سبق فى شتى المجالات فقد جمعوا الطب فى كلمتين . فقالوا " إن المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء" وإذا تبينت فصول بقراط . أو أصول سقراط ، لن تجد مستزاداً مستجاداً ، كما يفخـر بمـا للعـرب مـن شـعر مـوزون ، ونظـم مكـنون . وكلام منثور ، وسجع مأثور..

رد يحيى بن مسعدة :

ظلـت أصـداء رسـالة ابـن غرسـية تتردد فى الأندلس بصورة قوية فعارضها كـتاب عاشـوا بعـد عصـر ابـن غرسـية عـلى شاكلة يحيى بن مسعدة وهو أحد الأدبـاء الذيـن عاشـوا فـى عصـر الموحديـن ، وقد أكثر فيها من ذم ابن غرسية

وقومه كقوله : [1] " فالتقط يا لقيط غرسية .. " " مثلك يا دمى العجم ، وذمى العجم " .

وعاب عليه كما فعل (ابن من الله) أنه قاول العرب بلسانهم ، وتمثل بأشعارهم وتنكر لأفضالها عليه " مالك يا وقاح ، ولهذا الحى اللقاح ، تفوهت بكلامهم ، وفقهت عن أفهامهم ، وأهلك بشعارهم ، وتمثلت باشعارهم .. هذا جزاؤها فى تدريبك وتعليمك ، وتصريف ألفاتها فى حلقة ميمك ، فلا ماء وجهك أبقيت ، ولا حرج أمك العفلاء أنقيت . وما أنبذك يا نبيذ لذمها وأقل شكرك على كفالتها لك وإلقاء أقلامها " .

ويعيره ابن مسعدة بأنه عبد عبدة الأوثان ، ويركز فى هجائه لقوم ابن غرسية على الجوانب المتصلة بالعقيدة كقوله : " يا تبعة المجوس ، وقرعة القرن والناقوس ، ألسنا بالقوس ، وأنتم بالفرقوس ، عبدة التثليث ، وشروة أجزاء الثالوث ، لقد أبحتم السمرة للعاضد ، وجئتم بما فضحت قومها غامد ".

ويحذو ابن مسعدة حذو سابقيه فى دحضه مزاعم ابن غرسية ، فيردها واحدة بعد واحدة غير أنه يميل إلى التفصيل والإسهاب ، ويكثر من إيراد الشواهد والأمثلة ، حتى لقد غدت رسالته أشبه بمتن من المتون ، فهو بالقياس إلى صاحبيه أمضى سلاحاً ، وأغزر ثقافة ، وأطول نفساً ، وأكثر قدرة على التتبع والاستقصاء .

وثمة ظاهرة تبدو أكثر وضوحاً فى رسالة ابن مسعدة ، وهى الإكثار من تضمين الشعر كقوله فى هجاء ابن غرسية : [2]

أيا عبد عبد ألا تستحى ... ولا لك دون المنهى زاجر
مواليك أخسرت من شأنهم ... ستعلم ويك من الخاسر
فإن تنج منى بنزع الشوى ... كما أبق الضبع الباسر

---

[1] نوادر المخطوطات ١ / ٢٥٦ وما بعدها .
[2] نوادر المخطوطات ١ / ٢٨٩ .

فمـــاء ضـــلوعك مـــن نطفـــة ومـــاء الكـــراض دم مائـــر

ومن خلال هذه الرسائل الأربع التى عرضنا لها يمكن أن نستخلص الحقائق التالية :

أولاً : إنَّ الطريقة التى انتهجها كتاب هذه الرسائل تقترب إلى حد كبير من طريقة شعراء الهجاء ، ولاسيما شعراء النقائض ، إذ نرى فيها كثيراً من صور الهجاء ومعانيه التى نراها فى الشعر ، ففيها السب الصريح ، والميل إلى الفحش والإقذاع ، والإلحاح على النيل من نسب الخصم ، وإلحاق المخازى والمثالب بقومه ،وفيها ألفاظ الشتائم التى تجرى على ألسنة الدهماء ، وفيها الإشارات التاريخية والدينية المتصلة بذكر وقائع وأحداث قديمة ، استغلها كل جانب لترجيح دعاواه ، والزراية بخصمه .

ثانياً : أن هذه الردود الكثيرة التى أثارتها رسالة ابن غرسية تدل على " أن الشعور بالعروبة كان قوياً فى الأندلس على مر الزمن ، وأن السند الشعوبى لم يكن على شىء من القوة الأدبية " [1]

ثالثاً : أن الرسالة النثرية كانت أظهر من الشعر وأوضح فى إبراز النزعة الشعوبية التى احتدمت في الأندلس ؛ إذ أن ما لدينا من شعر يعبر عن هذه النزعة يبدو ضئيلاً متواضعاً بالقياس إلى النثر ، فكان النثر هو القالب الأمثل الذى استغله أدباء الأندلس للتعبير عن هذه النزعة .

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسى – عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٢ .

هجاء الفرنجة :

كان هذا اللون من الهجاء وليد الظروف السياسية التى مرت بها الأندلس كما كان ثمرة من ثمرات الصراع بين المسلمين والنصارى .

وإذا كان شعراء الأندلس قد خلدوا انتصارات المسلمين فى قصائد كثيرة أشادوا فيها ببطولة قوادهم وجيوشهم ، فإنهم من ناحية أخرى سخروا فى شعرهم من هزائم اعدائهم ، واستخفوا بملوكهم وقوادهم ، وعبروا عن كراهيتهم لهم فى صور كثيرة .

وتدور معانى هذا الهجاء حول نعت أعداء المسلمين بصفات الجبن والعار والمهانة ، والتنبؤ باندحارهم فى أى حرب يخوضنها ضد المسلمين ، ويكثر الشعراء من رسم صور ساخرة مزرية لهم كقول ابن بقى [1] :

يا معشر الروم قد شالت نعامتكم	**إما من الحين أو من شدة الفشل**
لم يكسكم من ثياب الخزى أسبغها	**إلا اتقاؤكم للصدر بالكفل**
يا ويلكم معشراً بل ويل أمكم	**فإنها ولدت للثكل والهبل**

ومن هذه الصور التى تصور جبن الأعداء وخورهم أمام بأس المسلمين وشجاعتهم قول ابن حربون : [2]

ألم تر قيصر فى ملكه	**إلى السلم من بأسكم يهرب**
ولما تنله سوى عضة	**لها بين أكتافه مخلب**

وفى كثير من القصائد يختلط مدح المسلمين بهجاء أعدائهم ، وتلك سمة مميزة لهذا اللون من الهجاء ، فمن ذلك هذه القصيدة لابن حزمون التى يمدح فيها المنصور الموحدى عقب انتصاره فى معركة الأرك سنة ٥٩١هـ ، ويهجو فيها أعداء المسلمين ويركز فى هجائه على الجوانب المتصلة بالعقيدة فيرميهم

---

(١) الذخيرة ٢ / ٢ ص ٦٢١ .

(٢) المن بالإمامة ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

بالكفر والإلحاد والضلال ، ويشيد بالمنصور الذى طهر الأرض من دنسهم ورجسهم ، على نحو ما نجد فى قوله : [1]

أإمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سناقبس
لاقيت جموعهمو فغدوا	فرصاً فى قبضة مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم	عدداً لم يحص ولم يقس
فأناخ الموت كلا كله	بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بها مهم	الربض مع الحرب الضرس
فأولئك حزب الكفر ألا	إن الكفار لفى تكس

ويعبر عبادة القزاز عن شماتته لمصرع ابن فرذلند – ولعله يعنى غرسية بن فرذلند الذى أسر سنة ٣٨٥هـ فى خلافة المنصور بن أبى عامر – فيقول [2] :

فرقت بين دماغه وفؤاده	وجمعت بين غرابه والسيد
وكأنما التابوت حنط شلوه	فأتاك فوق الظهر فى ملحود
أكلت وديعته الوغى وكأنما	رفع الذى أبقته فى سفود
رأس أميل عقوبة إذ لم يدن	لله فى أيامه بسدود
طمحت إليه عيوننا فكأنما	رصدت بطلعته هلال العيد

وأدار بعض الشعراء هجاءهم حول تسفيه معتقدات الفرنجة ، فسخروا من شعائرهم وطقوسهم ، وذموا رجال دينهم وأماكن عبادتهم ، كهذه الأبيات لابن شهيد التى يصور فيها ما يدور فى إحدى الكنائس تصويراً لاذعاً واصفاً من يرتادونها بأنهم ضحايا إبليس ، معرضاً بتصرفات بعض القساوسة ، على نحو ما يبدو فى قوله : [3]

وكنيسة أخذ البلى منها كما	أبصرت فيناً فى مغار ينهب
كم صاد إبليس بها من تائب	بحبائل ألقى بهن ترهب
وكم ابتنى القسيس فيها منبراً	من جوذر وبدا عليه يخطب

---

[1] المعجب ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .
[2] التشبيهات لابن الكتانى ص ٢٦٠ .
[3] الذخيرة ٢ / ١ / ص ٦٨٢ .

سقياً لها من دار غيٍّ لم يزل فيها كريم بالملاح معذب
بنس المصلى إن أردت تعبداً فيه ولكن كان نعم المشرب

ويحتفظ ابن سعيد بزجل لأبى على الدباغ – أحد زجالى عصر الموحدين وقد وصفه ابن سعيد بأنه " إمام فى الهجو على طريقة الزجل والقول فى اللياطة " [1] ، وقد نظم هذا الزجل فى هجاء أم شخصى نصرانى يدعى (الجرنيس النيار) حين ماتت ، وقد مال فيه إلى الإقذاع والفحش ، على نحو ما يبدو فى قوله : [2]

عزوا إبليس ونوح يا كفار
ماتت أم الجرنيس النيار

* * *

أى عجوز لقد فجح فيها
كل شاطر إن كان فى ذا الجيها
حلفت الموت ألا يخليها
وأى رزيا جرت على الشطار

بها كان الربض يفوح ....
إن دعيت للفسوق تقول لبيك
وتزين قبح المعاصى إليك
متحل إبليس حتى تقح فالعار

* * *

لم تخلّى لهم فى قاع الدير
غير بطنا وقف مع لفطير
وعرم من خروق لمسح ...
وقدير تهييج الاسحار

* * *

---

[1] المغرب ١ / ٤٣٨ .
[2] المعرب ١ / ٤٤٠ وما بعدها .

خـــرج الــــروح عــــلى ديـــن الــــربى
وأبــــو مــــرا يصــــيح أيـــا حـــزبى
فـــى جهــــنم تركـــب عــــلى ...
مــــع أبــــنة القــــلا وزيــــك العــــيار

وبجانـب مـا فـى هـذا الـزجل من تصوير فاحش وألفاظ بذيئة فإن صاحبه يتكىء على الناحية الدينية ويستغلها فى هجائه استغلالاً كبيراً .

وتشـير بعـض المصادر إلى احتدام بعض معارك الهجاء بين مسلمى الأندلس وبين الفرنجة فمن ذلك ما جاء فى " صلة الصلة " من أن النقفور ملك النصارى بعـث بقصيدة نظمها أديب مرتد إلى المعتد بالله ، وذلك عقب استيلاء النصارى على بعض ثغور الأندلس ، فلما وصلت هذه القصيدة إلى مجلس الخلافة وقرئت بين يدى الخليفة ، اهتز الفقيه ابن حزم عند سماعها ، وأخذته الحمية ، فرد عـلى شـاعر نقفور بقصـيدة طويلـة صيغت فى قالب رسالة ، وجهها ابن حزم لنقفور واستهلها بقوله : [1]

مــن المحـتمى لله رب العــوالم	وديــن رسـول الله مــن آل هاشـم
محمـد الهـادى إلى الـناس بالـتقى	وبالرشـد والإسـلام أفضـل قــادم
علــيه مــن الله الســلام مــردداً	إلى أن يوافـى البعـث كـل العـوالم
إلى قــائل بــالإفك جهــلا وضــلة	عـن الـنقفور المنتزى فـى الأعـاجم

ويشير ابن حزم إلى استيلاء النصارى على بعض الثغور فيقول :

ســلبناكم دهــراً فلــدتم بكــرة	مـن الدهـر أفعـال الضـعاف العـزائم
فطـرتم ســروراً عــند ذاك ونخــوة	كفعـل المهـين الـناقص المـتعاظم
ومــا ذاك إلا فــى تضــاعف غفلــة	عرتـنا وصرف الدهـر جـم الملاحـم

قطعة من شعر ابن حزم ، أوردها الدكتور إحسان عباس فى كتابه تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة ص ٣٧٤ وما بعدها .

ويذكر ابن حزم النصارى بأمجاد المسلمين وما أحرزوه من انتصارات على الروم فى السياسة والحرب ، وهو لا يصدر فى ذلك عن نزعة إقليمية ، ولكنه يصدر عن عاطفة دينية عامة ، فيذكر بفتوحات المسلمين فى الشام والأندلس ومصر وصقلية وغيرها من الأقطار :

ألم ننتزع منكم بأيد وقوة ... جميع بلاد الشام ضربة لازم
ومصر وأرض القيروان بأسرها ... وأندلساً قسراً بضرب الجماجم
ألم تنتصف منكم على ضعف حالها ... صقلية فى بحرها المتلاطم
أليس يزيد حل وسط دياركم ... على باب قسطنطينة بالصوارم
ومسلمة قددا سها بعد ذاكم ... بجيش لهام كالليوث الضراغم
وأدى لهارون الرشيد مليككم ... إتاوة مغلوب وجزية غارم

ويشير ابن حزم إلى سبايا الروم فيقول

ليالى قدناكم كما اقتاد جازر ... جماعة أتياس لحز الحلاقم
وسقنا على رسل بنات ملوككم ... سبايا كما سيقت ظباء الصرائم

ويتكىء ابن حزم فى هجائه للنصارى على الجوانب المتصلة بالعقيدة ، على نحو ما يبدو فى قوله :

أيقرن يا مخذول دين مثلث ... بعيد عن المعقول بادى المآثم
يدين لمخلوق بدين عبادة ... فيالك سخفاً ليس يخفى لكاتم
أنا جيلكم مصنوعة متكاذب ... كلام الألى فيما أتوا بالعظائم
وعود صليب لا تزالون سجداً ... له يا عقول الهاملات السوائم
إلى ملة الإسلام توحيد ربنا ... فما دين ذى دين لنا بمقاوم
وصدق رسالات الذى جاء بالهدى ... محمد الآتى بدفع المظالم
فلم تمتهنه قط قوة آسر ... ولا مكنت من جسمه يد لاطم
كما يفترى زوراً وإفكاً وضلة ... على وجه عيسى منكم كل آثم
على أنكم قد قلتم هو ربكم ... فيا لضلال فى الحماقة جاثم
أيلطم وجه الرب تباً لجهلكم ... لقد فتم فى ظلمكم كل ظالم
أبى الله أن يدعى له ابن وصاحب ... سيلقى دعاة الكفر حالة نادم

والقصـيدة تسـيطر علـيها عاطفـة دينية قوية ، وترتفع فيها نغمة الحماسة والحـدة ، غـير أن صـدورها عـن الـبديهة والارتجال أفقدها كثيرا من المقومات الفنية .

وعلى أية حال ، فقد أثارت قصيدة شاعر نقفور ما أثارته رسالة ابن غرسية من قبل ، فلم يكن ابن حزم وحده هو الذى تصدى للرد عليها وإنما شاركه فى ذلـك شعراء آخرون على شاكلة أبى بكر القفال الشاشى ، وأبى الإصبغ عيسى ابن زورال الغرناطى .[1]

[1] فهرسة ابن خير الاشبيلى ص ٤٠٩.

الفصل الثانى

هجاء أصحاب المناصب الرسمية

- هجاء الوزراء
- هجاء الولاة والعمال
- هجاء القضاة
- هجاء الفقهاء

لم يكتف الشعراء بهجاء الحكام وانتقاد تصرفاتهم وفضح أساليبهم ، بل وجهوا سهامهم أيضاً إلى كل من يعمل فى خدمتهم ، ولم يسلم أحد ممن شغل مناصب رسمية من ألسنتهم كالوزراء والولاة والعمال والقواد لأنهم يمثلون السلطة بشكل أو بآخر ، ولأنهم ينفذون سياسة الحاكم أيا كان لون هذه السياسة ، ولم يقف الشعراء بهجائهم عند طبقة الوزراء والقواد وحدهم ، بل اتجهوا بهجائهم إلى القضاة والفقهاء الذين مالئوا السلطة وتخلوا عن رسالتهم تحقيقاً لمصالح شخصية أو مطامع رخيصة .

هجاء الوزراء :

يمكن أن نميز اتجاهين واضحين فى هجاء الوزراء . أحدهما ، صدر فيه أصحابه عن دوافع سياسية ، والآخر صدر فيه أصحابه عن دوافع ذاتية ويمكن أن نمثل للاتجاه الأول بقول من يسمى ابن الربيع فى هجاء حكم بن سعيد الحائك وزير المعتد بالله : [1]

هبك كما تدعى وزيراً ... وزير من أنت يا وزير
والله ما للأمير معنى ... فكيف من وزر الأمير

غير أن أغلب هجاء الشعراء للوزراء كان يختفى وراءه بواعث ذاتية ، إذ كان منصب الوزراء مطمحاً للكثيرين ، فكان هجاء الوزراء فى معظمه ناجماً عن حقد وضغينةللمكانة التى يتبؤها هذا الوزير أو ذاك ، وقد يصب الشاعر هجائه على أحد الوزراء لأنه امتنع عن لقائه ، أو حجبه عنه لأنه لم يقيد اسمه فيمن يأخذون الهبات والعطايا ، ولابن شهيد بعض قصائد فى هجاء الوزراء ، صدر فيها عن دوافع ذاتية . فمن ذلك ما يذكره الحميدى من أن ابن شهيد ذهب ذات مرة للقاء أحد الوزراء ولكنه امتنع عنه ، فهجاه بقوله : [2]

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا ... إليك ولا قلب إليك مشوق

---

[1] البيان المغرب ص ١٤٧ (طبعة ليفى بروفنسال) .
[2] جذوة المقتبس ص ١٢٣ ، ديوان ابن شهيد ص ٨ .

ولكنـــنا زرنـــا بفضـــل حلومـــنا حمـــاراً تلقـــى بـــرنا بعقـــوق

وتذكـر الروايات أن العداء تفاقم بين ابن شهيد وبين وزيرين أحدهما يدعى أبـا الحسـن بـن عـلى والآخـر هو ابن فتح ، وقد هجاهما ابن شهيد هجاءً مراً واصماً إياهما بالوقوع فى خلة اللواط ، ملوحاً إلى ذلك بكلمة القرد ، وفى ذلك يقول : [1]

هـــلا ســـترت الشـــين بالـــزين مـــن قـــبل إحضـــار الوزيـــرين ؟
قـــد عـــلما أنهمـــا أحضـــرا لخلـــوة أثقـــل مـــن ديـــن
لمـــا تدانـــت قـــاب قوســـين أصـــابهما الحاســـد بـــالعين
فانصـــرفا مـــثل انصـــراف الفـــتى أســـلم إلفـــاً لـــيد الـــبين
صـــدهما عـــن قـــردك المصـــطفى نطحـــة نطـــاح بـــروقين
ومـــا أرى النـــاس عـــلى مـــا مضـــى مـــن قـــبله قـــرداً بقـــرنين
أربعـــة فـــى مجلـــس جمعـــوا فطـــار هـــذان بهديـــن
قـــد لـــزما جنبـــيك لم يـــبرحا لهفـــى عـــلى ضـــيعة جنـــبين
فأنـــت مـــا بيـــنهما جـــالس جلـــوس أيـــر بـــين خصـــيين

ويهجـو ابـن شـهيد الوزيـر ابن فتح فى قطعة نثرية ملوحاً بكلمة القرد مرة أخـرى إلى تلـك العـادة الذمـيمة الـتى رماه بها فيقول : [2] " ما كان هذا القرد أهـلا لأن يحمـل عليه حر كلام ، ولا ليرمى بفضل بيان ، ، وبالحرا أن يرقم عـلى عتـبة دكـان ، أو يصور عـلى بـاب حمام ، وقد غرس فى وجعائه رأس نخلة ، وحيى فى سعفها عش نحلة "

ويعـد ابـن سـهل اليكى أحد الشعراء الذين أكثروا من هجاء الوزراء . كقوله فى ابن خيار الوزير : [3]

---

[1] الذخيرة ١ / ١ / ص ٢١٤ ، ديوان ابن شهيد ص ١٦٤ .
[2] ديوان ابن شهيد ص ٣٤ .
[3] زاد المسافر ص ١٢٢ .

أيا ابن خيار بلغت المدى   وقد يكسف البدر عند التمام
فأين الوزير أبو جعفر[1]   وأين (المقرب) عبد السلام[2]

وقد أولع إليكي بهجاء وزير يدعى أبا الحسن وأفحش كثيراً في هجائه كقوله : [3]

ثمان خصال في الوزير وعرسه   وثنتان والتحقيق بالمرء أليق
(......)[4] وتزني فعلها مثل فعله   فإن لاط يوماً فهي لاشك تسحق
ويكذب أحياناً ويحلف حانثاً   ويكفر تقليداً ويزني ويسرق
وعاشرة والذنب فيها لأمه   إذا ذكرت لم يبق للشتم منطق

وأفحش في هجائه مرة أخرى فقال . [5]

أخاف من الجوارح أن يلموا   ومالي بالجوارح من يدين
فإما تدخلوني حرح أسما[6]   فأقلب كل ذى نظر وعين
وإلا فارفعوني إن قدرتم   على قرن الوزير أبي الحسين

وكان الفحش والإقذاع والتشهير هي الصفات الغالبة على هجاء الوزراء فأكثر الشعراء من رميهم بالفسوق ، واتهامهم وأهلهم بارتكاب الأفعال القبيحة ، على نحو ما رأينا في هجاء ابن شهيد واليكي ، وقد شارك الأعمى المخزومي في هذا الاتجاه ، فقال يعرض بأبناء أحد الوزراء : [7]

زنجيكم بالفسوق داري   يدلي من الحرص كالحمار
يخلو بنجل الوزير سراً   فيولج الليل في النهار

---

[1] هو أبو جعفر بن عطية الذى أمر عبد المؤمن بن على بصلبه .
[2] هو عبد السلام الكومي الملقب بالمقرب ، أحد وزراء الموحدين ، وقد مات مسموماً .
[3] زاد المسافر ص ١٢٢ .
[4] حذفنا الكلمة الصريحة لقبحها ، وهي بصيغة المضارع المبني للمجهول ويمكن فهمها من السياق .
[5] خريدة القصر ٣ / ٥٨٠ .
[6] أسماء هي زوجة الوزير .
[7] المغرب ١ / ٢٣١ .

ولابن الخطيب قصيدة طويلة فى هجاء الوزير ابن أبى الفتح ، نظمها بعد جلاء هذا الوزير فى الجفن إلى الإسكندرية ، وبعد أن تحقق من هلاكه هو ومن معه ، وقد بدأها ابن الخطيب بقوله [1]

كن من صروف الردى على حذر	لا يقبل الدهر عذر معتذر
ولا تعول فيه على دعة	فأنت فى قلعة وفى سفر
فكل رى يفضى إلى ظمأ	وكل أمن يدعو إلى غرر
كم شامخ الأنف يثنى فرحاً	بال عليه زمانه وخرى

وبعد هذا التمهيد يخلص ابن الخطيب إلى هجاء ابن أبى الفتح ، فينسب إليه كل منقصة ، ويرميه بالبلادة والشؤم كقوله : [2]

قل للوزير البليد قد ركضت	فى ربعك اليوم غارة الغير
يا ابن أبى الفتح نسبة عكست	فلا بفتح أنت ولا ظفر
وزارة لم يجد مقلدها	عن شئمها فى الوجود من وزر
فى طالع النحس حزت رتبتها	وكل شىء فى قبضة القدر

وتقترب طريقة ابن الخطيب فى هذه القصيدة من النزعة الشعبية سواء فى أسلوبه أو فى ألفاظه وصوره ، فهو يكثر من ألفاظ الشتم والسباب مستخدماً حرف النداء (يا) بكثرة كقوله : [3]

يا طللا ما عليه من عمل	يا شجراً ما لديه من ثمر
يا مفرط الجهل والغباوة لا	يحسب إلا من جملة البقر
يا دائم الحقد والفظاظة لا	يفرق ما بين ظالم وبرى
يا كمد اللون ينطفى كمداً	من حسد يستطير بالشرر

ويتأنق ابن الخطيب فى هجائه للوزير ابن أبى الفتح ، ويعمد إلى (التصوير الهزلى) فيصوره فى صورة هزيلة ساخرة تستدعى الضحك ، كقوله : [4]

---

[1] نفح الطيب ٥ / ١٤٠ .

[2] نفسه ٥ / ١٤٠ .

[3] نفح الطيب ٥ / ١٤١ .

[4] نفسه ٥ / ١٤١ .

يا عدل سرج يا دن مقتعد … ملآن من ريبة ومن قذر
يا واصلا للجشاء ناشئة الليـ … ـل ورب الضراط فى السحر
يا ناقص الدين والمروءة والعقـ … ـل ومجرى اللسان بالهذر
يا ولد السحق غير مكتتم … حديثه ، يا ابن فاسد الدبر
يا بغل طاحونة يدور بها … مجتهد السير مغمض البصر
فى اشهر عشرة طحنتهم … فيارحى الشؤم والبوار در
عهدى بذاك القفا الغليظ وقد … مد لوقع المهند الذكر

وعلى هذا النحو يمضى ابن الخطيب فى هجائه ، رامياً المهجو بأقذع الصفات ، مظهراً الشماتة لهذا المصير المؤلم الذى لقيه ابن أبى الفتح حين مات غرقاً .

هجاء الولاة والعمال :

كان الولاة والعمال من أهم الركائز التى يعتمد عليها الحكام فى تسيير دفة الحكم ، وكان على هؤلاء العمال أن يديروا أعمالهم على أسس من العدالة والنزاهة وطهارة اليد ، ولكن كثيراً منهم انحرف عن مهمته المنوط بها ، فاستخدموا أساليب القسوة والغلظة فى معاملة الناس ، ولم يتورعوا عن ارتكاب الموبقات ، واتجهوا إلى تكديس الأموال بالطرق غير المشروعة ، وتصدى الشعر لهؤلاء المنحرفين ، فكشف عن فسادهم ، وفضح أساليبهم الملتوية ، فمن ذلك قول ابن حزمون فى هجاء المجريطى أحد عمال مرسية يتهمه بالنهب وسرقة أموال الدولة : [1]

إلى الله أشكو مشرئباً إلى الغنى … حريصاً على كسر المخازن حافزا
ألا إن قارون استعز بكنزه … فواها لمن أضحى كقارون كانزا
فما باله استغنى فنهنه واجباً … وجوز ما لم يجعل الله جائزا

---

[1] الذيل والتكملة ٥ / ١ / ١٤٤ .

ويعبر يحيى بن الحكم الغزال عن نظرة الناس عامة لأولئك العمال ، فهم يأكلون أموال الناس ، ويستأثرون بالخيرات لأنفسهم ، ولا يتركون للرعية إلا الفتات ، يقول : [1]

يقول لنا القاضي (معاذ) مشاوراً ... وولى أمرأ فيما يرى من ذوى الفضل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعاً ... فقلت وماذا يصنع الدب بالنحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها ... ويترك للذبان ما كان من فضل

ويصوب أبو محمد بن عبد الله سهامه إلى صاحب إشبيلية ، فيقول : [2]

لا تيأسن من الخلافة بعدما ... ولى ابن عمرو خطة الأشراف
تبا لدهر هذه أفعاله ... يضع النوافج فى يدى كناف

ويتجه ابن القزاز بهجائه إلى صاحب الشرطة ويتندر عليه فيقول : [3]

أبا عامر ماذا أتيت من العار ... فها أنت من ثوب العلا فى الورى عارى
تبدلت شرطياً بصاحب شرطة ... كريم نجار النفس ممتنح الجار
فأصبحت كالطرطور كان لسيد ... فأخلق حتى صار فى رأس عيار

ويقول حبلاص الرندى فى هجاء أحد الولاة : [4]

لا تفرحن بولاية سوغتها ... فالثور يعلف أشهراً كى يذبحا

ويحتفظ صاحب خريدة القصر بغير قصيدة لأبى عامر بن الأصيلى فى هجاء عمال ابن ذى النون ورؤساء حصونه ، فمن ذلك قوله : [5]

قل لابن ذى النون الرئيس الذى ... ليس له شىء من البخت
يا مالكاً يجعل قواده ... قوماً غدوا عليه باللفت
جاءوا على الشرق جياعاً فما ... يشبعهم شىء من السحت

---

(1) قضاة قرطبة ص ٨٦ .
(2) نفح الطيب ٤ / ٤٦٥ .
(3) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٠٤ .
(4) نفح الطيب ٤ / ١٣٣ .
(5) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

من كل حنراث له لحية ... تدهن بالشحم وبالزيت
إن صار فى حصن رأى أنه ... قد أدخل العالم فى تخت
يحسد فرعون على قوله ... " وهذه الأنهار من تحتى "
ما هذه الأشباح تبا لها ... قد ملئت بالسفه البحت
هيهات لا حر ولا حرة ... فى باب إقليش إلى البونت

ويبدو أن ابن الأصيلى قد مر بتجربة مريرة مع رؤساء الحصون ؛ ففى قصيدة أخرى يذم رؤساء جزيرة شقر لأنهم منعوه من دخول المدينة :[1]

حللت الجزيرة سحقاً لها ... كأنى حللت بسردانيه
منعت الدخول إلى أهلها ... فدرت كما دارت الساقيه
وبت ثلاثاً بها طاوياً ... فراى همومى وأحزانيه
فقل لابن ذى النون ما باله ... يولى الحصون بنى الزانيه
وإن فعال بنى آدم ... لتبقى وأشخاصهم فانيه

وفى قصيدة ثالثة يذم ابن الأصيلى رئيس حصن بلنسية للسبب نفسه ويتصف هجاؤه بالدعابة والسخرية كقوله :[2]

حتى إذا رمت دخولا أبت ... نفس أبى الحجاج لى بالدخول
راسلته مستنزلا راغباً ... فكاد أن يقطع رأس الرسول
أكرم به من قائد ماجد ... يصلح للحرث ورعى العجول
لابد لى إن عشت والله أن ... أخرى على لحيته أو أبول

وهذه الأمثلة التى أوردناها لابن الأصيلى تكشف عن روح مرحة ، ونفس طبعت على الخفة والدعابة .

---

(1) خريدة القصر ٢ / ٢٠٩ .

(2) نفسه ٢ / ٢٠٩ ، ٢١٠ .

هجاء القضاة :

يحتفظ (الخشني) بصورة مشرقة لكثير من قضاة الأندلس الذين عرفوا بالنزاهة ، وشهروا بالتقوى والورع ، غير أن بعض القضاة حادوا عن الجادة فلم يتحرجوا من قبول الرشوة سعياً لتحقيق كسب رخيص ، وتهاون بعضهم في إقامة الحدود . ومال آخرون إلى القسوة والغلظة في معاملة الناس ، وقد تصدى الشعراء لأمثال هؤلاء القضاة ، فأكثروا من هجائهم وتتبع زلاتهم وانتقاد تصرفاتهم المخزية ، فمن ذلك قول اليكي في أحد قضاة مرسية : [1]

تسمع أمير المسلمين لنبأة ... تصم لها الآذان في كل مشهد
بمرسية قاض تجاوز حده ... وأخطأ وجه الرشد في كل مقصد
يطالبه الأيتام في جل مالهم ... ويطلبه في حقه كل مسجد
فما بيضت كفاك بالعدل لم تزل ... تسوده بالجور كف ابن أسود

ويتهم ابن القطان (ت ٥٥٨هـ) القاضي ابن المرخم بالجهل في تطبيق الأحكام فيقول : [2]

يا ابن المرخم صرت فينا قاضياً ... خرف الزمان تراه أم جن الفلك
إن كنت تحكم بالنجوم فربما ... أما بشرع محمد من أين لك ؟

ويتهم يحيى بن الحكم الغزال القاضي يخامر بن عثمان الشعباني بالتخبط في تطبيق الأحكام فيقول : [3]

فقلت له كلفتني غير صنعتي ... كما قلدوا فضل القضاء يخامرا
فأصبح قد حارت به طرق الهوى ... يكابد لجيا من البحر زاخرا
فقلت له استعفيت منها ، فقال لي ... سأفصح ما قد كان ذاك مغايرا
فقلت له رأس الفقوح إقامة ... علينا كذا من غير علم مكابرا
وخبطك في دين الإله على عمى ... خباطة سكران تكلم سادرا

---

(1) المغرب ٢ / ٢٧٠ .
(2) نفح الطيب ٢ / ١٣٥ .
(3) المقتبس (تحقيق د. مكي) ص ٢٠٠ .

فلن تحمل الصخر الذباب ولن ترى الـ ... ـسلاحف يزجين السفين المواخرا

وكلف عبد الرحمن بن مغاور الشاطبى (ت ٥٨٧هـ) بهجاء قاض يدعى (ابن بيش) ، فتحول عنده إلى أمثولة ، وأسرف فى التشهير به ، والتهكم عليه، واتهمه بتعطيل الحدود وتزييف الأحكام ، وتحليل ما حرم الله ، والعكوف على الخمر ، والجرى وراء مصالحه الخاصة ، فمن ذلك قوله : [١]

لا تظنوا ابن بيش ... فى قضاياه يرتشى
إنما الشيخ هلهل ... فهو يصحو وينتشى
فترى الحكم غدوة ... وترى النقض بالعشى

ويتندر عليه مرة أخرى فيقول : [٢]

الحمد لله بلغنا المنى ... لا حد فى الخمر ولا فى الغنا
قد حلل القاضى لنا ذا وذا ... وإن شكرناه أحل الزنا

ويبالغ فى التشهير به فيقول : [٣]

قال ابن بيش المشهور موضعه ... قولا يعاب عليه آخر الأبد
الخمر والزمر والفحشاء أجمعها ... حل وبل وتبقى خطتى بيدى

ومال بعض الشعراء فى هجائهم للقضاة إلى الإقذاع كما نجد فى هجاء المخزومى الأعمى لقاضى بياسة ، فهو يستغل أحد عيوبه الخلقية استغلالاً سيئاً ، فيقول : [٤]

أصخ للذى لم يأت دهر بمثله ... لعمرى ولم يسمع به قط سامع
لبياسة قاض قطيم مثولل ... ثواليله من أن (...) موانع
فراحته فى أن يرى (...) عرسه ... كذى العر يكوى غيره وهو راتع [٥]

---

[١] زاد المسافر ص ٨١ .
[٢] نفسه ص ٨١ .
[٣] نفسه ص ٨١ .
[٤] نفسه ص ١١٧ .
[٥] الشطر الثانى من هذا البيت للنابغة الذبيانى .

وقد وقف بعض القضاة من شعراء الهجاء موقفا حازما . فعندما هجا أبو بكر ابن الحاج القاضي ابن توبة ، أتي به القاضي ، وضربه ضربا موجعاً وأمر فطيف به على الأسواق ، والناس يصيحون به من أمام . ويضربونه من خلف، وأشار أبو إسحاق الإلبيرى إلى هذه الحادثة معبراً عن تشفيه وغبطته للعقاب الذى ناله ابن الحاج ، فقال : [1]

السوط أبلغ من قال ومن قيل ... ومن نباح سفيه بالأباطيل
مر المذاق كحر النار أبرده ... يعقل المتعاطى أى تعقيل
رأى من الطب ما بقراط لم يره ... فى برء كل سخيف العقل مخذول
ضئيل جسم تهاب الخيل سطوته ... أعدى وأطغى من التمساح فى النيل
يرقص المرء ترقيصاً بلا طرب ... لو كان أثقل أو أجسا من الفيل
عند السخيف به خبر وتجربة ... فقد رمى تحته ما عد بالفول
وقد حسا منه أمراقاً مغلغلة ... جشته شر الجشا من شر مأكول
وقد هجاه بهجو مؤلم وجع ... لا يشبه الشعر فى نظم وتفصيل
فقل له إن جرى هجو بخاطره ... أذكر قيامك محلول السراويل
واذكر عقوبة ما زورته سفهاً ... فى السادة القادة الشم البهاليل

وقد شارك النثر أيضاً فى هجاء القضاة ، فهناك رسالة لأحد الكتاب كتبها على لسان على بن يوسف بن تاشفين ساخراً فيها من القاضي ابن أضحى الغرناطى بعد أن عزله عن قضاء المرية ، متهماً إياه بالجهل بأحكام القضاء وفيها يقول : [2] " ... وتقرر لدينا أن الجهول بن أضحى أجهل بأحكام القضاء من الهلجوم ، إذ قد أظهر فيكم أحكاماً يترحم فيها على سدوم ، وقد جعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم ، وقلدناه خطة الشوم ، ونبذناه دون أن تداركه نقمة من ربه بالعراء وهو مذموم ، ولعل متعسفاً يتعسف ، وجائراً لا ينصف ، يلومنا فى تقديمه . وينالنا من العتب بأليمه . ولا قدح فقد اختار رسول الله صلعم لوحى الله لعين بنى سرح ، وقد اغتر عثمان بحمران . ولسنا أول من خانه القياس ، ومن لم يأته من الغوير باس " .

---

[1] ديوان الإلبيرى ص ١٠٩ - ١١٠ .
[2] معجم السلفى ورقة ١٢١ - ١٢٢ .

هجاء الفقهاء :

بلغ الفقهاء منزلة عظيمة في الأندلس ، وقوى نفوذهم في فترات كثيرة حدث ذلك في قرطبة أثناء حكم هشام ، فكانوا يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة ، وحين حاول عبد الرحمن الثاني أن يحد من سيطرتهم ، هاجموه من على المنابر ، وألّبوا الناس عليه ، واتهموه بالإسراف والبذخ ، فحرض الحكم الشعراء على هجائهم ، فكان ممن هجاهم عباس بن فرناس ، والحكم بن يحيى الغزال الذى اتهمهم باستغلال نفوذهم ، وجمع المال بطرق غير مشروعة فقال : [1]

لست تلقى الفقيه إلا غنياً ... ليت شعرى من أين يستغنونا
تقطع البر والبحر طلاب الرزق ... والقوم هاهنا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنا ... لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وأشار الأمير عبد الله بن بلقين في مذكراته إلى احتفاء الأندلس بالفقهاء فقال : [2] " ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً عامرة بالعلماء والفقهاء وأهل الدين، وإليهم كانت الأمور معروفة ، إلا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده .. وكان منهم أصحاب الأمر والنهى إلى جانب الحكام أنفسهم ، كما كانت الحال في قرطبة أيام بنى جهور ، وكذلك كانت شئون دولة بنى ذى النون بطليطلة موكولة إلى الفقيه أبي بكر الحديدى ، كما ان بلنسية أسلمت أمرها في إحدى مراحل تاريخها إلى القاضي ابن حجاف " ، وأشار ابن الخطيب إلى إيثار بنى عامر للفقهاء فقال عن زهير العامرى : " إنه كان يشاور الفقهاء ويعمل بقولهم " [3] كما ذكر أن مجاهداً العامرى نصب بمحل ملكه خليفة دعا الناس إليه وهو الفقيه المعيطى ، ... ، وكان في عداد الفقهاء

---

[1] شعر يحيى بن الحكم الغزال ، جمع صالح البداق ، ص ٣٦ .
[2] مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧ - ١٨
[3] أعمال الاعلام ص ٢٠٦ .

المشاورين بقرطبة ، فنصبه خليفة وأخذ له على الناس البيعة ، فاستبد المعيطى بالناس ، واستأثر بالفيء ، وجاهر بالمعاصى " .

وارتفع شأن الفقهاء أيضاً فى عصر المرابطين ، وكثرت أموالهم ، وأشار إلى ذلك المراكشى فقال – وهو يتحدث عن ولاية على بن يوسف بن تاشفين :

" واشتد إيثاره لاهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم – صغيرها وكبيرها – موقوفة عليهم ، طوال مدته ، فعظم أمر الفقهاء ، وانصرف وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك ، واتسعت مكاسبهم "[1].

وقد أثار وضع طبقة الفقهاء انتقادات عنيفة ، سواء من المؤرخين أو الأدباء، وإذا كان المراكشى قد ألمح إلى ما غنموه من مكاسب ، وما شغلوا به أنفسهم من جمع للأموال على حساب ضمائرهم . فإن مؤرخاً سابقاً عليه – هو ابن حيان – قد أعلن رأيه صراحة فيهم ، فألقى بالتبعة عليهم ، واتهمهم بالرياء ومصانعة الأمراء ، ورماهم بالقعود عن الحق ، والتخبط فى الأهواء فقال: " ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين ، هم كالملح فيهم : الأمراء والفقهاء ، قلما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ؛ فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا ، بما لا كفاية له ، ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكده الله تعالى عليهم ، من التبين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من

---

(1) المعجب ص ٢٣٥ .

حلوائهـم ، وخابط فى أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ فى التقية فى صدقهم " [1] .

وقـد اشـتد هجـاء الفقهـاء فى عصر المرابطين بعد أن أحس الشعراء بارتفاع شـأنهم أكثر من أى وقت مضى ، وبعد ما رأوه من تكالبهم على جمع الثروات ومصـانعتهم لـلحكام ، وانصـرافهم عـن مصـالح الناس ، واستغلال نفوذهم فى تحقـيق مـآربهم الخاصـة ، فقـال فـيهم أبـو بكـر محمـد بـن أحمـد المعـروف بالابيض : [2]

أهـل الـرياء لبسـتم ناموسـكم ... كالذئـب يـدلج فـى الظـلام العـاتم
فملكـتم الدنـيا بمذهـب مـالك ... وقسـمتم الأمـوال بـابن القاسـم [3]
وركبـتم شـهب الـبغال بأشـهب [5] ... وبأصـبغ [4] صـبغت لكـم فـى العـالم

وقال فيهم ابن خفاجة : [6]

درسـوا العلـوم لـيملكوا بجدالهـم ... فـيها صـدور مراتـب ومجـالس
وتـزهدوا حـتى أصـابوا فـرية ... فـى أخـذ مـال مسـاجد وكـنائس

ومن الطريف أن نجد بعض الفقهاء يقحمون أنفسهم فى معارك هجائية مع بعض الشـعراء ، فقـد ذكـر أن الفقيه ابن ميمون القرطبى كان يتهاجى مع ابن سهل اليكى ، ومما قال له فيه اليكى : [7]

قالوا : هجـاك ابن ميمون فقلت لهم ... يا ليت شعرى من الهاجى فأدريه
قالوا الفقيه الذى من أرض قرطبة ... قلت : الفطيم ؟ فقالوا كلهم : إيه

---

(1) نفح الطيب ٦ / ١٩٦ .

(2) نفح الطيب ٣ / ٤٤٨ .

(3) هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم تلميذ الإمام مالك توفى ١٩١ هـ .

(4) هو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيس الفقيه كان صاحب الإمام مالك وتوفى ٢٠٤ هـ .

(5) هو أصبغ بن الفرج . فقيه من كبار المالكية بمصر توفى ٢٢٥ هـ .

(6) نفح الطيب ٤ / ٢١٨ .

(7) المن بالإمامة ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

ويقذع المخزومى الأعمى فى هجائه لأحد الفقهاء فيقول : [1]

طبنـــيكم هـــذا الفقـــيه محقـــق ... بـــاق عـــلى عهـــد الصـــديق مقـــيم
شـــهدت علـــيه بـــاللواط جماعـــة ... والله يعـــــلم أنـــــه مظلـــــوم
ســـاء الفقـــيه بأنـــنى مـــتخلع ... ويســـــرنى أن الفقـــيه قطـــيم

---

(١) زاد المسافر ص ١١٨ .

الفصل الثالث

هجــاء العلمــاء
وأصحــــاب المهــــن

- هجاء المعلمين والمؤدبين
- هجاء النحاة
- هجاء الفلاسفة
- هجاء أصحاب العلوم الطبيعية
- هجاء الكتاب

حمل الشعراء على طائفة من العلماء عرفوا بالتعصب المقيت ، والتزمت البغيض، ومالوا إلى الجدل العقيم الذى لا فائدة منه ، ولا طائل من وراءه فلا تجرى على ألسنتهم غير كلمات عفنة تنبيء عن جمود وقصور ، وقد أشار منذر ابن سعيد إلى هذا الصنف من العلماء فقال : (١)

عذيرى من قوم يقولون كلما ... طلبت دليلاً هكذا قال مالكُ
فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب ... وقد كان لا تخفى عليه المدارك
فإن زدت قالوا قال سحنون مثله ... ومن لم يقل ما قاله فهو آفك
إن قلت قال الله ضجوا وأكثروا ... وقالوا جميعاً أنت قرن مماحك
وإن قلت قد قال الرسول فقولهم ... أتت مالكاً فى ترك ذاك المسالك

ويسخر عبد المنعم بن مظفر الغسانى الجليانى من أولئك الذين يتظاهرون بالعلم ، ويلجئون إلى السفسطة الجوفاء ، ولا تتردد على ألسنتهم إلا كلمات بلهاء تدل على جهل وقلة إدراك ، يقول : (٢)

يا ساهراً فى اقتناء علم ... يخطب منه مقام محكم
بدون هذا ترى فقيهاً ... فوسع الحكم ثم عمم
والبس مع الشهب طيلساناً ... واغمده فى المنكبين واختم
واجلس مع القوم فى جدال ... لا بالبخارى ولا بمسلم
إلا صياحاً ونقض كم ... ونظم " لا لا " وقول " لم لم "
فما أرى عندهم علوماً ... أكثر من " لا و " لا أسلم "

وكان ابن شهيد أحد الذين حملوا على هذه الطائفة من المعلمين والعلماء الذين لم يرزقوا إلا بأذهان صدئة ، وعقول عفنة ، وفد وصفهم بقوله (٣) : " وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو وحفظ كلمات عن اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فطن

(1) أدب الفقهاء ص ١٦٧ .
(2) النصون اليانعة ص ١٠٧ .
(3) الذخيرة ١ / ١ / ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

حمئة ، وأذهان صدئة ، سقطت إليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليمانى من الرقص والإيقاع ، والزمر على الألحان "

وإلى هذه الطبقة من العلماء يشير ابن شهيد فى قوله : [1]

ونـــاقل فقـــه لم يــــر الله قلــــبه يظـن بـأن الديـن حفـظ المسـائل

وتبرم الشعراء بالنحاة الذين يتصيدون أخطاءهم ويقفون لهم بالمرصاد فيما ينظمون ، فهجوهم وسخروا منهم كما نجد فى قول أحد الشعراء [2] :

مـاذا لقيـت مـن المستعربين ومـن قـياس قولهـم هـذا الـذى ابـتدعوا
إن قلـت قافـية بكـراً يكـون لهـا معنى يخـالف مـا قـالوا ومـا وضـعوا
قالوا : لحنت وهذا الحرف منتصب وذاك خفـض ، وهـذا لـيس يـرتفع
وضـربوا بـين عـبد الله واجـتهدوا وبـين زيـد فطـال الضـرب والوجـع

وكانـت أعـين الشعراء أشبه بعدسة تلتقط كل ما يقع أمامهم من عيوب ، فـإذا أخطـأ نحـوى أو فقيه أو قـارئ ، تصيد الشـعراء هذا الخطأ ، وأبرزوه بطريقة تضمن له الذيوع والانتشار على ألسنة الناس .

هجاء الفلاسفة :

أنجبـت الأندلـس عدداً من كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد وابن طفيل وابن باجـة وغيرهـم ، وحظى هؤلاء الفلاسفة بمنزلة رفيعة فى عصورهم بيد أنه كان يوجـد تـيار يناصـب الفلاسـفة الأعداء ، يتزعمه الفقهاء وبعض رجال الدين ، وكـانوا يروجون له فى أوساط الدهماء وعامة الناس ، كما كانوا يحاولون تأليب أصحاب السلطة على المشتغلين بالفلسفة . وترددت أصداء هذا التيار واتهموهم بالخروج على مبادئ الدين . وقد مال بعضهم إلى التعميم فى هجائه فلم يصرح بأسماء فلاسفة بعينهم . بينما مال آخرون إلى التخصيص والتصريح ، على نحو مـا نجـد فى قول بعضهم يهجو مالك بن وهب الفيلسوف وكان على بن يوسف

---

[1] الذخيرة ١ / ١ / ٢٠٦ .

[2] نفح الطيب ٤ / ١٤٤ .

ابن تاشفين قد استدعاه من إشبيلية إلى (مراكش) وصيره جليسه وأنيسه مما أثار حقد بعض الناس وغضبهم ، فكان مما قيل فيه : [1]

دولة لابن تاشفين على ... طهرت بالكمال من كل عيب
غير أن الشيطان دس إليها ... من خباياه مالك بن وهيب

وكان (ابن جبير) أحد الذين شنوا حرباً ضارية على الفلاسفة ، فله شعر كثير فى ذمهم وهجائهم حسبما يذكر عبد الملك المراكشى [2] ، وتدور معانيه فى هجاء الفلاسفة حول اتهامهم بالمروق والإلحاد وإباحة المحظور ، وارتكاب ما ينكره الدين ، وأنهم لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ، ولا يعلنون كفرهم خوفاً من العقاب وإقامة الحدود عليهم ، فمن ذلك قوله : [3]

لأشياع الفلاسفة اعتقاد ... يرون به عن الشرع انحلالا
أباحوا كل محظور حرام ... وردوه لأنفسهم حلالا
وما انتسبوا إلى الإسلام إلا ... لصون دمائهم أن لا تسالا
فيأتون المناكر فى نشاط ... ويأتون الصلاة وهم كسالى

وتتسع حملة ابن جبير على الفلسفة لتشمل المشتغلين بها من الأندلسيين والمشارقة كابن سينا والفارابى ، فيقول : [4]

قد ظهرت فى عصرنا فرقة ... ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى فى الدين إلا بما ... سن ابن سينا وأبو نصر

ويتهم الفلاسفة مرة أخرى بالخروج عن الدين وادعاء الحكمة وشغل أنفسهم بالسفه فيقول : [5]

يا وحشة الإسلام من فرقة ... شاغلة أنفسها بالسفه

---

(1) نفح الطيب ٣ / ٤٧٩ .
(2) انظر : الذيل والتكملة ٥ / ٢ / ص ٦١١ .
(3) نفسه ٥ / ٢ / ص ٦١١ .
(4) نفح الطيب ٢ / ٣٨٥ .
(5) نفح الطيب ٢ / ٣٨٥ .

قــد نــبذت ديــن الهــدى خلفهــا وادعـــت الحكمـــة والفلســـفه

ويرميهم باعتناق مذهب الطبيعة فيقول [1]

ضــلت بأفعالهـــا الشـــنيعة طائفـــة عـــن هـــدى الشـــريعة
ليســت تــرى فــاعلا حكــيماً يفعـــل شـــيئاً ســـوى الطبـــيعة

وكانت تهمة (الزندقة) إحدى التهم التى ألح عليها الشعراء فى هجائهم للفلاسفة ، ولهم فيها صور طريفة كقول المخزومى الأعمى : [2]

مــا لزنـــيديق بـــنى فـــاعل يـــذم مـــنى كـــل مـــا يحمـــد
يلحظـــنى شـــزاراً إذا مـــربى كأنـــنى فـــى عيـــنه مســـجد

واتجه الشعراء بهجائهم إلى أهل الفلك والنجوم معبرين عن كراهية الشعر لهذه العلوم الجديدة ، فواجهوها بالسخط والعداء واستنكروا الاشتغال بها ، وسخروا منها ومن المهتمين بها " وفى هذا المظهر كان الشعر يمثل روح المحافظة ، ويقوم بدور الخصم العنيد للعناصر العلمية أو كان حينئذ يعد ضرباً من الثقافة العلمية ، كالجغرافيا واقليدس والمجسطى وعلم النجوم والفلسفة"[3].

وإذا كان ابن جبير أكثر من حملوا على الفلسفة والفلاسفة ، فإن ابن عبد ربه كان أكثر الشعراء عداء للفلك والجغرافيا ، فقد سخر من العلماء الذين قالوا بكروية الأرض وباختلاف الفصول حسب المناطق المناخية المختلفة واتهمهم بالغواية والسخف ، ويعزو الدكتور إحسان عباس موقف ابن عبد ربه إلى ثقافته الفقهية فيقول : " وربما بدا لى أن ابن عبد ربه كان أقرب إلى التزمت منه إلى الانطلاق ، فقد أورثته ثقافة الفقهية نظرة محافظة متشددة تنفر من كل جديد وتعادى العلوم الدنيوية — إذا صحت التسمية — ويكفى أن نذكر صلته بمسلم ابن أحمد بن أبى عبيدة الليثى ، الذى كان عالماً بالحساب والنجوم ، وكيف

---

[1] نفسه ٢ / ٣٨٥ .
[2] زاد المسافر ص ١٢٥ .
[3] تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ١٢١ .

عابه لاهتمامه بهذه العلوم ، ووصفه بأنه شاذ عن رأى الجماعة ، وتهكم بمعارفه الفلكية والجغرافية ، وأعلمه بأنه لا يصدق ما تضمنته علومه " [1].

ويتمثل هذا الموقف القائم على كراهية هذه العلوم فى هذه الأبيات التى يسخر فيها ابن عبد ربه من بعض معاصريه من العلماء المشتغلين بالفلك والجغرافيا والحساب على شاكلة ابن أبى عبيدة الليثى وابن موسى ومعاوية بن الشبانس ، فيقول : [2]

زعمت بهرام أو بيدخت يرزقنا ... لابل عطارد أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الأرض فى فلك ... بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كروية حف السماء بها ... فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها ... قد صار بينهما هذا وذا دولا
كما استمر ابن موسى فى غوايته ... فوعر السهل حتى خلته جبلا
أبلغ معاوية المصغى لقولهما ... أنى كفرت بما قالا وما فعلا

ويسخر ابن عبد ربه من المشتغلين بالفلك وعلم النجوم فيقول : [3]

إذا كان أخو النجم ... يرى الغيب بما ضمه
إلام يطلب الرزق ... طلاب العاجز الهمه
وهذى الأرض قد وارت ... كنوزاً عدة جمه
فلا والله ما لله ... خلق يحتوى علمه

وفى قصيدة ثالثة يسخر ابن عبد ربه من ابن عذراء وابن عباس وأشياعهما من المنجمين الذين تنبأوا بتأخر الغيث ذات مرة ولكن نبوءتهم لم تتحقق إذ سرعان ما هطل الغيث مدراراً ، وفى ذلك يقول : [4]

قل لابن عذراء السخيف الحجى ... زرى عليك الكوكب الثاقب
ما يعلم الشاهد من حكمنا ... كيف بحكم حكمه غائب

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - ص ١٨٤ .

[2] طبقات الأمم للقاضى صاعد ص ٧٤ .

[3] بهجة المجالس ٢ / ١١٨ .

[4] نفسه ٢ / ١١٩ .

فقـل لعبـاس وأشـياعه | كـيف تـرى ؟ قولكـم الكـاذب
خـانكم كـيوان فـي فرسـه | وغـركم فـي لونـه الكاتـب
فكلكـم يكـذب فـي علمه | وكلكـم أصـله كـاذب
مـا أنـتم شـيء ولا علمكم | قـد ضعف المطلـوب والطالـب
تعالـبون الله فـي حكمـه | والله لا يغلبـه غالـب

ويشارك سعيد بن العاصي المرواني ابن عبد ربه في حملته على علماء الفلك فيقول : [١]

مسـتحيل أن تـدرك الأوهـام | علـم غيـب تغيـب عـنه الأنـام
كـيف يخـتار علـمه بشـرى | وهـو علـم قـد حـازه العـلام
لسـت ممـن يقـول فـيه بجهـل | مـا يقـول الكـندي والـنظام
كـل مـن قـال إن للـنجم حكمـاً | لم يجـز فاعـلمن علـيه السـلام
سـطر الأولـون فـيه أسـاطيـ | ـر ولم يـلهموا الرشـاد فهـاموا
إذ أرادو بالسـند وبـالأر | كـند والـزيج روم مـالا يـرام
خبطوا فـي أمورهـا خـبط عشـواء | حـين ضـلت فـي كـنهها الأوهـام
والـذى هيمـنوا بـه مـن قريـب | هذيـان آثـاره البرسـام
إنمـا السـبعة الـدرارى أجـرا | م ولكـن لا تعقـل الأجـرام
وصـفوها بـالفهم وهـي شـخوص | مـا لديهـا فهـم ولا إفهـام
وحكـوا أنهـا تؤثـر فـي العـا | لم ، والعـالمون عـن ذا نـيام
كذبـوا لـيس للكواكـب نقـض | فـي جمـيع الـورى ولا إبـرام
والـذى قالـه الأوائـل فـيها | فهـو مـا لا يقولـه الإسـلام
إنمـا سـخرت بقـدرة بـاريـ | ـهـا إلى أن يحـين مـنها انصـرام
فهـي تجـرى فـي رتـبة لـيس تعدو | هـا ولا يسـتحيل فـيها الـنظام
كـل يـوم تسـاق فـيه إلى العز | ب سـراعاً كمـا تسـاق السـوام
لـيس يقضـي كـيوان أمـراً كمـا قـا | لـوا ، ولا المشـترى ولا بهـرام
لا ولا الشـمس فـي الـبروج ولا الـبد | ر الـذى ينجـلى بـه الإظـلام
إنمـا الأمـر للـذى خلـق الخلـق وتمضـي بعـزمه الأحكـام

---

[١] نفسه ٢ / ١٢٠ وما بعدها .

ويلح الشعراء في هجائهم للمشتغلين بالفلك والنجوم على فكرة واحدة محددة وهي أن الله عز وجل هو وحده المستأثر بعلم الغيب ، وأن أولئك العلماء لا يملكون من أمرهم شيئا ، وترددت هذه الفكرة عند ابن عبد ربه وعند ابن العاصي المراوي ، كما ترددت أيضاً عن عيسى بن قرلمان على نحو ما يبدو في قوله : [1]

لو كان عند النجوم السابحات بما ... يجرى على الخلق من أبنائهم خبر
لم يحتلل بذراهم ريب حادثة ... بل كان ينجيهم الإنذار والحذر
ما كان ينجل منهم عالم ولداً ... في ساعة ما بها نحس ولا كدر

ولم يقتصر الشعراء في هجائهم على أصحاب العلوم النظرية ، بل اتجهوا بهجائهم أيضاً إلى أصحاب المهن العلمية كالكيمياء والطب والوراقة وغيرها ، فأبو إسحاق الإلبيرى يعرض بأحد الفقهاء لأنه كان يطلب الكيمياء [2] ، والأبيض – أو الصائغ – يهجو ابن زهر الحفيد والوشاح المشهور فيقول [3] :

يا ملك الموت وابن زهر ... جاوزتما الحد والنهاية
ترفقا بالورى قليلا ... في واحد منكما الكفاية

ولدينا زجل لأبى الدباغ في هجاء أحد الأطباء ، وفيه يقول : [4]

إن ريت من عداك يشتكى من تلطيخ
وتريد إن يقبر إحمل للمريخ
قد حلف ملك الموت بجميع أيمان
ألا يبرح ساعة من جوار دكان
ويربح روح ويعظم شان
وفساد النيا تحت ذاك الثوبيخ

---

(1) بهجة المجالس ٢ / ١٢٠ .

(2) ديوان الإلبيرى ص ٥٩ .

(3) زاد المسافر ص ١١١ والأرجح أنهما لابن الصائغ لأن ابن زهر يرد عليه بمقطعة يتهمه فيها بالزندقة وهي الأقرب في مهنة الفلسفة التي كان يشتغل بها ابن الصائغ (انظر زاد المسافر ص ١١٢) .

(4) المغرب ١ / ٤٣٩ .

بقـــياس الفاســـد وبديـــن الحمـــروج
يخـــد الصـــفراوى ويـــرد مفلـــوج
للصـــحيح لـــس يـــسمح بمـــريقة فـــروج
ويحـــيل المحمـــوم عـــلى أكـــل البطـــيخ

وغـــنى إن طـــبا فـــيرد يســـعى
والمـــنى يطلـــق فـــى مـــروج نـــرعى
يسـقى مـا يسـقيه يحتـبس فـى الأمعـا
احتـباس أيـدى العـار بحـال التوبـيخ

* * *

قـــوه تنـــتقى مـــن عطـــاه تنقـــيا
ويـــرى أكـــباده فـــى الطســـيس مرمـــيا
تنـــبرى أنـــباط وتقـــع ملويـــا
مـــثل شـــعر العانـــا إن خلـــق بالزرنـــيخ

* * *

وفـى هـذا الـزجل يتهم أبو على الدباغ مهجوه بالجهل بأسرار صنعته ، وفشله فى مداواة مرضاه ، واللافت فيه روح السخرية والفكاهة الحادة الموجعة ، " وفى هذا الزجل تقع على بعض الصورة الطريفة الساخرة ، كصورة ملك الموت وهـو لا يـبرح دكـان الطبيـب ، ومـثل هـذه الصـورة الـتى يحيل فيها الطبيب الشـخص المحمـوم عـلى أكل البطيخ ولا يسمح فيها للسليم بـ " مريقة فروج " وهو وصف مستمد من بيئة الزجال بأجوائها المحلية " [1]

وفى مهنة الوراقة والورّاقين يقول ابن سارة الشنتريني : [2]

أمـا الوراقـة فهـى أنكـد حـرفة	أغصـانها وثمارهـا الحـرمان
شـبهت صـاحبها كإبـرة خـائط	تكسـو العـراة وجسـمها عـريان

---

(1) الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ص ٦٢٥ .
(2) قلائد العقيان ص ٢٦٠ .

ويتضح مما أوردناه من أمثلة أن الشعراء لم يصدروا في هجائهم عن عداء شخصي – في أغلب الأحوال – بدليل أن ابن عبد ربه كان على صلة وطيدة ببعض هؤلاء العلماء ومع ذلك هجاهم وإنما كان هجاؤهم تعبيراً عن كراهيتهم لهذه العلوم في حد ذاتها ، ولم تكن هذه الكراهية موقفاً عاماً عند جميع الشعراء ، ولكنها ارتبطت بأصحاب الثقافات الدينية والفقهية . وكذلك الحال بالقياس إلى الهجاء الذي وجه إلى المعلمين وغيرهم من العلماء ،فهو ليس هجاءاً لأشخاص بعينهم بقدر ما هو نقد أو ذم لبعض الصفات المزرية كادعاء العلم أو التعصب البغيض أو السفسطة الفارغة .

هجاء الكتاب :

استأثرت صنعة الكتاب بهجاء كثير من الشعراء وذلك بسبب التنافس التقليدي بين الشعراء والكتاب ، ولم يكن الشعر وحده كافياً لكي يتبوأ الشاعر منصب الوزارة أو غيره من المناصب الخطيرة في الدولة ، فقد كانت " مهمة الوزارة تتصل – قبل أي شيء آخر – بالكتابة ، فإذا كان الكاتب مثل ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون على مقدرة شعرية ممتازة صح له أن يبلغ مرتبة الوزارة ويكون شعره ميزة تعينه على ذلك ، لكنه لو انفرد بالشعر دون الكتابة لما استطاع أن يبلغ تلك الوظيفة . "[1]

وقد أثارت هذه التفرقة حفائظ الشعراء ، فحملوا على الكتاب ، وتتبعوا عثراتهم وسقطاتهم ، واتهموهم بالجهل وعدم الدراية بصنعتهم على نحو ما نقرأ في قول عقيل بن نصر :[2]

قلب الزمان فبان بالآداب ومحارسوم محاسن الكتاب
وأتى بكتاب لو استخبرتهم لرددتهم طراً إلى الكتاب

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ص ٨٢ .

[2] بغية الملتمس ص ٤٣٧ .

ويحتفظ صاحب (زاد المسافر) بصورة طريفة لأحد الكتاب الجهلاء — يدعى (ابن لجين) — وكان كاتبا للأمير أبى حفص الموحدى ، وأمره ذات يوم أن يكتب فى أمر خديم لأحد إخوانه كان وجه عنه لشغل ، فلما فرغ عنه قال له : اكتب معه إلى مخدومه أنا قد صرفناه بعد أن فرغ مما وجهناه فيه عنه ، فكتب :" وكنا قد استدعينا فلاناً ، فلما قضينا منه وطراً صرفناه إليكم".

فقال له لما وقف عليه : " هل فعلنا به مالا يكنى ؟ " وقطع عليه الكتاب فكتب فى آخره : " فلما قضى نحبه انصرف إليكم " . كما كتب عن مخدوم له : " فاشتهدوا " يريد الأمر بالاجتهاد . [1]

وكان هذا الكاتب وأمثاله مادة غنية للشعراء ، وفيه يقول أحدهم [2] :

وهل الكتابة يا ابن ألف لئيم	إلا نتيجة فقرة وقسيم ؟
وأراك قد سميت نفسك كاتباً	خلواً من المنثور والمنظوم
حتى كتبت الإجتهاد غباوة	بالشين معجمة مكان الجيم
لو أننى حكمت فيك فنطت ما	كتبت يداك بعنقك المخزوم
وجعلت من يمشى وراءك قائلا	هذا جزاء الكاتب المشؤوم
يا أيها الشيخ المعظم قدره	(والشؤم يهدم سور كل زعيم)
إحذر – وقاك الله – شدة شؤمه	فالكاتب المشؤوم شر خديم

وكانت صفة (الشؤم) هذه إحدى الصفات المعيبة التى يكثر الشعراء من إلصاقها بالكتاب ، فنراها تتردد فى هجاء الأعمى المخزومى لابن أبى الخصال كاتب على بن يوسف بن تاشفين ، وأبرز كتاب عصر المرابطين ، ويميل المخزومى فى هجائه إلى الإفحاش كعادته فى هجائه ، فيقول : [3]

طويس الشؤوم يا ابن أبى الخصال	لقد نكبت عن كرم الخصال
ترغب فى النقائص والمخازى	ونزهد فى المكارم والمعالى
نكحت حزوراً وسلكت طفلا	ولم تقلع وشيبك فى اكتهال

---

[1] زاد المسافر ص ١٣٤ .

[2] نفسه ص ١٣٤ .

[3] خريدة القصر ٢ / ٢٥٥ – ٢٥٦ .

ففـــى وجعـــاك آثـــار الفياشـــى كمـــا فـــى البـــنر آثـــار الحـــبال

ونقع على هذه الصورة المزرية لأحد الكتاب عند ابن صارة الشنتريني إذ يقول : [1]

وأغـــر ينـــتحل الكـــتابة خطـــة مـــتوقد كالحـــية النضـــناض
عشـــق الســـواد فاصبحت أســـنانه تشرى الســـواد ببـــيع كـــل بـــياض
فـــإذا شـــحا فـــاه رأيـــت خنافســـاً يـــأوين مـــن فـــيه إلى المـــرحاض

ولابن شهيد بعض مقطعات في هجاء الكتاب ، منها مقطعة في هجاء الكاتب أحمد بن جعفر بن عباس الذى كان وزيراً وكاتباً لزهير الصقلبى خليفة خيران فى حكم المرية سنة ٤٢٥هـ ، وقد اشتهر عن هذا الكاتب مهارته فى كتابة الرسائل ، وغناه الفاحش ، وبخله وغروره ، وحدث أن اجتمع هذا الوزير الكاتب بابن شهيد وبعض رفاقه . ولكنه لم يرض بما جاءوا به على البديهة مما أثار غضبهم ، فهجاه بعضهم فأفحش فى هجائه ، كما هجاه ابن شهيد فقال : [2]

أبـــو جعفـــر رجـــل كاتـــب مليح شبا الخـط ، حلـو الخطابـه
تمـــلأ شـــحماً ولحمـــا ومـــا يلـــيق تملـــؤه بالكـــتابه

ويرسم ابن شهيد هذه الصورة الكريهة لكاتب آخر فيقول : [3]

ويـــح الكـــتابة مـــن شـــيخ هبـــنقة يلقـــى العـــيون بـــرأس مخـــه رار
ومـــنتن الـــريح إن ناجيـــته أبـــدا كأنمـــا مـــات فـــى خيشـــومه فـــار

وفى ديوان ابن هانيء نقع على قصيدة يهجو فيها الوهراني كاتب الأمير جعفر بن على المعروف بابن الأندلسية . وكان والياً لمدينة المسيلة . وهى قصيدة طويلة إذ يبلغ عدد أبياتها اثنين وأربعين بيتاً ، بدأها بقوله : [4]

---

[1] الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .
[2] الإحاطة ١ / ٣٣٨ . ديوان ابن شهيد ص ٤٩ ، ٥٠ .
[3] الذخيرة ١ / ١ / ص ٢٩٦ .
[4] ديوان ابن هانى ص ٤٠١ .

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف

وبعد مقدمة تأملية قصيرة يخلص ابن هانىء إلى هجاء الوهرانى ، فيرميه بجلافة اللفظ ، وخطل الرأى ، وفساد التأليف والنظم ، ويقول :[1]

إن أيام دهرنا سخفات فهى أعوان كل وغد سخيف
زمن أنت ، يا أبا الجعر ، فيه ليس من تالد ولا من طريف
إن دهراً سموت فيه علواً لوضيع الخطوب ، وغد الصروف
إن شأوا طلبته فى زمان العـ ـلاك عندى ، لشأوبين قذوف
إن رأياً تديره لمعنى بضلال الإمضاء والتوقيف
إن لفظاً تلوكه لشبيه بك فى منظر الجفاء الجليف
كاذب الزعم مستحيل المعانى فاسد النظم ، فاسد التأليف
أنت لا تغتدى لتدبير ملك إنما تغتدى لرغم الأنوف
نلت ما نلت لا بعقل رصين فى المساعى ، ولا برأى حصيف

ويعرض ابن هانىء بمهجوه ويرميه بتهمة خطيرة هى تحريف القرآن فيقول :[2]

لم أحارب نور الهدى بالدياجى وحروف القرآن بالتحريف
مثل هذا العميد بالجبت والطاغوت منهم ، والهائم المشغوف

وطريقة ابن هانىء فى هذه القصيدة لا تكاد تختلف عن طريقته فى أغراضه الأخرى ، فهو يميل إلى استخدام الألفاظ القوية الطنانة (قذوف .. جليف .. رجوف .. الجبت .. إلخ) ولكن حظه من التخيل محدود ، ومعانيه مألوفة مكررة ، وصوره تفتقر إلى الجدة والابتكار ، فلا نقع على صورة لها خصائص صور ابن الرومى مثلاً ، ولا نرى فى تصويره لشخصية المهجو ما نراه عند شعراء الهجاء البارزين من تفنن وبراعة ، ولا نظفر فى هجائه بدعابة ساخرة ، أو نكتة عابثة ، أو صورة تخفى وراءها خيالاً خصباً .

---

[1] نفسه ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

[2] ديوان ابن هانىء ص ٤٠٤ .

الفصل الرابع

الهجاء الاجتماعى

- نقمة الفرد على المجتمع
- الرذائل الخلقية
- التصدى لمظاهر الفساد
- هجاء البخلاء
- هجاء الأهل والأقارب
- هجاء المظاهر الحضارية
- هجاء المغنين
- هجاء المدن

الهجاء الاجتماعي ضرب من الهجاء يوجه فيه الشاعر سهامه إلى أمور تتصل بعادات الناس وطبائعهم وأخلاقهم وصفاتهم . وهو لا يتناولها بطبيعة الحال من جوانبها الإيجابية أو المثالية ، بل بما فيها من فساد واختلال ، فالهجاء سريع النفاذ إلى مواطن العيب والخلل ، ولا يستهويه إلا المثالب ومواضع القصور والنقص ، فيلتقطها بعينه الناقدة ، ويرى فيها مادة غنية بالصور ، فيجمعها ويبرزها للعيان في صورة منفرة تثير الضيق والاشمئزاز .

والهجاء الاجتماعي لا يقف عند حدود الذاتية المطلقة ، ولا يأخذ فقط صفة التشهير كما يرى بعض الباحثين [1] ، ولكنه يتعدى ذلك إلى مفهوم أوسع وأشمل ؛ فهو أقرب إلى النقد الاجتماعي منه إلى النقد الذاتي . كما أنه يكشف بصورة أو بأخرى عن كثير من جوانب الفساد والقصور في المجتمع .

وتتنوع ضروب الهجاء الاجتماعي ، فهناك ضرب منه يصور نقمة الفرد على المجموع ، وثورته على ما يشهد فيه من اختلال في المقاييس والقيم ، ويرى أحد الباحثين أن هذا الضرب أكثر أنواع الهجاء تعقيداً ، وأعمقها تجربة إنسانية [2] ، وقد راج هذا النوع من الهجاء في العصر العباسي وما تلاه من عصور حيث اقترنت الحضارة بشيوع كثير من الرذائل والمفاسد ، فنقم بعض الشعراء على المجتمع ، ووصموه بالفساد والانحلال ، " واتجه الهجاء إلى ضرب من التشاؤم والسخط على الحياة والمجتمع والناس جميعاً ، بل على الدهر ، ولكنه لم يكن سخطاً إيجابياً عنيفاً ، بل كان سخطاً سلبياً " [3].

وراج هذا النوع من الهجاء أيضاً في الأندلس . فابن عبدون يرمي أهل عصره بالفساد ، فيرى أن الناس فسدت أبدانهم ، وأنه لا يصلح هذه الأمور إلا نبي ، ويتتبع أوجه الخلل والقصور في مجتمعه ، فيعيب على بعض الناس شرب الخمور في المقابر ، وجلوسهم فيها لاعتراض النساء ، ويشير إلى تفشي

---

(1) الشعر في عصر المرابطين والموحدين ص ٢٥٢ .

(2) فن الهجاء لايليا حاوي ص ٩ .

(3) تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري . تأليف د. محمد زغلول سلام ، ص ٣٢ .

الفسق وضروب الغش في السلوك والمعاملات ، وكذلك صنوف الحيل ونقص الذمة في البيع والشراء ، وأخذ الجعائل ، وأخذ الصيرفيين للربا . "[1]

وينحى ابن عربى باللائمة على الزمان وأهله فيقول : " زمان شر ، قلت فيه لقمة الحلال ، وكثر فيه الشره والكلب في قلوب الناس ، فلا بطن يشبع ولا نفس تقنع ، ولا عين تدمع ، ولا دعاء يسمع " .[2]

ولدينا أمثلة كثيرة تمثل سخط الشعراء على الزمان وأهله ، ويمثل ابن عبد ربه هذا الاتجاه خير تمثيل ، " فعلى الرغم مما بلغه من مكانة ، وما شهر عنه من تقوى وديانة ، فقد كان — فيما يبدو — ضيق العطن ، حاد الطبع سريعا إلى الهجاء ، متبرماً بالناس ، كثير الشكوى من الزمان ، سيء الظن بالمجتمع ، مسرعاً إلى رؤية السيئات دون الحسنات في زمانه وأهله " .[3]

إن تجربة ابن عبد ربه في الحياة دفعته إلى درجة بعيدة من التشاؤم والسخط فهو يرى أن الخير قد انعدم في الدنيا ، وأن أبناءها ليسوا إلا كلاباً توزعوها فيما بينهم : [4]

وأيام خلت من كل خير	ودنيا قد توزعها الكلاب
كلاب لو سألتهم تراباً	لقالوا عندنا انقطع التراب

ويشارك السميسر ابن عبد ربه رأيه في إساءة الظن بالناس وفي وجوب تحاشيهم واجتنابهم فيقول : [5]

تحفظ من ثيابك ثم صنها	وإلا سوف تلبسها حدادا
وميز عن زمانك كل حين	ونافر أهله تسد العبادا

---

[1] ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة ص ٦٠.

[2] روح القدس في محاسبة النفس ص ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد مجلد ١٤ ص ٣٥.

[3] تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - ص ١٨٥ .

[4] العقد الفريد ٢ / ٣٤٢ .

[5] الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٩٥ .

وظـن بسـائر الأجـناس خـيراً ... وأمـا جـنس آدم فالـبعادا

ويعلـن عـبد العزيز على الجذامى (ت٧٢٥هـ) سخطه على الدنيا وأبنائها فيقول : [1]

أبـناء دنـيا لا خـلاق لهـا ... مـا أشـبه الأبـناء بـالأم
جربـتهم وخـبرتهم زمـناً ... فتركـتهم بغضـاً عـلى شـلم
لكـن دهـرى اضـطرنى لهـم ... فصـحبتهم كـرهاً عـلى رغـم

أما عبد الواحد الواعظ الإشبيلى (ت٦٣٧هـ) فيصب سخطه ولعناته على كل من فى الوجود فيقول : [2]

إن كنـت تشـكو بـبرد ... وقلـة فـى الـبرود
فادفـأ بلعـن كـثير ... لكـل مـن فـى الوجـود

ويـنقم ابـن الخطيـب على أهل زمانه الذين لا يقدرونه حق قدره ، ويرى نفسه بينهم كحى بين أموات فيقول : [3]

أحـى بـين أمـوات ركـود ... ويقظـان لـدى زمـن نـؤوم
أدور فـلا أرى إلا نـياماً ... كـأنى بـين أصـحاب الرقـيم
عفـت أعـلام آدابـى وعـلمى ... بهـم فبقيـت كالرسـم القديـم

واقـترن بـنقمة الشعراء عـلى الـناس والـزمان نقمـة أخرى على الأصدقاء والإخـوان ، فـنعوا علـيهم خداعهم ومخاتلتهم ، وإضمار السوء لهم ، والتظاهر بالحـب والـولاء عـلى نحـو مـا نجـد فـى قـول جعفر بـن إبراهـيم بـن الحاج اللورقى : [4]

أخ لى كنـت آمـنه غـروراً ... يسـر بمـا أسـاء بـه سـرورا
هـو السـم الـزعاف لشـاربيه ... وإن أبـدى لـك الأرى المشـورا

---

[1] درة الحجال ٣ / ١٣٦ .
[2] اختصار القدح ص ٢١٠ .
[3] التشبيهات ص ٦١٨ .
[4] خريدة النصر ٢ / ١٤٥ .

ويوســعنى أذى فــأزيد حــلما كمــا حــد الذبــال فــزاد نــورا

ويقول أيضاً : [1]

أسـهر عيـنى ونـام فـى جـدل مــدرك حــظ سـعى إلى أجــلى
دنــياه موقوفــة علــيه فمــا يطورهــا طائــر لــدى أمــل
قــد لعقــت بالمحــال فاجتمعـت مــن خــدع جمــة ومــن حــيل
كــم محــنة قــد بليـت مــنه بهــا وهــو يــرى أنهــا يــد قبــلى

ويعبر ابن الخطاب عن سوء ظنه فى الإخوان والأصحاب فيقول : [2]

إذا حصــلت إخوانــى جمــيعاً وجدتهــم كأضــغاث المــنام
فمــن أعددتــه لمهــم أمــرى كــإخوان التحــية والســلام

أما ابن عبد ربه فقد آثر أن يبتعد عن أصحابه لأنه أدرك بعد تجربة طويلة أن أخاه الحقيقى هو درهمه الذى يقبض عليه بيده : [3]

قالوا نأيت عن الإخوان قلت لهم مالى أخ غير ما تطوى عليه يدى

وهناك ضرب آخر من الهجاء يدور حول الرذائل الخلقية ، ويصور بعض الآفات الاجتماعية كشيوع الزنا واللواط والسرقة ، وميل بعض الناس إلى الكذب والبخل ، وغير ذلك من الصفات المستهجنة ، ونمثل لهذا النوع بأبيات أبى جريزة محفوظ بن مرعى الشريف التى يعرض فيها بقوم دأبوا على ارتكاب الفحشاء فيما بينهم دون مراعاة دين أو حرمة ، وفيها يقول : [4]

يــا دائــبين عــلى الفحشــاء ويلكــم ألبســتم شــيخكم ثوبــاً مــن العــار
الإبــن فــى داركــم صــهر لوالــده والأخ قــد ينثــنى عــن كلــبه الحــار
مــا تحفظــون أبــاكم فــى حلائلــه والكلــب عــرس لحــاه الله مــن دار
أحييــتم ســنة دان المجــوس بهــا فعظمــوا مثــلهم بيــتاً مــن الــنار

---

[1] نفسه ٢ / ١٤٥ .
[2] التشبيهات ص ٢٧١ .
[3] العقد الفريد ٣ / ٣١ .
[4] زاد المسافر ص ١٢٣ .

ويشير المخزومي الأعمى إلى استشراء آفة اللواط في هجائه لابن القصير فيقول مضمناً أحد أبيات الشعر الذائعة : [1]

لابن القصير مع ابنه وصغيره ... حجج بها سوق الفسوق تقوم
ألقاه يوماً تحت أسود حالك ... فبدا يعاتبه لذا ويلوم
فأجابه متعجباً وجوابه ... بيت على مر الزمان قديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ويعرض أبو عيسى المربيطري بأحد الأشخاص المصابين بهذا الداء وقد تزوج بإحدى العاهرات ، فيقول : [2]

لا تعذلوه على ابتناء ... بعرسه العاهر الهجين
أليس مثل الغزال حسناً ... لابد للظبي من قرون

ومن مظاهر الفساد التي تصدى لها الشعراء انتقاد تصرفات بعض رجال الدين الذين تخلوا عن أداء واجبهم ، وتساهلوا في الأحكام ، واستحلوا المحرمات ، وقد مرَّ بنا أمثلة كثيرة لهذا النوع في هجاء الفقهاء والقضاة ، ونمثل لذلك أيضاً بقول أبي بكر بن مغاور الشاطبي : [3]

إنا إلى الله ماذا حل بالدين ... من الطوال اللحى البيض العثانين
باعوا رضى الله وابتاعوا مساخطه ... وغيروا الشرع بالله للدين
أضحت شهادتهم بالزور ناطقة ... إن الشهود لأعوان الشياطين

ويشير عبادة إلى استشراء داء الكذب عند بعض الناس فيقول : [4]

مذ كنت لا تنفك تخبر ... عن حديث لم يكن
فكأنما غذيت طفلا ... بالكذاب مع اللبن

---

[1] زاد المسافر ص ١١٨ .
[2] المغرب ٢ / ٣٧٨ .
[3] زاد المسافر ص ٨٠ .
[4] التشبيهات ص ٢٤٨ .

ويحمل ابن خفاجة على طائفة من الناس يتصفون بالجهل والغباء : [1]

دع عنك من لوم قوم لست تخبرهم ... إلا تكشف ستر الغيب عن عيب
عوج على الدهر هوج غير أنهم ... سود من الجهل بيضان من الشيب

ويقول : [2]

يا ضاحكاً ملء فيه جهلا ... أحسن من ضحكك البكاء
وهنت حساً وهنت نفساً ... فلا ذكاء ولا زكاء

ومن الصفات الذميمة التى تناولها الشعراء فى هجائهم صفة الزهو والكبر عند بعض الناس ، وقد نظم أبو إسحاق الإلبيرى قصيدة فى رجل يجر ثيابه زهواً وخيلاء قال فيها : [3]

ما عيدك الفخم إلا يوم يغفر لك ... لا أن تجر به مستكبراً حللك
كم من جديد ثياب دينه خلق ... تكاد تلعنه الأقطار حيث سلك
وكم مرقع أطمار جديد تقى ... بكت عليه السما والأرض حين هلك

كما أكثر الشعراء من هجاء ثقلاء الظل ، وهى صفة ذميمة لاسيما إذا اجتمعت معها صفات أخرى كالرقاعة والسخف على نحو ما يبدو فى قول أبى الحكم بن المظفر : [4]

وهو على خفة به أبداً ... معترف أنه من الثقلا
يمت بالثلب والرقاعة والـ ... ـسخف ، وأما بغير ذاك فلا
إن أنت فاتحته لتخبر ما ... يصدر عنه فتحت منه خلا
فنبه إن حل خطة الخسف والـ ... ـهون ورحب به إذا رحلا
واسقه السم إن ظفرت به ... وامزج له من لسانك العسلا

---

[1] ديوان ابن خفاجة ص ٧٧ .
[2] نفسه ص ٦٨ .
[3] ديوان الإلبيرى ص ٧٠ .
[4] نفح الطيب ٢ / ١٣٤ .

وبـرع الشـعراء فـى تـناولهم لهـذه الصـفة كما يبدو فى قول أمية بن أبى الصلت الإشبيلى :[1]

لى جليس عجبت كيف استطاعت هـــذه الأرض والجـــبال تقلـــه
أنـــا أرعـــاه مكـــرها وبقلـــبى مـــنه مـــا يقلـــق الجـــبال أقلـــه
فهـــو مـــثل المشـــيب أكـــره مـــرآ ه ولكـــــن أصـــــونه وأجلـــــه

وكانـت صفة (البخل) إحدى الصفات التى أكثر الشعراء من تناولها فى قصـائدهم ، ومما يوضح كثرة هجاء الأندلسيين بهذه الصفة ما ذكره المقرى نقلاً عـن ابـن سعيد فى وصفه لأخلاق أهل الأندلس وعاداتهم فقال[2] : " وهم أهل احتـياط وتدبـير فـى المعاش وحفظ لما فى أيديهم خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسـبون للـبخل ، ... ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل ، فآوينا إليها ، وكنا على حال ترقب من السلطان وخلو مـن الرفاهية ، فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة متقدمة ، فقال لـنا : إن كـان عـندكم مـا أشترى لكـم فحمـاً تسـخنون بـه فـإنى أمضـى فى حوائجكـم، وأجعـل عـيالى يقومـون بشـأنكم ، فأعطيـناه ما اشترى به فحماً ، فأضـرم نـاراً ، فجـاء ابـن له صـغير ليصـطلى ، فضربه ، فقال له والدى : لم ضـربته ؟ فقـال : يتعلم استغنام مال الناس ، والضحر للبرد من الصغر ، ثم لما جـاء الـنوم قـال لابنه : أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدهما على ثيابه ، فدفع كسـاءه إلى ، ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبى منتبهاً ويده فى الكساء، فقلـت ذلك لوالدى ، فقال هذه مروءات أهل الأندلس وهذا احتياطهم ، أعطاك الكسـاء ، وفضلك على نفسه ، ثم فكر فى أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لـص ، فـلم يطـب له مـنام حـتى يـأخذه كساءه خوفاً من انفصالك بها ، وهو نائم، وعلى هذا الشىء الحقير فقس الشىء الجليل " .

---

[1] نفح الطيب ٢ / ١٣٤ .

[2] نفسه ١ / ٢٢٣ .

وكان هذا الحرص الذى أشار إليه ابن سعيد مدعاة لاستثارة قرائح الشعراء ، فأكثروا من إلحاق صفة البخل بمهجويهم ورسموا لهم كثيرا من الصور الساخرة ، فمن ذلك قول الغزال : [1]

قصدت بمدحى جاهداً نحو خالد — أؤمل من جدواه فوق منائى
فلم يعطنى من ماله غير درهم — تكلفه بعد انقطاع رجائى
كما اقتلع الحجام ضرساً صحيحة — إذا استخرجت من شدة ببكاء

ويصم سعيد بن الفرج الرشاش مهجوه بهذه الصفة فيقول : [2]

إنك لا تعرف الجميل ولا — تفرق بين القبيح والحسن
إن الذى يرتجى نداك لكالحا — لب تيساً من شهوة اللبن

ويعبر محمد بن شخيص عن خيبة رجائه فيمن قصدهم راغباً فى عطائهم فيقول : [3]

قست بالشعر معشراً فإذا هم — صور الإنس فى طباع الحمير
كلما جئتهم لأنشد شعرى — طمعاً من نوالهم باليسير
فكأنى وضعت فلكة بوق — فى فمى أو ضغطت أنبوب كير

وللمخزومى الأعمى غير قصيدة يهجو فيها بنى سعيد ويرميهم بالبخل ، وقد ذكر ابن سعيد أن جده عبد الملك كان كثير الإحسان له مستحفظاً من لسانه، وبعد ذلك فما سلم من ذاته ، ومن هجائه فيهم قوله : [4]

لا ترجون بنى سعيد للندى — فالظل أفيد منهم للسائل
فلقد مررت على منازلهم فما — أبصرت منها غير بعد منازل
قوم مصيبتهم بطلعة وافد — وسرورهم أبداً بخيبة وافد

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٠ .
(2) نفسه ص ٢٤١ ٢٤٢ .
(3) نفسه ص ٢٤٢ .
(4) المغرب ١ / ٢٣١ .

وفيهم يقول وقد أسخنوه جوارهم :[1]

أبني سعيد قد شقيت بقربكم   فلتتركوني حيث شئت أسير
أفني المدائح فيكم لا وعدكم   يقضي ، وقلبي في المطال أسير
أعطيتم نزراً على طول المدى   ويقول وغد : إنه لكثير
ولشد ما عرضتموني للعنا   فرس عتيق عاشرته حمير
فإذا صهلت غدا النهاق مجاوبي   يا رب أنت على الخلاص قدير

واصطنع بعض الشعراء طريقة القدماء في تناولهم هذه الصفة كقول ابن المرعزى النصراني :[2]

نزلت في آل مكحول وضيفهم   كنازل بين سمع الأرض والبصر
لا تستضيء بضوء في بيوتهم   لو لم يكن لك تطفيل على القمر

وقد نظم الشعراء مقطعات كثيرة في التندر بالبخلاء سنعرض لها في حديثنا عن هجاء التندر والسخرية .

هجاء الأهل والأقارب :

اتجه الشعراء الهجاءون إلى هذا الضرب من الهجاء الذي يكشف عن بعض جوانب الخلل والقصور في علاقة الأزواج بزوجاتهم أو الآباء بأبنائهم فهو المظهر السلبي لما ينبغي أن تكون عليه الأواصر الاجتماعية التي تقوم علىأسس من المودة والرحمة ، ونلاحظ أن أغلب نماذج الهجاء التي تتصل بهذا الموضوع نظمها شعراء تقوم شهرتهم على فن الهجاء ، كالأعمى المخزومي ، وابن حزمون وابن صارة الشنتريني ، وعلى بن بسام وغيرهم .

ونجد بعض هؤلاء الشعراء ينظمون شعراً في هجاء زوجاتهم ، فنرى ابن صارة الشنتريني يهجو زوجته بعد أن طلقها فيثني على الزمان الذي أسدى

---

[1] نفسه ١ / ٢٣١ .

[2] خريدة القصر ٢ / ٩١ .

إليه هذا الصنيع ، ويرميها بالنفاق والخبث ، ويشبهها بالذئبة كما يشبهها بالحية الرقشاء . فيقول : [1]

أما الزمان فرق لي من طلة [2] كانت تطل دمي بسيف نفاقها
الذئبة الطلساء عند نفاقها والحية الرقشاء عند عناقها

وارتبط بهذا الاتجاه — أعني هجاء الزوجات — اتجاه آخر يرمي إلى هجاء المرأة عموماً والانتقاص من شأنها . وتقوم معانيه على نقيض المعاني التي تداولها شعراء الغزل ، فيذم الشاعر طيف محبوبته بدلاً من أن يمني نفسه بزيارته ، ويجد في فتور ألحاظها شيئاً منفراً لأنه أصاب أعضاء جسده بالفتور ويزري بصفات المرأة ، فيرى أن الجيفة تستقذر رائحة أنفاسها الكريهة ، وأن ما تتخذه من الحلي وأدوات الزينة إنما هي شهادات زور تحاول أن تغطي بها قبحها ودمامتها ، وغالباً ما يصوغ الشاعر أبياته في أسلوب هزلي وكأنه يتقيل منهاج ابن الحجاج شاعر بغداد الذي عرف باتجاهه الهزلي الساخر ، ونستطيع أن نجد هذه المعاني التي أشرنا إليها في قول محمد بن مسعود — وهو من شعراء الذخيرة : [3]

ما زارني طيفك يا هذه إلا تمنيت بألا يزور
فتور ألحاظك ذاك الذي أعار أعضائي هذا الفتور
وقدك المائس فوق النقا قد فؤادي الهائم المستطير
كم قائل : صفها لنا واختصر ولا تطول ، قلت شمس القدور
قيل وزد ، قلت لهم إنها في سعة مثل الدنا والبحور
تستقذر الجيفة أنفاسها وتجعل الفسو مكان البخور
للكحل والغمرة في وجهها والطيب والزين شهادات زور
فقراء شقراء على سمرة فهل ترى يا سيدي من فطور ؟!

---

(1) الذخيرة ٣ / ٢ / ٨٤٤ .
(2) الطلة : الزوجة .
(3) الذخيرة ١ / ١ / ٥٥٧ ، ٥٥٨ .

ويرسم يحيى بن الحكم الغزال هذه الصورة المزرية لإحدى النساء فيقول :[1]

جرداء صلعاء لم يبق الزمان لها إلا لساناً مُـلحّاً بالملامات
لطمتها لطمة طارت ؛امتها عن صلعة ليس فيها خمس شعرات
كأنها بيضة الشارى إذا برقت بالمأزق الضنك بين المشرفيات
لها حروف نوات فى جوانبها كقسمة الأرض حيزت بالتخومات
وكاهل كسنام العيس جرده طول السفار وإلحاح القتودات

ويصور أحمد بن نعيم إحدى النساء تصويراً هزلياً ساخراً يذكرنا بصور ابن الرومى فيقول :[2]

كأن كلتا صفحتى وجهها ركبتا من كوبتى نافخ[3]
لو كنت نبتا كنت من حرمل أو أكلا كنت من الكامخ[4]

أما ابن خفاجة فهو يهجو ذلك الصنف من النساء اللائى يتسترن بالزينة والحلى لإخفاء أخلاقهن وطباعهن الرديئة الشاذة ، يقول :[5]

ألا بكى الدر فوق حالية حلى بها العقد شر ما حلى
ترى بها ما يمر من خلق مخبأ تحت منظر يحلى
قد راق مرأى وساء مختبراً فهل ترى أزهرت بها دفلى

ولم يتورع بعض الشعراء عن هجاء آبائهم وأبنائهم وإخوتهم على شاكلة على بن بسام الذى يصفه صاحب الذخيرة بأنه " كان باقعة زمانه ، لم يسلم

---

[1] التشبيهات ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

[2] نفسه ص ٢٤٦ .

[3] الكوبة : الطبل الصغير . ولعله أراد بها هنا آلة موسيقية تنفخ بالفم .

[4] الحرمل : نبت كالسمسم ، يمتنع على الأكلة وفى ذلك يقول طرفة : (هم حرمل أعياء على كل آكل) . والقامخ نوع من الإدام يتعيفه الأعراب (هامش التشبيهات ص ٢٤٦) .

[5] ديوان ابن خفاجة ص ١٥١ .

مـن هجائـه أمير ولا وزير من أهل بيته صغير ولا كبير " [1] وقد اشتهر بهجائه المقذع فى أبيه وأخيه مما جعل ابن بسام يحجم عن ذكره .

ونجـد الأعمـى المخـزومى يهجو ابنه هجاء حاداً ، فينعته بجلافة الطبع وكلال الذهن وسوء الخلق ويتندر عليه فى أسلوب لاذع فيقول : [2]

الحـق أبـلج لـيس أنـت وحـق مـن	أحـيابك الأجـلاف ممـن يفـلح
لا تهـتدي بفضـيلة ، لا تـرعوي	بملامـة ، لا أنـت ممـن يصـلح
يـزداد عقلـك مـا كـبرت تناقصـاً	وتـلج فـي صـمم إذا مـا تنصـح
أكـل وسـلح كـل حـين لا تـرى	لسـواهما مـا دمـت حـياً تطمـح
أسخنت عين المجد يا ابن عميرة	ولقـد تقـر عـيونه لـو تذبـح

وشـارك النـثر فـى هذا النوع من الهجاء ، فأبو عبد الله محمد بن مسعود يكتّـب رسـالة هزلية يـتهكم فـيها بابنه إذ توجه إلى المغرب ، وقد بلغه خلع عـذاره فـى البطالة والشرب يركب فيها طريقة الجاحظ فى السخرية ويحاكيه فى رسالة التربيع والتدوير فيقول [3] : " فأخبرنى يا تاجر البحرين ، وسمسار العراقين ، ودليل الحجازين ، وخريت الفلاتين ، وابن عظيم القريتين ، أتعس بك من خراج ولاج ، ماض على السرى والإدلاج ... وصف لى موقع الشمس فى العين الحمئة ، وكيف كان مخلصك من تلك البلاد الوبئة ، وكيف رأيت مدينة يونـس وجـنة إرم ، والـبركان المؤنـس وجزيـرة الغـنم ، وكـيف كان دكك على المجوس ، بضروب الشعوذة والناموس ... " .

هجاء المظاهر الحضارية :

إذا كـان الشـعراء قـد أقبلوا عـلى وصـف المظاهـر الحضـارية وتغـنوا بـها باعتـبارها مسـتحدثات جديدة ساهمت فى إسعاد الناس ، وإدخال البهجة إلى نفوسـهم ، فـإن فـريقاً آخـر مـن الشعراء لم ترق له بعض هذه المظاهر . فأظهر

---

[1] الذخيرة ١ / ١ / ص ١٤٣ .
[2] المغرب ١ / ٢٢٩ .
[3] الذخيرة ١ / ١ / ص ٥٥٠ وما بعدها .

إزاءها روح العداء والكراهية . على شاكلة أبى الحسن مختار بن عبد الرحمن الرعينى الذى يصب لعناته على الحمام حين زاره يوماً فجلس شخص من جهال العامة إلى جانبه ، وأساء عليه الأدب ، فقال : [1]

ألا لُعن الحمام داراً فإنه ... سواء به ذو الجهل والعلم فى القدر
تضيع به الآداب حتى كأنها ... مصابيح لم تنفق على طلعة الفجر

وعبر الشعراء عن كراهيتهم لبعض الأطعمة كقول المنفتل فى هجاء المرقاس : [2]

لا آكل المرقاس دهراً لنا ... وبل الورى فيه قبيح العيان
كأنما صورته إذا بدت ... أنامل المصلوب بعد الثمان

وسلك بعض الشعراء مسلك ابن الرومى فى ذم الورد ، فمن ذلك قول ابن خفاجة : [3]

ألا قل لذات الخال عنى إنى ... لأرغب عن خال تطلع فى خد
وزهدنى فى ذلك الخال نسبة ... أراها لخال الخد من جعل الورد

ونظم الشعراء مقطعات فى هجاء الخدم والعبيد والسقاة ، كقول ابن خفاجة فى أسود وجهه فى حاجة فأبطأ : [4]

قبحت من أسود غبى ... لا يفهم الوحى حين يوحى
أبطأ فى سعيه فحاكى ... فى حالتيه غراب نوح

ويقول الأسعد ابن إبراهيم بن بليطة فى ساق أسود : [5]

---

[1] المغرب ٢ / ٢٠٧ .
[2] الذخيرة ١ / ٢ ص ٧٥٨ والمرقاس أو المركاس نوع من النقانق يدق اللحم ويعرك فى قصعه بشىء من الزيت ثم يضاف إليه ثلاثة أرباع من الشحم ويحش به المصران ويقلى ثم تصنع له مرقة من خل وزيت . انظر كتاب الطبيخ ص ٢١ نقلا عن هامش الذخيرة ١ / ٢ / ص ٧٥٨ .
[3] ديوان ابن خفاجة ص ١١١ .
[4] خريدة القصر ٢ / ١٦٣ .
[5] الذخيرة ١ / ٢ / ص ٧٩٦ .

يـــا رب زنجـــى لهــوت بـــه	الشـــمس عـــند ســناه ممقوتـــه
محــــدودب قـــد غـــاب كاهلـــه	فـــى منكبـــيه فـــلا تـــرى ليـــته
قـــد حكـــم التجعـــيد لمـــته	فتراكمـــت فكأنهـــا توتـــه
وإذا ســـعى بالكـــأس تحســـبه	جعـــلا يدحـــرج فـــص ياقوتـــه
وكأنـــه والكـــأس فـــى يـــده	نجـــم رمـــى فـــى الجـــو عفريـــته

ووجه الشعراء سهامهم إلى المغنين والمغنيات ، وأكثروا من هجاء زرياب ، فانقطع لهجائه مؤمن بن سعيد ويحيى بن الحكم الغزال . الذى هجاه هجاء مقذعاً أغضب عبد الرحمن الأوسط فأمر بنفيه عن الأندلس ثم عاد وعفا عنه بعد توسط أكابر دولته ، وأغلب الظن أن هجاء الشعراء لزرياب يرجع إلى أسباب شخصية تتمثل فى حقدهم على المكانة التى حظى بها لدى الحكام ، ومما قاله فيه مؤمن بن سعيد : [1]

شكوت إليها الشوق لما تحملوا	شكاية محزون من البين جازع
وقالت وكف البين تمرى دموعها	ونار الهوى تهتاج بين الأضالع
ستصبر أو تبكى من الشوق مثلما	بكى الخز من إبطى على بن نافع[2]

وقال مؤمن أيضاً فى هجاء زرياب : [3]

تـــبارك مـــن أذل الخـــز حـــتى	تمعـــك فـــيه أفـــواه الكـــلاب
ومـــن جعـــل الغـــوالى ســـائلات	عـــلى أصـــداغ أســـود كالغـــراب

وقد أفرد الكتانى فى كتابه باباً فى هجو المغنيات . فمن ذلك قول أحد الشعراء : [4]

وقيـــــنة تدعـــــى بتفـــــتير	مفـــرغة فـــى قالـــب الـــزور
تـــبدو بوجـــه مـــا رآه امـــرؤ	إلا تمـــنى الـــنفخ فـــى الصـــور

---

(1) التشبيهات ص ٢٦٥ .
ـى بن نافع هو زرياب المغنى .
ـشبيهات ص ٢٧١ .
ـه ص ٢٤٦ .

كأنهـا والعـود فـى حجـرها　　حاسـبة تنـبى بمجـدور
لكعـاء مـن أحسـن حالاتهـا　　صـفع قفاهـا بالمسـاوير
وصـيدها الأعـراد فـى خلـوة　　ينسـيك مـن صـيد السـنانير
تـبأ لهـا مـن قيـنة عقـلها　　أخـف مـن ريـش العصـافير

ويمزج إسماعيل بن بدر بين هجائه لبخيل وهجاء مغنية فيقول :[1]

تـنفس لمـا لاحـظ القـوم خـبره　　وقطـب لمـا لامسـته الأصـابع
فقلنـا له إنا شبـاع فجـد لنـا　　بعـود فمـا فـى القـوم غيرك جـائع
فأسمعـنا درداء صـلعاء رجعـت　　بصـوت لهـا تسـتك مـنه المسـامع
فـوالله مـا أدرى كـلاب تهارشـت　　بحلقومهـا أم نقنقـت بـى ضـفادع

هجاء المدن :

وهـو اتجـاه قديم يرجع ظهوره إلى القرن الثانى الهجرى حيث وجد شعر فـى هجاء بغداد والبصرة وغيرهما ، وهو مقابل لاتجاه آخر فى مدح المدن [2] ، وكان ظهور هذا الاتجاه فى الهجاء الأندلسى امتداداً لوجوده فى الشعر المشرقى كمـا كـان ظهـوره " مرتـبطاً بواقـع الشعراء وحياتهم الاجتماعية ، فقد فرضت علـيهم ظروف العيش أن ينتقلوا من مدينة إلى أخرى ، وكان يحدث أحياناً أن يمـر الشـاعر بظـروف قاسـية فـى مديـنة مـن المـدن ، فيصـوب إلـيها سـهام هجائه".[3]

وقـد أكـثر الشـعراء مـن هجـاء المـدن الأندلسـية ، فلديـنا شعر فى هجاء إشـبيلية ومرسـية وشـاطبة والمـرية ورنـدة وشـريش وغيرها ، فمن ذلك قول ابن القاسم البطليوسى فى هجاء إشبيلية .[4]

يـا حمـص لازلـت داراً　　لكـل بـؤس وسـاحه

---

[1] نفسه ص ٢٤٥ .
[2] الشعر فى القرن الثانى الهجرى ص ٣١٠ وما بعدها .
[3] الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٢٢٩ .
[4] اختصار القدح المعلى ص ١٥٧ .

ما فيك موضع راحة ... إلا وما فيه راحه

واتجه بعض الشعراء إلى هجاء مدنهم كما فى قول أبى عبد الله بن ياسين الشاطبى يهجو مدينته : [1]

شاطبة قرية ضنينة ... ليست لمن أمها معينة
تهتضم الطيب اهتضاماً ... وتأنف الدهر أن تعينه
والخبث المحصن تصطفيه ... ضداً لما جاء فى المدينة [2]

ويلجأ بعض الشعراء فى هجاء مدنهم إلى طريقة التلاعب اللفظى بأسمائها أو تصحيف هذه الأسماء لإلصاق صفة مستقبحة بها كقول ابن رفاعة فى هجاء شريش : [3]

شريش ما أنت إلا ... تصحيف شر يبين
فارحل فديتك عنها ... إن كنت ممن تدين
فقلما ساد فيها ... حر ولا من يعين

وقد يركز الشعراء فى هجائهم للمدن على صفة مذمومة ألصقت بإحدى المدن واشتهرت بها كقذارة سكانها أو عدم نظافة أحيائها أو انتشار الأمراض والأوبئة فيها ، فمن ذلك قول السميسر يهجو مدينة (المرية) معرضاً بصفة عرفت بها وهى أن مرافقها مجلوبة ، وأن الميرة تأتيها من بر العدوة ، فيقول : [4]

بئس دار المرية اليوم دارا ... ليس فيها لساكن ما يحب
بلدة لا تمار إلا بريح ... ربما قد تهب أو لا تهب

ويصفها وصفاً مزرياً معرضاً بقذارتها فيقول : [5]

---

(1) زاد المسافر ص ١٣٧ .

(2) اشارة إلى الحديث القائل : " المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث " .

(3) المغرب ١ / ٣٠٦ .

(4) نفح الطيب ٣ / ٣٩٠ .

(5) نفسه ٣ / ٣٩٠ .

قــالوا المــرية فــيها نطافـــة قلـــت : إيـــه
كأنهــا طســت تــبر ويبصـــق الـــدم فـــيه

وقد يهجو الشاعر مدينة من المدن لوحشة انتابته فيها كقول أبى الفتح بن فاخر يهجو مدينة (رندة) :[1]

قــبحاً لـــرندة مثـــلما قبحـــت مطالعـــة الذنـــوب
بلـــد علـــيه وحشـــة مـــا إن يفارقـــه القطـــوب
مـــا حـــلها أحـــد فيـــه ـــــوى بعـــد بـــين أن يـــؤوب
لم آتهـــا عـــند الضـــحى إلا وخـــيل لى الغـــروب
أفـــق أغـــم وســـاحة تمـــلا القلـــوب مـــن الكـــروب

وقد ينصب هجاء الشاعر على أهل مدينة معينة ، كأن يصفهم بالجبن أو النذالة أو فساد الأخلاق أو سوء الطباع وما إلى ذلك من صفات مستهجنة كقول المخزومى الأعمى يهجو أهل مرسية :[2]

عـــلى أهـــل مرســية لعـــنة تعـــم الديـــار وأربابهـــا
فمـــا غلقـــت قـــط مـــذ فتحـــت عـــلى فاضـــل الطـــبع أبوابهـــا
كـــلاب تهـــر إلى شـــاعر وتكشـــف للشـــر أنـــيابها

ويحتفظ بن بسام بقصيدة لأبى عامر بن الأصيل تعد أطول ما بأيدينا من القصائد التى قيلت فى هجاء المدن . وفيها لا يركز الشاعر هجاءه على مدينة بعينها ، كما رأينا عند أضرابه من الشعراء . بل يهجو كثيراً من المدن مثل باجه وشلب وشنتمرية وغيرها من مدن الثغور والسواحل التى طاف بها سعياً وراء رزقه ولكنه لم يظفر منها بطائل ، ويعبر عن تجربته المريرة التى صادفها فى تلك المدن ، ويذم حظه العاثر الذى قاده إليها . ويلحق الصفات المعيبة

---

(1) المغرب ١ / ٣٣٤ .
(2) زاد المسافر ص ١١٨ .

بأهلها ، فيصفهم بأنهم أوغاد . رعاع ، ويرميهم بالخزى والعار ، ويتهمهم بالجبن ، والبخل . فيقول : [1]

إلى أيـــن الفـــرار ولا فـــرار ... ومـــن لى بالقـــرار ولا قـــرار
أرى الأوغـــاد يعـــتمرون دورا ... ومـــالى فـــى بـــلاد الله دار
أجـــول فـــلا أرى إلا رعاعـــاً ... كـــبارهم إذا اختـــبروا صـــغار
أباحـــة لا وقـــاك الله شـــراً ... فـــأهلك أهـــل مفســـدة شـــرار
أشـــلب لا جـــزاك الله خـــيراً ... فـــلا خـــير لديـــك ولا خـــيار
أشـــنتمر يـــة قبحـــت داراً ... كـــؤوس المخـــزيات بهـــا تـــدار
أشـــلطيش ألا غـــرق وشـــيك ... تمـــوج عـــلى لـــراك بـــه الـــبحار
أأونـــبة تعدتـــك الغـــوادى ... ولا هطلـــت بســـاحتك القطـــار
بـــلاد عريـــت مـــن كـــل خـــير ... فملـــبس أهـــلها مقـــت وعـــار
غلطـــت فـــزرتها فرأيـــت قومـــاً ... مـــنازلهم وإن عمـــرت قفـــار
تـــرد عـــلى أشـــعارى ويجفـــى ... رســـولى ، والنـــباهة لى شـــعار
شـــتوت بهـــا عـــلى كـــره فنطـــى ... عـــلى جـــدى ومعرفـــتى الغـــبار

ولم يكتف الشعراء الأندلسيون بهجاء مدنهم بل اتجهوا بهجائهم إلى مدن أخرى غير أندلسية ، فنجد أبا الحسن ابن الإمام الغرناطى كاتب الأمير تميم ابن يوسف بن تاشفين ينظم شعراً فى هجاء مراكش حاضرة الأندلس خلال حكم المرابطين والموحدين ، فيعرض بجوها الكدر ، ومياها الآسنة ، كما يعرض بخيانة بعض سكانها . [2]

---

[1] الذخيرة ٣ / ٢ / ٨٦١ .
[2] نفح الطيب ٤ / ص ١٢ .

الفصل الخامس

هجاء التندر والسخرية

- التندر بالمؤدبين والقضاة والنجلاء
- هجاء الذات
- العيوب الخلقية
- الرسالة الهزلية لابن زيدون

نقصد بهجاء السخرية والتندر هذا الضرب من الهجاء الذى لا يصدر فيه الشاعر غالباً عن حقد أو سخط ، وإنما يعمد فيه إلى العبث بأحد الأشخاص وإظهاره فى صورة هزلية على سبيل التندر والدعابة والظرف ، وهو لون من ألوان التسلية وإزجاء الفراغ ، وإثبات القدرة على التصوير والإضحاك ، وهو بهذا المعنى نتاج الترف الحضارى .

ويعتمد هذا الهجاء على الطرفة أو النكتة أو الصورة المضحكة ، وقد شاع هذا الضرب من الهجاء فى الأندلس ، حتى لقد رأى الأستاذ غرسيه غومس أن الهجاء الأندلسى أصبح آخر الأمر مجرد تصوير فكه لاذع .[١]

وقد أعان على ذيوعه أسباب متعددة ، يرجع بعضها إلى البيئة الأندلسية المتحضرة بما شاع فيها من لهو وفراغ وميل إلى الدعابة والتظرف ، كما يرجع بعضها الآخر إلى طبيعة الأندلسيين أنفسهم الذين جبلوا على خفة الظل وكلفوا بالمزاح ، وقد أشار إلى ذلك المقرى فقال :[٢] " ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة فى محاوراتهم وأجوبة بديهية مسكتة ، والظرف فيهم والأدب كالغريزة "[٣] ، كما أشار إلى هذه الظاهرة الشقندى فى رسالته حين تحدث عن وادى إشبيلية فوصفهم بقوله :[٤] " وأهله أخف الناس أرواحاً ، وأطبعهم نوادر ، وأحملهم لمزاح ، بأقبح ما يكون من السب ، فقد مرنوا على ذلك فصار لهم ديدناً ، حتى صار عندهم من لا يتبذل فيه ولا يتلاعن ممقوناً ثقيلاً " .

وتحفل مصادر الأدب الأندلسى بكثير من النوادر والطرف التى تدل على تأصل روح المزح والدعابة عند الأندلسيين ، ولم يخل عصر من عصور الأندلس من شعراء يتصفون بهذه الصفة ، وحظيت فترة الخلافة بطائفة من الشعراء العابثين على شاكلة القلفاط والغزال ومؤمن بن سعيد وابن الشمر ، وكان القلفاط

---

[١] الشعر الاندلسى ص ٦١ .
[٢] نفح الطيب ٣ / ٦١ .
[٣] نفسه ٣ / ٦١ .
[٤] نفسه ٣ / ٢١٢ .

ذا ولع بالمؤدبين يعبث بهم . وكان الغزال . ومؤمن بن سعيد لا يدعان فرصة من العبث تفوتهما ، وكثير ما يكون ضحاياهما من القضاة أنفسهم "[1]

وكان القاضي (يخامر) ضحية عبث هذه الطائفة من الشعراء الذين تندروا كثيراً بتصرفاته وسخروا مما عرف عنه من بله وغفلة ، فمن ذلك ما أشيع من أنه كان بين سحياته سحاءة مكتوب فيها : " (يونس بن متى والمسيح ابن مريم) وخرجت السحاءة إلى يخامر ، فأمر أن يدعى بهما ، فهتف الهاتف (يونس بن متى والمسيح بن مريم !) فصاح ابن الشمر : نزولهما من أشراط الساعة ، ثم أخذ سحاءة فكتب فيها :[2]

يخامر ما تنفك تأتي بفضحة	دعوت ابن متى والمسيح ابن مريما
بما قلت حيناً ثم ناداك صائح	فإنهما بقى على الأرض فاعلما
قفاك قفا خربا ووجهك مظلم	وعقلك ما يسوى من البعر درهما
فلا عشت مودوداً ولا عشت سالماً	ولا مت مفقوداً ولا مت مسلما

ويذكر الخشني أن " القاضي يخامر حين ولى القضاء عامل الناس بخلق صعب ، ومذهب وعر ، وصلابة جاوزت المقدار ، فلم تحتمل له العامة ذلك ، فسلطت عليه الألسن وكثرت فيه المقالة "[3] ، وكان يحيى بن الحكم الغزال أكثر الشعراء تندراً بهذا القاضي وذماً له . ومن شعره فيه قوله :[4]

فسبحان من أعطاك بطشاً وقوة	وسبحان من ولى القضاء يخامرا

وتهكم عليه في قصيدة أخرى فقال :[5]

لقد سمعت عجبياً	من آبدات يخامر
قرا عليه غلام	طه وسورة غافر

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص ١١٨ .
[2] قضاة قرطبة ص ٥٤ - ٥٥ ، المقتبس (تحقيق د. مكي ص ٢٠١) .
[3] قضاة قرطبة ص ٥٤ .
[4] نفسه ص ٥٤
[5] المقتبس (تحقيق د. مكي) ص ٢٠١ .

فقـــال : مـــن قـــال هـــذا ؟	هـــذا لعمـــرى شـــاعر
أردت صـــــفع قفـــاه	فخفـــت صـــولة جائـــر
أتيـــت يومـــاً بتـــيس	مســـتعبداً متجاســـر
فقلـــت قومـــوا اذبحـــوه	فقـــال : إنـــى يخامـــر !

ويذكر الخشنى أيضاً أن مؤمن بن سعيد القيسى كان " كثير التندر والتهكم حاد الجواب ، لاذع التعليقات ، يتتبع زلات الناس ، ويكثر من الهجاء ، وينبز خصومه بالألقاب التى تدور على الألسنة بسرعة .. وكان له مجلس يقرىء فيه شعر أبى تمام ويدرس الأحداث بجامعة قرطبة ، وعلى مقربة منه مجلس القاضى ، وكان مؤمن عارفاً بما يجرى من أمور فى مجالس القضاة ، فكان كثير العبث بهم ، وأكثر من مداعبة القاضى قبعة عمرو بن عبيد الله والتعريض به وإضحاك الناس بذلك "[1] .

ويحتفظ الزبيدى فى طبقاته ببعض نوادر القلفاط مع المؤدبين والأعيان والشعراء ، فيذكر أنه أكثر من هجاء أحد الأشخاص ، وضاق الرجل بتعريضه ، فأخذ سكيناً وذهب إليه فى داره ، وعندما رآه القلفاط وأحس بالشر فى عينيه عمد إلى مصلاه واستقبل القبلة ، ودخل فى الصلاة ، وأطال فيها ، فأمسك عنه الرجل ، وقال : يا فاسق ، والله لولا أنك عذت بمعاذ للقيت الله بدمك ، فإنك زنديق حلال الدم . "[2]

ويروى أن القلفاط بات ليلة عند أحد أصدقائه حتى تبلج الصبح وكادت الشمس تطلع عليهما ، فانتبه القلفاط ، فقال مخاطباً صديقه :[3]

يـا ديـك مـالك لم تصـرخ لتنبهـنا	لقـد أسأت بـنا ديـك الدجاجـات
يـا آكـلا للقـذى ، يـا سـالحاً عبـثاً	عـلى الحصـير بهـيمى البهـيمات

---

[1] قضاة قرطبة ص ١٠٤ ١٠٥ .

[2] طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

[3] طبقات الزبيدى ص ٣٠٠ .

فأجابه صديقه

لقد صرخت مراراً جمة عدداً | قبل الصباح وبعد الصبح تارات
لكن علمتك نوامـاً وذا كسل | قليل ذكر لجبار السموات

وساعدت حلقات المؤدبين ومجالس الأنس والسمر على انتشار هذا اللون من الهجاء الذى يقوم على التفكه والدعابة ، فمن ذلك ما ذكره المقرى من أن أبا عامر التيارى أنشد يوماً فى حلقته أبيات ابن الرومى التى نظمها فى خباز وهى :

إن أنس لا أنس خبزاً مررت به | يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة | وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة | فى صفحة الماء يرمى فيه الحجر

فقال بعض تلامذته : أما أنه لا يقدر على الزيادة على هذا ، فقال :

فكاد يضرط إعجاباً برؤيتها | ومن رأى مثل ما أبصرت منه خرى

فضحك من حضر وقال : البيت لائق بالقطعة ، لو لا ما فيه من ذكر الرجيع ، فقال : (1)

إن كان بيتى هذا ليس يعجبكم | فعجلوا محوه أو فالعقوه طرى

ويذكر صاحب (زاد المسافر) أن المخزومى الأعمى دخل مرسية فهجا بها القاضى أبا محمد عاشراً بقطعة منها :

تأملت تسعة رهط الفساد | فألفيت عاشرهم عاشرا

فضاق به ذرعه ، فقال فيه أحد طلبة مرسية :

إن مخزوميكم رجل | ألف الأعواد من صغره
لو أننى كحلت أسفله | لانجلى عنه عمى بصره

---

(1) نفح الطيب ٢ / ١١١ .

فكان الصبيان يقولون له : أتحتاج كحلاً يا أستاذ ؟ فكان ذلك سبب انتقاله من مرسية .[1]

وقد راج هجاء التندر والدعابة في أوساط الشعراء والأدباء ، فالعتبى يداعب الرصافي ويسخر من بغلته التي لا تقدر على السير فيقول :[2]

هالكـــة يركـــبها هـــالك يعجـــب رائـــيه ورائـــيها
تضـــعف إن تشـــحج إلا كمـــا بـــين مضـــنى الـــنفس شـــاكيها
يمشـــى بهـــا الجهـــد رويـــداً كمـــا يهـــدى عـــروس الحـــى مهديهـــا

ويتندر سعيد بن العاص بثوب أحد أصدقائه فيقول :[3]

وثوبـــه فـــى ســـالف الـــزمان خلعـــة فـــرعون عـــلى هامـــان
أفـــنى اللـــيالى وهـــو غـــير فـــان حـــتى غـــدا كـــالإفك فـــى العـــيان

فهو عليه وهو كالعريان

ووجد الشعراء في البخلاء والطفيليين مادة خصبة للتندر مثل قول ابن نصر القرطبى[4] :

يـــا أيهـــا الخـــارج مـــن بيـــته وهاربـــاً مـــن شـــدة الخـــوف
ضيفـــــك قـــد جـــاء بـــزاد لـه فـــارجع تكـــن ضـــيفاً عـــلى الضـــيف

ويتندر ابن رضوان المالقى بأحد البخلاء فيقول :[5]

وبخـــيل لمـــا دعـــوه لســـكنى مـــنزل بالجـــنان ضـــن بذلـــك
قـــال لى مخـــزن بـــدارى فـــيه كـــل مـــالى فلســـت للـــدار تـــارك
قلـــت وفقـــت للصـــواب فحـــاذر قـــول خـــب مرغـــب فـــى انـــتقالك
لا تعـــرج عـــلى الجـــنان بســـكنى ولـــتكن ســـاكناً بمخـــزن مـــالك

---

(1) زاد المسافر ص ١١٩ .
(2) التشبيهات ص ٢٦٢ .
(3) التشبيهات ص ٢٥٢ .
(4) جذوة المقتبس ص ٣٥٦ .
(5) نفح الطيب ٦ / ١١١ .

ورسم الشعراء صورا كثيرة لمظاهر البخل عند بعض الناس ، وتندروا كثيرا بموائدهم وأطعمتهم على نحو يذكرنا بأحاديث الجاحظ فى كتاب البخلاء ، فمن ذلك هذه الصورة الساخرة لأحمد بن محمد بن فرج : [1]

فعل اللئيم وليته لم يفعل ... وأتى بفعل مثله لم يجمل
ذبح الضفادع فى الصنيع ولم يدع ... للنمل جارحة ولا للقمل
وضع الطعام فلو علته ذبابة ... وقعت لتكمل شبعة لم تكمل
وكأنما خرطت صحاف طعامه ... - من دقة ودمامة - من خردل
وكأن فترة صحفة عن صحفة ... فى البعد والإبطاء فترة مرسل

ويتندر ابن وهيب بمائدة صنعها أحد البخلاء فيقول : [2]

ومائدة جسمها لطفه ... يدل على صفقة خاسرة
فتلك لنا قد غدت دائرة ... ونحن عليها نرى دائرة

ويركب ابن عبد ربه هذه الطريقة فى السخرية والتندر فيقول : [3]

طعام من لست له ذاكراً ... دق كما دق بأن يذكرا
لا يفطر الصائم من أكله ... لكنه صوم لمن أفطرا

وسخر الشعراء من الطفيليين الذين يقحمون أنفسهم فى الحفلات وموائد الطعام ، فمن ذلك قول ابن فرح فى طفيلى يدعى بابن الإمام وفى أشياعه : [4]

أفديك من متوجد غضبان ... حتى يلوح له ضباب دخان
يقتاده شم القتار بأنفه ... مثل اقتياد النجم للحيران
وعلا الدخان بشنت بولة مربياً ... ينبيه أين مطابخ الإخوان
فترى الإماميين حول ركابه ... كالخيل صائمة ليوم رهان
لو يسمعون بأكلة أو شربة ... بعمان أصبح جمعهم بعمان

---

[1] المقتبس (تحقيق د. مكى) ص ١٧٥ - ١٧٦ .
[2] التشبيهات ص ٢٣٣ .
[3] نفسه ص ٢٤٤
[4] نفسه ص ٢٤٤ ٢٤٥ .

رار الفتى القرشى لا لتعهد | منه ولا شوق إلى لقيان
حتى إذا وضع الخوان تساقطوا | بهما عليه تساقط الذبّان
ورأيته من بينهم متخمطاً | فى لقمة كتخمط السكران
لم ينصرف إلا وفى أكمامه | حمل وفى أعفاجه حملان
وأحو لقيف فر منه قاصداً | جيان لو أبت قرى جيان
لو حل فى نجران لم يبعد على | عزمات نيته مدى نجران
كالموت تسعى فى التخلص جاهداً | منه وتلقاه بكل مكان

وتندر الشعراء بالألقاب المضحكة أو الشاذة كقول ابن رضوان المالقى فى رجل يلقب بالبعير :[1]

وذى لقب عنت له عند صحبه | مآرب لم يسعد عليهن مسعد
دعوه بعيراً فاستشاط فقال مه | أبا أحمد ، وارتد عنهم يهدهد
فقلت له عد نحوهم لتعود من | مرامك بالمطلوب توفى وتحمد
فقال وقد غص الفضاء بصوته | وقد هدرت منه الشقاشق تزيد
لئن عدت نادونى بعيراً كمثلها | فقلت له لا تخش فالعود[2] أحمد

ووجد الشعراء فى بعض المؤذنين والقراء مجالاً للدعابة ، فتصيدوا أخطاءهم ، وتندروا بأصحاب الأصوات الغليظة منهم ، فمن ذلك قول سعيد بن حكم فى مؤذن سيىء النغمة :[3]

للأبدىّ آذان | لـلخمس فيه هوان
من أجله تتلاقى | آذاننا والبنان

ويذكر ابن سعيد أن أحد القراء غلط ليلة فى بعض قراءته فى التراويح فقال مكان (والزانى والزانية فاجلدوا كل واحد منهما إلى نهاية الآية) فانكحوهما ، فقال أحد الشعراء .[4]

---

[1] نفح الطيب ٦ / ١١ .
[2] يورى بكلمة (العود) وتعنى (البعير) أيضاً .
[3] اختصار القدح ص ٣٠ .
[4] المغرب ١ / ٣٣١ .

أبدع القارىء معنى | لم يكن في الثقلين
امر الناس جميعاً | بنكاح الزانيين

ويذكر المقرى أن ثلاثة شعراء صلوا خلف إمام مسجد قرية خارج مرسية فأخطأ في قراءته وسها في صلاته ، فلما خرج أحدهما كتب على حائط المسجد :[1]

يا خجلتي لصلاة | صليتها خلف خلف[2]

وكتب الثاني تحته :

أغض منها حياء | من المهيمن طرفي

وكتب الثالث تحته :

فليس تقبل منا | لو أنها ألف ألف

ويندرج تحت هذا الضرب من الهجاء الأشعار التى نظمها الشعراء فى هجاء أنفسهم ، وقد اشتهر بهذا اللون ابن حزمون الذى وصف بأنه كان صاعقة من صواعق الهجاء ، عاصر ابن عنين ، فكان هذا فى المشرق وهذا بالمغرب[3] ، كما وصف بأنه " أحد بواقع الدهر ، بذىء اللسان ، مقذع الأهاجى "[4] ، وقال عنه صاحب المعجب[5]: " إن له فى الهجاء يداً لا تطاول ، غير أنه يفحش فى كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة ، فقال فى هجاء نفسه :

تأملت فى المرآة وجهى فخلته | كوجه عجوز قد أشارت إلى اللهو
إذا شئت أن تهجو تأمل خليقتى | فإن بها ما قد أردت من الهجو

---

[1] نفح الطيب ٤ / ١٨ .
[2] الخلف : المتخلف الذى لا خير فيه .
[3] المغرب ٢ / ٢١٤ .
[4] الذيل والتكملة ٥ / ١ / ٢٤٠ .
[5] المعجب ص ٣٧٣ .

كــأن عــلـى الأزرار مــنى عــورة   تنادى الورى غضوا ولا تنظروا نحوى
فلو كنت ممن تنبت الأرض لم أكن   من الرانق الباهى ولا الطيب الحلو
وأقــبح مــن مــرآى بطــى فإنــه   يقرقــر مــثل الـرعد فــى مهمــه دوّ

ولـلمخزومى الأعمـى مقطعـة يهجـو فـيها نفسه ويلف الهجاء بالغزل لفاً حسناً فيقول : [1]

رب حســـناء كالغــزالة جــيداً   والــتفاتاً تــزرى بحــور الخلــود
كلمتــنى فطــار قلــبى إلــيها   وتزجيــت للظمـــاء ورودى
فتجافـت عـن منظرى ثـم قالـت   أتــرى الحــور واصــلات القــرود
لم ألمهــا عــلى الصـدود لأنــى   كنــت أهــلا مــن مثـلها للصــدود

وسبق الأعمى وابن حزمون شعراء آخرون إلى هذا اللون من الهجاء ، على شاكلة مؤمن بن سعيد الذى يقول [2]

فهــا أنــا قــد جئـت أحمــل لحية   إليك لها خطب وشأن من الشان
كــأنى تــيس قــد تطــاول عمــره   وأفــنى فنوناً مـن تـيوس وجديـان
ولى صاحب تحت السراويل فاسق   يقــود بعثنونى إلى كــل خسـران

واتخـذ بعـض الشـعراء مما يلبسون مادة للدعابة ، فتندروا بقدم ملابسهم وإخلاقها ، ولهم فى ذلك صور طريفة مثل أبيات ابن قلزم التى يقول فيها : [3]

وملبســى جــبة صــوف عفــت   تشــق فــيها الــرياح أو تفــتق
قــد رفيــت دهــراً وقــد رقعــت   والــتف فــيها الــزمن المخلــق
واختلفــت ألــوان أخــياطها   بالـــرفق والتلفـــيق إذ تافـــق
ســود وبــيض مــثل شــيب بــدا   فــى شــعرات ضــمها المفــرق

ويصف ابن هذيل طيلسانه فيقول [4]

---

[1] المغرب ١ / ٢٣١
[2] التشبيهات ص ٢٥١ .
[3] نفسه ص ٢٥١ .
[4] نفسه ص ٢٥٢

طيلساني طالر من نفس … هو فوسي غبش في غلس
والذي ألفه ألفه … من هواء فارغ أو نفس

العيوب الخلقية

وجد الشعراء في العيوب الخلقية عند بعض الناس مادة خصبة للتندر والدعابة ، فالتقطوا هذه العيوب مثل ضخامة الجسم أو احدودابه أو تضخم الأنف أو طوله أو تجدر الوجه ، وأبرزوها في صور كاريكاتورية ساخرة على نحو ما كان يفعل ابن الرومي ، فمن ذلك هذه الصورة التي يرسمها عبد الله بن كليت لأنف الزهري : [1]

أنفك يا زهري في قبحه … كأنه في صورة السبوق
يقعد في البيت لحاجاته … وأنفه يمضي إلى السوق

ويستغل المخزومي الأعمى صفة (الحول) عند أحد الأشخاص ويفتن في التعريض بها فيقول : [2]

خلا نجل إبراهيم ليلا بعرسه … فجامعها في ساعة الدبران
فجاءت به مأفون أشوه خلقة … كريم عجان لا كريم بنان
وتزورُ إحدى مقلتيه لأختها … كأنهما عنزان تنتطحان

ويلتقط ابن صارة صفة اتساع فم أحد الأشخاص وقبح ثناياه فيسخر منه سخرية لاذعة لا تخلو من إقذاع فيقول : [3]

أما الثنايا فإني لست منثنياً … عن الثناء عليها آخر الأبد
يبدو لطرفك منهاجين تبصرها … سن كمثل سن الصيقل الفرد
كأن جن سليمان بنوا فمه … بنيان تدمر بالصفاح والعمد
له فم كحر في شكل صورته … " ترمي غواربه العبرين بالزبد "

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٨ .
(2) خريدة القصر ٢ / ٢٥٦ .
(3) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .

ويشبه المخزومي الأعمى شخصاً أحدب بالقوس ويسخر منه سخرية مرة فيقول : [1]

وأحـــــــدب ليـــس له همة	ولا لـــذة فـــي ســوى فيشـة
يقـول أنـا القـوس فـي شـكله	فـلا تـنكروا الهـم فـي بدرتـي
فصــــولكم أبـــداً زائـــد	أفقحـــتكم تلـــك أم فقحـــتي

ولأبـي إسحاق بن خفيف صورة طريفة التقط مادتها من أحد المشاهد التى رآهـا حيـث قـبض عـلى أحدب – وهو مع صبى في خلوة – فضربا ، وطيف بهما ، والأحدب على عنق الصبى ، فقال في ذلك : [2]

رأيـــت الـــيوم محمـــولا	وأعجـــب مـــنه مـــن حملـــه
جمـــال الـــناس تحمـــلهم	وهـــذا حـــامل جملـــه

وتـندر الشعراء بضخامة الجسم ، فمن ذلـك مـا حكاه البياسي من أن شخصاً ضخم الجثة مستثقلاً دخل عليه في مجلس أنس فقال البياسى : [3]

أســـقني الكـــأس ضـــاحيه	ودع الشـــــيخ ناحـــــيه

فقال الكاتب أبو جعفر أحمد بن رضى :

إن تكـــــن ساقيـــــاً له	لـــيس تـــرويه ســـاقيه

ونظم الشعراء مقطعات كثيرة فى هجاء اللحى ، وتندروا بها وبحامليها ، ورسموا لها صوراً طريفة مثل قول عبيديس الكاتب : [4]

يـــا مـــن علـــيه للعـــلا تـــاج	إنـــى إلى اللحـــية محـــتاج
وعـــندكم فـــي وشـــقة لحـــية	بحمـــلها المـــائق حجـــاج
للـــثغر فـــي جانـــبها مســـرح	فـــيه مـــن الأنعـــام أزواج

[1] المغرب ١ / ٢٢٩ .
[2] نفح الطيب ٤ / ١٨ .
[3] نفسه ٣ / ٣٩٠ .
[4] التشبيهات ص ٢٤٩ .

ومــن صــنوف الطــير فــى بعضــها ... بـــــط وسمـــــان ودراج
يســيل مـــن شـــاربه فوقهـــا ... مـــلح غزيـــر القطـــر ثجـــاج
للـــبق فـــى عثــنونه مكمـــن ... ومـــن دبيـــب القمـــل أفـــواج
إذا مشـــى تبصـــر أفواجهـــا ... كأنهـــا فـــى الـــبحر أمـــواج
يعقدهـــا فـــى شـــعر وجعانـــه ... فهـــو إذا مـــا شـــاء صـــناج

وقد شارك الزجل فى التندر بأصحاب اللحى ، بل لعله كان أقرب من الشعر فى التعبير عن هذه الناحية ، لأنه يخاطب جمهور العامة ، وكذلك فهو أدعى إلى الذيوع والرواج ، وأعلق بالأفواه والأذهان ، ولابن قزمان زجل يسخر فيه من أحد أصحاب اللحى ، وفيه يقول : [1]

مـــن نـــتف وشـــقرف ... أفـــزع أنـــت عـــنو
وآش تعمــــل بواحــــد ... مـــالو خـــير فـــى ذقـــنو ؟
قـــد اصـــبح نعـــثر ... فـــى شـــى بـــردو يغـــلى
مذلــــل محـــــير ... ودقـــــنو تقـــــول لى
خلـــيه أنـــت واصـــبر ... وافـــرح لـــو بمثـــلى
هـــو يقلـــع وأنـــا اطلـــع ... ومـــــنى ومـــــنو
كـــم لـــيلة ضـــممتوا ... كالغـــزال الأحـــور
وشـــعروا لـــوا ســـطوا ... والخديـــد أحمـــر
والـــيوم صـــار فـــى دقـــنوا ... كـــنو تـــيس مصـــور
وهـــو التـــيس بعيـــنو ... وآش حاجـــه تكـــنو ؟

وقد راج هذا الهجاء الذى يقوم على الدعابة والإضحاك فى أوساط الأمراء والحكام ، بل إن بعضهم كان يشارك فيه على نحو ما يذكره الحميدى من أن الوزير سليمان بن واتسوس — أحد رؤساء البربر — كان أثيراً عن الأمير عبد الله ابن محمد ، فدخل عليه يوماً وكان عظيم اللحية ، فلما رآه جعل الأمير ينشد :

معلوقـــة كأنهـــا جوالـــق
نكـــداء لا بـــارك فـــيها الخـــالق

---

(1) عقود اللآل ورقة ٩٠.

للقمـــل فـــى حافاتهـــا فقـــانق
فـــيها لـــباغى المـــتكى مـــرافق
وفـــى احـــتدام الصـــيف ظـــل رائـــق
إن الـــــذى يحمـــــلها طـــــائق

وتقـول الـرواية إن الوزيـر الـبربرى لم يتسع صدره لهذه الدعابة فرد على الأمـير بقولـه : " إنمـا كـان الناس يرغبون فى هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم، وأما إذا صارت جالبة للذل،فلنا دور تسعفنا وتغنينا عنكم،ثم وضع يده فى الأرض وقام من غير أن يسلم،ونهض إلى منزله فغضب الأمير وأمر بعزله" [1]

ويذكـر المقـرى أن عـبد الـرحمن الناصـر جلـس ذات يـوم فى جماعة من خواصـه ومعهم أبو القاسم بن لب ، وكان يعده للمجون والتطايب ، فطلب منه أن يهجـو عـبد الملـك بـن جهـور -- أحد وزرائه -- فقال : أخافه ، فقال لعبد الملـك وزيره : فاهجه أنت ، فقال : أخاف على عرضى منه ، فقال الناصر : أهجوه أنا وأنت ، ثم قال :

لـــب أبـــو القاســـم ذو لحـــية — طويلـــة أزرى بهـــا الطـــول

فقال عبد الملك :

وعرضـــها كـــيلان إن كســـرت — والعقـــل مـــأفون ومخـــبول

فقال الناصر للب : اهجه فقد هجاك ، فقال بديها :

قـــال أمـــين الله فـــى عصـــرنا — لى لحـــية أزرى بهـــا الطـــول
وابـــن جهـــير قـــال قـــول الـــذى — مأكولـــــه القرضـــيل[2] والفـــول
لـــولا حـــيائى مـــن إمـــام الهـــدى — نخـــــت بالمـــنخس شـــو ...... [3]

---

[1] بغية الملتمس ص ٣٠١ .
[2] القرضيل : شوك له ورق عريض تأكله البقر .
[3] كلمة (شو) اسم لذكر الرجل بالرومية وكلمة (لولو) اسم للاست بها . فكأنه قال : لولا حيائى من إمام الهدى نخست بالمنخس الذى هو الذكر استه . نفح الطيب ٣ / ٦١٨ .

ثم سكت فقال له الناصر : هات تمام البيت . فامتنع ، فقال له (قولو) يعنى تمام البيت . وهى كلمة قالها الناصر مسترسلا غير متحفظ من زيادة الواو وإبدال الهاء الأخيرة واواً ، إذ صوابها (قله) على حكم المشى مع الطبع والراحة من التكلف ، فقال لب : يا مولانا ، أنت هجوته . ففطن الناصر والحاضرون إلى ذلك .[1]

ويحتفظ ابن بسام بأرجوزة مزدوجة خاطب بها الوزير (ابن بقية) على لسان جارية كان أهداها إليه ، وضاقت بها الحال عنده ، فقالت تسخر منه وترميه ببعض الصفات المعيبة كالقبح والبخل والفجور :[2]

إنـــى بـــالله وبالوزيـــر ... أدفـع مـا حـل مـن المحـذور
وهبتـنى لأوحـد مـنقطع ... فـى القبح والفقر خفـى الموضع
ولم يـبن لى بهـذا العيـب ... مـن فقره حتى دهـى بالشيب
جعلتـنى أسـيرة مملوكـة ... لطلعـة حالكـة صـعلوكه
يعزى علـى الفـال إلى مسعود ... وهـو شقى ليس بـالمحمود
كمـا يكـنى بـأبى البيضـاء ... أسـود كالسروة فـى الظـلماء
وكنـت أرجـو معـه للـراحه ... إذا لم يفـز بطـائل الملاحـه
إذا بـه أدخلـنى فـى شـغل ... لفـرط الإلمـام بسوق الغـزل
وقال لى إن كنت تهوين التحف ... والاكـل والشـرب وحلـة الطـرف
فانتـبهى وحكمـى الأصـابع ... واطـرحى عـن نفسك المطـامع
قـد كسـدت آدابـه والشـعر ... فمـا له عند البرايا قـدر
ألحـن فـى أشعاره مـن تـيس ... أعجـز فـى البيت مـن الضـريس
ولـو تـراه سـائراً للسـوق ... إذا بـدا فـى كسوة الغر نـوق
مشمراً فـى الطـين عـن ساقيه ... مـداولا عصـاه فـى كفـيه
يـأخذ فـى التعبير والإزهـاد ... منكمشـاً فـى طلعـة الصـياد
فمـرة يعطـى وألفـاً يمـنع ... ومـرة يمشـى وعشـراً يقـع
ولـو ترى يـاذا الـندى مـثواه ... لقلـت سـبحان الـذى أبـلاه

---

(1) نفح الطيب ٣ / ٦٦١٧ - ٦١٨ .
(2) الذخيرة ١ / ١ / ص ٥٥٣ – ٥٥٤ .

وعلى هذا النحو تمضى الجارية فى السخرية من صاحبها ، والإزراء به على نحو يذكرنا بطريقة ابن حجاج البغدادى فى الهزل والإحماض .

وينافس النثر الشعر فى هذا الضرب من الهجاء ، وبرع بعض الكتاب فى التندر والدعابة على شاكلة الأديب أبى عبد الرحمن بن طاهر الذى قال عنه ابن بسام : " وله عدة نوادر أحر من الجمر ، وأدفع من الصخر " [1] ، ويحتفظ له برسالة يتهكم فيها بصاحب له حضر محاصرة شاطبة وأظهر من الجبن والخوف ما جعل ابن طاهر يقول فيه [2] : " ورأيت مآل الأمر بوقوع الحرب وشروع النقب ، وأنه وضعت الملاطيس [3] ، فقلت : الآن حمى الوطيس فأرجو أن يصحب الظفر ، ويسعد القدر ، وحدثت أنه دعيت " نزال " فكنت أول نازل، فقلت لمحدثى : أمجد أنت أم هازل ؟! سيدى أشد بأساً وأعز نفساً ، من أن يرى يوم جلاد ، إلا على ظهر جواد ، فإن لبس زغفاً ، هزم ألفاً ، وإن تقلد صمصامه ، لم يبق هامة ، ولكن أذكره بهذه الشهامة قول أبى دلامة :

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة ... يكر على صفى تميم لولت

وقوله :

إذا صوت العصفور طار فؤاده ... وليث حديد الناب عند الثرائد

وعمد بعض الكتاب إلى التصوير الهزلى فى رسم شخصياتهم ، على النحو الذى نراه فى رسالة ابن عباس الكاتب التى يتندر فيها برسول أبى المغيرة بن حزم ويصوره تصويراً أقرب إلى التصوير الكاريكاتيرى فيتخيله تارة فى زى حاو أو لعاب ، ويتفته بثيابه الواسعة الفضفاضة ، فيقول : [4] " أنهى إلى كتابك رجل طويل القامة ، صعل الهامة ، بعينيه ليانه ، وعلى أسنانه طرامة ، وفى شاشتيه وضارة ، وفى منطقه لكنة صعبة ، وعلى أنفه عقدة

---

[1] الذخيرة ٣ / ١ / ٦٨

[2] نفسه ٣ / ١ / ٦٨ - ٦٩ .

[3] الملاطيس : المناقير من حديد .

[4] الذخيرة ١ / ٢ / ٦٤٥ وما بعدها .

كالكبة ، وفى أطواقه سعة يخرج منكباه من أقطارهما . كأنها ثاب واله . أو شبارق راهب تائه ، وفى مشيته تفج قبيح كأنه عائم فى يبس . وعليه غفارة شفافة شبكية السيدارة ، (١) وأظن العمالقة غزلت صوفها فى زمن الفطحل ... فوحق الطرب وحرقه الأدب لقد هممت أن أوفى الشطارة حقها ، وأسم الخلاعة وسمها ، فأجعل فى يده عكاز قصبة خضراء . وفى رأسه قلنسوة بيضاء وأضع على عاتقه ضرجاً بنخالة ، وأقيم من نفسى ومن حضر عراقة وآلة ، وآخذ به من طرق بنى مرخادى على قارعة المحجة بين الناس . وأقلده سيف الباجى أبى القاسم "

(١) السيداره : القلنسوة بلا اصداغ .

الرسالة الهزلية لابن زيدون :

تعد الرسالة الهزلية لابن زيدون من أكثر الرسائل الأندلسية تعبيراً عن هذا النوع من الهجاء الساخر ، وقد كتبها ابن زيدون على لسان ولادة يسخر فيها من ابن عبدوس غريمه ومنافسه في حبها وتمتزج فيها السخرية بالذم وقد استهلها بقولـــــه [1] : " أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فإن العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنك راسلتني مستهدياً من صلتي ما صفرت منه أيدى أمثالك ، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قواده ، كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إليّ ، وتخلف بعدها عليّ " .

ويصطنع ابن زيدون طريقة الجاحظ في السخرية ، فيخلع على ابن عبدوس ما خلعه الجاحظ على أحمد بن عبد الوهاب في رسالة " التربيع والتدوير من صفات ليست فيه إيغالا في الإزراء به ، وامعاناً في السخرية منه، مكثراً من الأمثلة والشواهد التى تمثل ثقافة ابن زيدون في شتى ضروب المعرفة على نحو ما يبدو في قوله : " ولا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك ، وملتك إذ لم تغر عليك ، فإنها أعذرت في السفارة لك . وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه، قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك والإسكندر قتل دارا في طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف

---

[1] ديوان ابن زيدون ص ٢٣٥ وما بعدها تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية .

لخروجهم عن جماعتك ، والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك ، وشيرين قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك ، وأن مالك بن نويرة إنما ردف لك ، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك .. "

وعلى هذا النحو من التهكم وحشد الإشارات التاريخية والدينية والفلسفية وغيرها يمضى ابن زيدون فى رسالته ، فالسموأل تعلم الوفاء من ابن عبدوس وحاتم الطائى جاد بوفره ، وسحبان أخذ عنه الفصاحة ، وأفلاطون أعطى تلميذه أرسطو فضل علمه ، وبطليموس ابتكر آلة الاصطرلاب على هدى من تفكيره وتدبيره ، ويمعن ابن زيدون فى المبالغة بقصد السخرية من غريمه فهو الذى " أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحد الماهية ، وبين الكيفية والكمية ، وفك المعمى ، وفصل بين الاسم والمسمى ، وصرف وقسم وعدل وقوم ، وصنف الأسماء والأفعال ، وبوب الظرف والحال ، وتصفح الأديان ورجح بين مذهبى مانى وغيلان " وأنه لو شاء خرق العادات ، وخالف المعهودات ، فأحال البحار عذبة وفجر من الحجارة مياهاً رطبة ، ونقل الغد فصار أمساً ، وزاد العناصر فكانت خمساً " . (1)

ومثل هذه المبالغة فى الوصف تستثير القارىء وتدعوه إلى مشاركة ابن زيدون سخريته واستخفافه بابن عبدوس ، وطريقة ابن زيدون هنا تقترب أيضاً من طريقة البلاغيين فى الذم بما يشبه المدح ، غير أن ابن زيدون لا يسير فى هجائه على وتيرة واحدة ، فهو ينتقل من الذم غير المباشر إلى الذم المباشر على نحو ما يبدو فى قوله : " هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة ، سىء الجابة والسمع ، بغيض الهيئة ، سخيف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كثير المعايب مشهور المثالب ، كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة وعلمك مخرقة :

(1) ديوان ابن زيدون ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق [1]

ويمعن ابن زيدون في الاستخفاف والاستهزاء بابن عبدوس حين يقارن بينه وبين من شهروا بالبله والسفه والغباء على مر العصور كما في قوله : " حتى إن باقلا موصوف بالبلاغة إذا قرن بك ، وهبنقة مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك ، وطويسا مأثور عنه يمن الطائر إذا قيس عليك ، فوجودك عدم والاغتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر ، والجنة معك سقر " . [2]

ويعمد ابن زيدون إلى تضخيم الصورة والإضافة إلى حواشيها واستقصاء جوانبها وتتبع جزئياتها ودقائقها لتبدو أكثر سخرية وإضحاكاً كقوله : " وعطرت أردانك ، وجررت هميانك ، واختلت في مشيتك ، وحذفت فضول لحيتك ، وأصلحت شاربك ، ومططت حاجبك ، ورققت خط عذارك ، واستأنفت عقد إزارك .. " [3]

والتشابه واضح بين رسالة ابن زيدون وبين رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التي كتبها إلى أديب " كان يكثر من نقده وذمه وهو أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادي ، واتفق إن كان هذا الأديب قصيراً مملوءاً فنعته بأنه مربع مدور ، واستمر يضفي عليه صوراً ساخرة من الجمال ، وصوراً أخرى من المعرفة ، ووقف منه موقف المتعلم يسأله عن مشاكل الفلسفة والعلم ، وأورد عليه كثيراً من أسماء الرجال في كل ميدان من ميادين الثقافة " . [4]

وقد وصلت رسالة الجاحظ إلى الأندلس في وقت مبكر ، فقد أورد ياقوت على لسان أبي محمد النجيري من قوله : " كنت بالأندلس فقيل لي : إن هاهنا تلميذاً لأبي عثمان الجاحظ يعرف بسلام بن زيد ، ويكنى أبا خلف ،

---

[1] ديوان ابن زيدون ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

[2] نفسه ص ٢٤٢ .

[3] ديوان ابن زيدون ص ٢٤٥ .

[4] ابن زيدون ، تأليف الدكتور شوقي ضيف ص ٤٤ .

فأتيته وسألته عن سبب اجتماعه مع أبى عثمان . ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس فقال : كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبى عثمان . فوقع إلينا كتاب " التربيع والتدوير " له .... " [1]

وأعجب ابن زيدون برسالة الجاحظ ، فحذا حذوه ، واصطنع طريقته فى السخرية والتهكم ، وقلده فى تضمين الشواهد والاقتباس من القرآن والحديث والشعراء والأمثال والتاريخ والفلسفة والعلم ، وأسرف فى هذه الناحية حتى غدت الرسالة معرضاً لإظهار ثقافته ، واستحالت إلى ما يشبه المتن مما حدا بابن نباتة إلى شرحها وفك معمياتها فى كتاب سماه (سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون) .

---

[1] معجم الأدباء ١٠٤١١٦ وما بعدها .

الفصل السادس

المعارك الهجائية بين الشعراء

يعكس شعر الهجاء تلك الخصومات والمعارك الهجائية التى نشبت بين شعراء الأندلس ، وكان الجانب الأكبر من هذا الشعر نتاجاً للمنافسة الأدبية بين الشعراء ، إذ كان كل شاعر يسعى إلى إثبات تفوقه وجدارته حتى يضمن الرواج لبضاعته في سوق الأدب ، وفى قصور الملوك والأمراء ، وكان كثير من الشعراء يتكسبون بالشعر ويعتبرونه بضاعتهم الوحيدة التى تهيىء لهم أسباب العيش والرزق ، وطبيعى أن تشتد المنافسة بين أصحاب المهنة الواحدة حتى تصل إلى درجة العداء والخصومة فى بعض الأحيان .

وترجع هذه الخصومات الشعرية بين شعراء الأندلس إلى عهود مبكرة ، ففى (المغرب) رواية تتحدث عن خصومة وقعت بين الشاعر أبى المخش عاصم ابن زيدون وبين شاعر يدعى (ابن هبيرة) ، وكان أبو المخش مشهوراً بقول الشعر إلا أنه كان جسوراً على الأعراض ، فقطع لسانه هشام بن عبد الرحمن ، وتعرض أبو المخش فى محنته لهجاء الشعراء ، فكانوا يطعنون فى نسبه ، ويتهمونه بالنصرانية ، كما كانوا يعرضون بحادثة قطع لسانه ، وإلى ذلك يشير ابن هبيرة بقوله : [1]

أقلفتك التى قطعت بشوش   دعتك إلى هجائى وانتضالى

وردعليه أبو المخش بقصيدة التزم فيها بالبحر والروى ، لم يبق منها إلا قوله : [2]

سألت وعند أمك من ختانى   بيان كان يغنى عن سؤالى

ويحدثنا (ابن بسام) عن خصومة أخرى نشبت بين أبى حاتم الحجارى وبين شاعر يدعى (ابن أحمد) ، ويحتفظ ببعض قصائد الهجاء التى تبودلت

---

[1] المغرب ٢ / ١٢٣ ، بدائع البداله ص ٢١ .

[2] المغرب ٢ / ١٢٣ .

بينها ، وتقوم معانى الهجاء على ادعاء كل منهما السبق على الآخر فى إجادة الشعر . كما يعرض (ابن أحمد) بلقب الحجارى ، كقوله : [1]

قالوا الحجارى وظنى أنه حجر ... والدر ليس بمنحوت من الحجر
عنى إليك من اشعار لها غرر ... شيرى يباحث بالتحجيل والغرر
بيت ببيت ومصراع بمشبهه ... حتى يصدق خبرى ذائع الخبر

وقد رد عليه الحجارى بقصيدة قال فيها : [2]

قف يا ابن أحمد لا تجمع على غرر ... كوقفة العير بين الورد والصدر
ولا تعرض فعندى كل شاردة ... كالنار تلقى إلى الأشرار بالشرر
إن شئت سلماً فسلماً أو محاربة ... عندى أناة وعندى بطشة القدر

واستمر التراشق بين الشاعرين ، ونظم (ابن أحمد) قصيدة أخرى يشيد فيها بشاعريته ، وينتقص من قدر أبى حاتم وفيها يقول : [3]

أمرت منى جفاء غير مؤتمر ... كالذئب نهنه عدو الضغيم الهصر
والعير مستوقف الأفراس سابقة ... كوقفة العير بين الورد والصدر
إن كنت مستأخراً يوماً فلا عجب ... فوائد الكتب قد أثبتن فى الطرر
وبين فكرى ونفسى كل صائبة ... كالسهم ينفذ بين القوس والوتر

ويعارضه أبو حاتم بقصيدة مماثلة يفخر فيها بشعره ويعرض بمنافسه فيقول : [4]

أنا الحجارى والياقوت من حجر ... والماء ينبع سلسالا من الحجر
وركن مكة فيه ما سمعت به ... تراك تجحد أو تعمى عن النظر
لا تحسب الشعر إلا دوح باسقة ... أصبحت أقطف منها يانع الثمر
لى المحاسن وانظر قلما خفيت ... إلا على جاهل بالشمس والقمر
أخفى عليك ولكن سوف تعرف بى ... ليثاً تكنف ملتفاً من الشجر

---

(1) الذخيرة ٣ / ٢ / ص ٧٥٤ وما بعدها .
(2) نفسه ٣ / ٢ / ص ٧٧٠ .
(3) نفسه ٣ / ٢ / ص ٧٧٠ .
(4) الذخيرة ٣ / ٢ / ص ٧٧٠ .

مــاذا تــريد بنســج هلهلــته يــد   أخشى عليك هجوم القرّ فى صفر

ولا نجـد فـيما أورده ابن بسام من تهاجى الشاعرين أكثر من هذا التفاخر أو هـذه المباهاة بشاعرية كل منهما ، مما أفقد شعرهما كثيراً من توهج الهجاء وحيويته .

وشـهد عصر الطوائـف معـارك هجائـية حامية بين الشعراء وذلك لوجود كـثرة مـن شعراء الهجاء البارزين فى هذا العصر كالسميسر والأبيض وابن صارة وغيرهم بالإضافة إلى اهتمام ملوك الطوائف بالشعراء وإغداقهم الأموال والصلات عليهم ، ممـا أدى إلى وجـود تـنافس قوى بين هؤلاء الشعراء للاستئثار بحظوة الملوك ، وكان المعتمد بن عبَّاد أكثر ملوك الطوائف تقريباً للشعراء وإيثاراً لهم ، فتنافسوا فيما بينهم للظفر بإعجابه ، وأخذ هذا التنافس صوراً عديدة كأن يلجأ أحـد الشعراء إلى الفخر بشعره أمام المعتمد أو أن يعرض بأضرابه الشعراء فيزرى بمكانـتهم ويسعى إلى الانتقاص من شأنهم كما فعل يوسف بن عبد الصمد حين أنشـد قصـيدة أمـام المعـتمد عـرض فيها بمنافسيه من الشعراء أمثال ابن اللبانة والقزاز والحجام وافتخر بشاعريته فقال : [1]

والشــعر بهجــته إذا نطقــت بــه   بــين المحــافل ألســن الأعــيان
مــا كــان قــول الشــعر إلا خطــة   كانــت مراتــبها عــلى كــيوان
حــتى تدنــس ثوبهــا بــزعانف   نشــأت عــلى الأوضــار والأدران
مــن صــنعة القــزاز والجــزار أو   مــن صــنعة الحجــام واللــبان

واحتدمت معارك عنيفة بين شعراء الهجاء البارزين ، وكانت هذه المعارك أشبه بميدان يحاول كل شاعر فيه أن يبرز أقوى ما لديه من أسلحة الهجاء . فلم يترك أحدهم صفة معيبة إلا وألصقها بصاحبه ،فمن ذلك هذه المعركة التى نشبت بـين الأبيض وبين ابن صارة الشنتريني ، وكلاهما هجاء خبيث الهجاء

---

[1] الذخيرة ٣ / ٢ / ص ٨١٤ .

وقد أدى إلى تشابك الشاعرين سخرية ابن صارة من أحد أبيات الأبيض . وذلك حين نظم غزلية كان مما قاله فيها : [1]

كوني على حذر فإن عداتنا ... يترقبونك بالمكان البلقع
فإذا لقيت سراتهم فتقنعي ... حذراً على خلق الهمام الأروع
لفي بنانك بالرداء وسلمي ... تكفي الكريم إشارة بالإصبع

وكان ابن صارة إذا لقي الأبيض لف إصبعه في كمه وسلم عليه تعريضاً بهذا البيت حتى أحرجه ، فكانت تلك هي الشرارة التي أشعلت الحرب بينهما ، فقال ابن صارة يهجو الأبيض : [2]

ومن العجائب أن يكون الأبيض ... بحماره وسط السوايق يركضُ
أنى له تقريبها أو خبها ... ما العير إلا أن يحث فينهض
العير عير مذلة إن لم يهن ... أو لا فما إن فيه عرق ينبض

ورد عليه الأبيض بقصيدة موجعة أفحش فيها وأزرى بشاعريته فقال :

جن ابن صارة والحوادث تعرض ... والكلب في مهوى العصا يتعرض
أغروه أن قالوا شويعر قطعة ... لا شاعر فحل يمر وينقض
ولقد نزوت على القوافي نزوة ... كادت لها أبكارها تتمحض
والله لولا أن يقال تجاهلا ... إني صبوت وإن رأسي أبيض
لجعلت غرمول الحمار بكفه ... حتى يرى هل فيه عرق ينبض

وتذكرنا هاتان القصيدتان – إلى حد ما – بأسلوب جرير والفرزدق في النقائض من حيث محاولة كل منهما الإزراء بصاحبه والانتقاص منه ، ومن حيث النسج والصياغة كما أننا نحس بأن الأبيض حاول أن يركب طريقة الفرزدق في الهجاء وإن كان ثمة فرق كبير بينهما .

---

(1) زاد المسافر ص ١٠٨ .
(2) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٩٠١

وكـان السميسـر أحد بواقع عصره في الهجاء ، فلم يسلم أحد من هجائه ويحـتفظ له ابـن بسـام بقطعـة فـي هجـاء معاصره أبي عبد الله بن الحداد قال فيها :

قـالوا ابـن حـدّادٍ فـتى شـاعر ... قلـت ومـا شـعر ابـن حـدّادِ
أشـعاره مـثل فـراخ الـزنا ... فـتش تجـد أخبـث أولاد

وكان الشعراء يخافون السميسر ويخشون سلاطة لسانه ، حتى لنجد شعراً في هجائه مجهول النسبة والهوية كقول أحدهم : [1]

إن كنـت تهـوى مليحاً ... فـلا تقـل بمعـذر
واهـو الصـغار ففيهم ... عـلى الحقـيقة تعـذر
دع الكـبار لقـوم ... دانـوا بديـن السميسـر

ومن الطريف أن نجد شواعر الأندلس ينزلقن إلى معارك الهجاء ، ويخضن فـيما خـاض فـيه الشعراء ، فقـد هجت مهجة القرطبية ولادة ، رغم ما عرف عـنهما مـن صـلة وطـيدة ، إذ علقـت بهـا ولادة ، وتأدبت عليها ، ولكن وقع بينهما ما اقتضى تغير مهجة على ولادة فهجتها هجاء موجعاً قالت فيه : [2]

ولادة قـد صـرت ولادة ... مـن غـير بعـل ، فضـح الكـاتم
حكـت لـنا مـريم لكـنه ... نخلـة هـذى ذكـر قـائم

وينسـب إلى ولادة شـعر فـي هجـاء ابن زيدون رغم أنه شغف بها حباً ، وخلع فيها عذاره ، وقال فيها القصائد الطنانة والمقطعات ، وفى هجائها تخلع عـلى ابـن زيـدون أقبح الصفات ، كاللواط والزنا والسرقة على نحو ما يبدو في قولها : [3]

ولقبـت المسـدس وهـو نعـت ... تفـارقك الحـياة ولا تفـارق

---

[1] الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٩٤ .
[2] نفح الطيب ٤ / ٢٩٣ .
[3] نفسه ٤ / ٢٠٥ .

فلوطـــــــــى ومـــــــابون وزان ‏ ‏ وديـــــوث وقـــــرنان وســــارق

وتهجوه مرة أخرى هجاء مقذعاً فتقول :[1]

إن ابـــن زيـــدون عـــلى فضـــله ‏ ‏ يعشــــق قضــــبان الســــراويل
لـــو أبصـــر الأيـــر عـــلى نخلـــة ‏ ‏ صــــار مـــن الطـــير الأبابـــيل

كما ينسب لولادة بيتان آخران في هجاء شخص يدعى (الأصبحي) وهما لا يختلفان عما سبقهما من نزوع إلى الفحش كما في قولها :[2]

يـا أصبحي اهـنأ فكـم مـن نعمـة ‏ ‏ جاءتك من ذى العرش رب المنن
قـد نلـت باسـت ابنـك مـا لم ينـل ‏ ‏ بفـــرج بـــوران أبوهـــا الحســـن

وشهد عصر المرابطين معركة حامية بين المخزومي الأعمى وبين نزهون الغرناطية ، وكان الأعمى من أبرز شعراء الهجاء الذين عرفتهم الأندلس ، وقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان شديد القحة والشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً على الأعراض سريع الجواب ، ذكي الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً في ميدان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره "[3] ، وأما نزهون فكانت من أشهر شواعر غرناطة في عصر المرابطين ، وقد بدأت المهاترات الهجائية بينهما عندما اعترضت على معنى بيت أنشده الأعمى في أحد المجالس ووجهت إليه كلاماً عنيفاً نحو قولها : " إن من يجيء من حصن المدور ، وينشأ بين تيوس وبقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم "[4] فأثارت كلماتها الأعمى فهجاها بقوله :

على وجه نزهون من الحسن مسحة ‏ ‏ وإن كان قد أمسى من الضوء عا[illegible]
قواصـــد نـــزهون تـــوارك غيرهـــا ‏ ‏ ومـن قصـد البحر استقل ال[illegible]

(1) زاد المسافر ص ١٠٩ .
(2) نفسه ٤ / ٢٠٦ .
(3) الإحاطة ١ / ٤٣٢ .
(4) نفسه ١ / ٤٣٤ . نفح الطيب ١ / ١٩٢ .

وردت عليه نزهون بقصيدة رمته فيها بأقبح الصفات ، وملأتها بالبذاءة والفحش قالت فيها : [1]

قل للوضيع مقالا ... يتلى إلى حين يحشر

من المدور أنشئت والخرا منه أعطر

حيث البداوة أمست ... في أهلها تتبختر

لذاك أمسيت صبا ... بكل شيء مدور

خلقت أعمى ولكن ... تهيم في كل أعور

جازيت شعراً بشعر ... فقل لعمري من اشعر

إن كنت في الخلق أنثى ... فإن شعرى مذكر

ورد عليها الأعمى بقوله : [2]

ألا قل لنزهون ما لها ... تجر من التيه أذيالها

ولو أبصرت فيشة شمرت ... - كما عودتني - سربالها

ولم تنته هذه المعركة الهجائية بين الشاعرين إلا بتدخل والى غرناطة فى ذلك الوقت أبو بكر بن سعيد . [3]

وكانت نزهون طرفاً فى معركة هجائية أخرى مع ابن قزمان الذى هجاها هو الآخر هجاء مقذعاً ذكره المقرى . [4]

والواقع أن الأعمى ونزهون وابن قزمان كانوا زعماء طبقة من أدباء الأندلس عرفوا بالمجون والتهتك ، والقدرة على الإضحاك والتفنن فيه ، وكانوا لا يتورعون عن الإغارة على الأعراض أو الخوض فى أفحش الأمور فخافهم الناس، واتقاهم الحكام . واختصوا بكثير من الهدايا والطرف اتقاء لألسنتهم . وتحتفظ كتب الأدب ببعض الروايات التى تكشف عن مجونهم وتهتكهم .

---

(1) نفسه ١ / ٤٣٤ .

(2) نفح الطيب ١ / ١٩٣ . المغرب ١ / ٢٢٨ .

(3) نفسه ١ / ١٩٣ .

(4) نفسه ٤ / ٢٩٧ .

ولم يخل (عصر الموحدين) من وجود معارك هجائية بين الشعراء . فقد قامت خصومات بين ابن الأبار وبعض الشعراء [1] ، كما نجد هجاء لابن سهل فيمن رآهم يتطفلون على الشعر [2] ، ولعل أوضح هذه الخصومات ما كان بين ابن مرج الكحل وبين أبى حريزة محفوظ بن مرعى الشريف . إذ يحتفظ صاحب (زاد المسافر) بمقطعات تبودلت بين الشاعرين . وفيها يلصق الشريف صفة الشؤم بشعر ابن مرج الكحل كما يبدو فى قوله : [3]

مالى أرى شعر مرج كحل ... أشأم من ناقة البسوس
فإنما شعره مغير ... شن مغاراً على النفوس

ويردد هذه المعانى فى مقطعة أخرى فيقول : [4]

تبت يدا مرج الكحول فإنه ... أفنى الأنام بشعره المشؤوم
قد أهلك الإسلام شؤم مديحه ... هلا أشار بمدحه للروم

ويدور هجاء ابن مرج الكحل للشريف حول اتهامه بالزندقة والقول بالتعطيل والتحريف . كقوله : [5]

أيا عجباً ما للشريف يذمنى ... ويبغضنى حتى كأنى مسجد
ولا عيب عندى غير أنى مسلم ... وأن اسمى اسم الهاشمى محمد

ويقول : [6]

وغد يرى الصلوات نافلة له ... ويقول بالتعطيل والتحريف

كما يتهمه ابن مرج الكحل بوضاعة النسب وانحطاط الأصل : [7]

---

(١) ابن الابار - حياته وكتبه - ص ١٦٣ .

(٢) ديوان ابن سهل ص ٦٥ .

(٣) زاد المسافر ص ١٢٤ .

(٤) نفسه ص ١٢٤ .

(٥) نفسه ص ١٢٥ .

(٦) نفسه ص ١٢٦ .

(٧) نفسه ص ١٢٥ .

أيـــا ناقصـــاً يدعـــى أنـــه كـــريم الجـــدود شـــريف الســـلف
ألاجـــىء لـــنا بـــأب واحـــد وضـــيع ونحـــن نحـــط الشـــرف

وفـى العصـر الغـرناطى ، نشـبت خصـومة عنيفة بين ابن الخطيب وبين تلميذه ابن زمرك ، ولكن أصداءها لم تنعكس بصورة واضحة فى شعرهما ، وقد أورد (المقرى) قصيدة لابن زمرك قالها بعد وفاة ابن الخطيب وخلع السلطان أبـى العباس أحمـد بـن أبـى سـالم الذى قتل ابن الخطيب فى دولته ، وفيها تعريض بـأحد الـوزراء [1] . وهناك تلميحات وإشارات أخرى تتناثر فى بعض قصائده التى توجه بها إلى محمد الخامس . وهذا ما جعل (بلاشير) يرى أن ابـن زمـرك نـال مـن ابـن الخطيـب بعـد وفاتـه هاجياً ، وأغلب الظن أن هذه الإشـارات ربمـا كـان المقصـود بها الوزير ابن الكاس الذى قامت بينه وبين ابن زمرك عداوة عنيفة . [2]

وكـان للتـنافس التقلـيدى بـين شـعراء الأندلـس والمغـرب أثـر فى احتدام المعـارك الهجائـية بيـنهم ، إذ كـان أنصـار كـل فـريق يدعـون لأنفسهم البروز والسـبق عـلى الآخـرين ، فمـن أمثلة هذه الخصومات ما كان بين أبى عبد الله محمد بن معمر وبين ابن شرف ، وفيه يقول ابن معمر : [3]

قولـوا لشـاعر بـرجة هـل جـاء مـن أرض العـراق فحـاز طـبع الـبحترى
وافـــى بأشـــعار تصـــيح بكفـــة وتقـــول هـــل أعـــزى لمـــن لم يشـــعر
يـــا جعفـــراً رد القـــريض لأهلـــه واتـــرك مـــباراة لـــتلك الأبحـــر
لا تزعمـــن ما لم تكـــن أهلا له هـــذا الرضـــاب لغـــير فـــيك الأبخـــر

كمـا دارت معركة هجائية أخرى بين ابن الياسمين وبين عدد من الشعراء المغاربـة كـأبى العبـاس الجـراوى وأبى الحجاج النمرى الفاسى . واشتهر قول الجراوى فيه : [4]

---

[1] نفح الطيب ٥ / ١٧٧ وما بعدها .
[2] مع شعراء الأندلس والمتنبى ص ٣١٧ .
[3] المغرب ١ / ٤٣٣ .
[4] العصون اليانعة ص ٤٦ .

است الحبارى ورأس النسر بينهما ... لون الغراب وأنفاس من الجعل
خذها إليك بحكم الوزن أربعة ... كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

ورد عليه ابن الياسمين بقوله طاعناً فى نسبه : (1)

يا أعرق الناس فى نسل اليهود ومن ... تأبى شمائله التفصيل للجمل
خذها بحكم اجتماع الذم واحدة ... تغنى عن النعت والتوكيد والبدل

وقد ركز الشعراء فى معاركهم الهجائية على استغلال نقاط الضعف فى منافسيهم لاسيما إذا كانت عيوباً خلقية : كما فى قول أبى زيد ابن أبى العافية فى هجاء ابن العطار القرطبى يعرض بطوله وحوله : (2)

وكيف يفيق ذو صبر قصير ... حليف وساوس حول طوال

وقد راجعه ابن العطار بقصيدة عرض فيها بداء الجرب الذى كان قد أصيب به فقال : (3)

كأنك لم تجرب قط خلقاً ... ولم تعرف بتجربة الليالى
أنسّيت التجارب إذ تجارى ... بهن الجِرْبِيَاءُ مع الشمال
فلا تغفل عن التجريب يوماً ... ولوا عطيت فيه جراب مال
وجرب جاربيتك واختبره ... وجر برجله إن كان قالى
وجار بنيك لا تستحى منه ... ومن نجّار بابك لا تبالى
وأجر بالك الجرباء تبصر ... نجوم الأفق تجرى بانتقال
وجرب أهل جربة تلف قوماً ... أبوا لبس الجوارب والنعال
تجاراً باعة تجروا بزيت ... تسمّوا بالتجار بغير مال
إذا سمعوا بتمر فى جريب ... جروا ببطاء ذى التمر البوالى
إذا جربت هذا الخلق أبدى ... لك التجريب أجربة خوالى
جرى بالنحح دهراً جر بؤساً ... عليك وجار بالنوب الثقال

---

(1) نفح الطيب ٤ / ص ١٧
(2) نفسه ٤ / ص ١٧ ، ١٨ .
(3) نفسه ٤ : ١٨ .

وهي قصيدة جيدة ، لعل أحسن ما فيها أسلوب التعريض والتلميح الذى استغله الشاعر فى مهارة . فهو لم يشأ أن يصرح تصريحاً مباشراً بداء الجرب الذى أصاب مهجوه ، ولم يسف أو يقذع فى استغلال هذه الصفة . وإنما عرض بها تعريضاً مقبولاً بدا فى إكثاره من استخدام مادة (جرب) فى ألفاظه كقوله (تجرب – تجربة – التجارب – الجربياء .... إلخ) حتى لا يكاد يخلو بيت من وجود لفظة أو أكثر تتردد فيها هذه المادة .

ونرى (المنفتل) شاعر إلبيرة في عصر الطوائف يستغل صفة ضعف البصر عند أحد الشعراء فيقول فى هجائه : (١)

إن كنت أخفش عين ... فإن قلبك أعمى
فكيف تنثر نثراً ... أم كيف تنظم نظماً

وكما استغل الشعراء العيوب الخلقية فى أضرابهم ، استغلوا أيضاً ما فى ألقابهم من صفات تدعو للهزء والسخرية ، وتفننوا فى تصيد أوجه الشبه بين هذه الألقاب وبين ما تدل عليه فى الأصل وعقدوا صلات طريفة بين الطرفين فمن ذلك قول بعضهم فى شاعر كان يلقب بالبعيرة : (٢)

قالوا البعيرة يهجونا فقلت لهم ... ماذا دهيت به حتى من البقر
هذا وليس بثور بل هو ابنته ... وأين منزلة الأنثى من من الذكر

وكان أعداء ابن الأباء يلقبونه بـ " الفار " . ووقعت مهاجاة بينه وبين أبى الحسن على بن شلبون البلنسى . فقال يعرض بلقبه : (٣)

لا تعجبوا لمضرة نالت جميـ ... ـع الناس صادرة عن الأبار
أو ليس فأراً خلقة وخليقة ... والفار مجبول على الإضرار

---

(١) المغرب ٢ / ١٨٢ .
(٢) نفح الطيب ٤ / ١٤٤ .
(٣) نفسه ٢ / ٥٩٣

ويتلاعب (المنفتل) تلاعباً ظريفا بلقب ابن ميمون الفراء فيقول : [١]

لابـــن مـــيمون قـــريض　　　زمهريـــر الـــبرد فـــيه
فـــإذا مـــا قـــال شـــعراً　　　نفقـــت ســـوق أبـــيه

وكانت المهن التى يمتهنها بعض الشعراء مجالاً للمهاجاة بينهم ، كاتهام ابن الصائغ لابن زهر الحفيد — وكان طبيباً — بقتل مرضاه كقوله : [٢]

يـــا ملـــك المـــوت وابـــن زهـــر　　　جاوزتمـــا الحـــد والـــنهاية
تـــرفقا بـــالورى قلـــيلا　　　فـــى واحـــد مـــنكما الكفايـــة

واستغل ابن زهر فى ابن الصائغ اشتغاله بالفلسفة فرماه بالزندقة وتوعده بما ينتظره من مصير مؤلم فقال : [٣]

لابـــد للـــزنديق أن يصـــلبا　　　شـــاء الـــذى يعصـــونه أو أبـــى
قـــد وطـــأ الجـــذع له نفسه　　　وصـــوب الـــرمح إلـــيه الشـــبا

---

(١) الذخيرة ١ / ٢ ص ٧٦٠ .
(٢) زاد المسافر ص ١١١ .
(٣) نفسه ص ١١٢ .

الباب الثالث

الجوانب الفنية

سيدور حديثنا عن الجوانب الفنية في شعر الهجاء حول نقطتين أساسيتين هما : لغة الهجاء ، وصوره الفنية . وإن كان هناك ظاهرتان جديرتان بالتسجيل لأنهما تدخلان في نطاق الجوانب الفنية . أما الملاحظة الأولى فهي :

الميل إلى المقطعات :

الغالب على شعر الهجاء الأندلسي هو ميل الشعراء إلى نظم أهاجيهم في مقطعات قصيرة لا تتجاوز الأبيات القلائل ، وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح عند كثير من الشعراء على شاكلة السميسر ، ويشبهه في هذه الناحية ابن صارة الشنتريني ، وقد تنبه ابن بسام إلى هذه الظاهرة في شعره فقال إنه –ابن صارة– " أولع بالقصار فأرسلها أمثالا ، ورشق بها نبالا لاسيما قوارع كدرها على مردة عصره ، وسم بها أنوف أحسابهم ، وتركها مثلا في أعقابهم " [1] . وأشار إلى ذلك مرة أخرى فقال : " ورأيت له عدة مقطوعات في الهجاء تربي على حصى الدهناء " . [2]

وانتحاء المقطوعة أو اتخاذها قالباً للهجاء مذهب ارتضاه بعض الشعراء القدماء لأن ذلك أدعى إلى ذيوع الهجاء وحفظه وعلوقه بالأذهان ، والنأى به عن الإطالة والاستثقال ، وحين قيل للفرزدق : ما اختيارك للقصار ؟ قال لأني رأيتها أثبت في الصدور ، وفي المحافل أحول وقيل للحطيئة : ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها في الآذان أولج ، وفي أفواه الناس أعلق . [3]

وهذا الضرب من الهجاء القصير الذي نجد مثيلاً له في الأدب اليوناني واللاتيني فيما يسمى *Epigram* ، قد انتشر أيضاً بصورة واضحة في القرن الثاني وما بعده " لأن طبيعة الحياة دعت إلى عدم الإطالة في القصائد عموماً ،

---

[1] الذخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٣٤ .

[2] نفسه ٢ / ٢ / ص ٨٣٥ .

[3] الأغاني ٢ / ٣٣ .

فـى حـين أن الهجاء كان يستلزم ذلك ضرورة ليبلغ الشاعر بأبياته القليلة التى يركـز فـيها معـانى محـددة مـا يـرجوه من سرعة إيلام لمهجو ، وما يتمناه من سرعة انتشار هذه الأبيات بين جماهير الناس " [1]

فاتجـاه أغلـب شـعراء الأندلس إلى نظم الهجاء فى مقطوعات قصيرة إنما كـان امـتداداً أو اسـتمراراً لهـذا الاتجـاه الذى اختاره بعض الشعراء القدماء من أمثال الحطيئة وجرير والفرزدق .

التأثر بمذاهب المشارقة فى الهجاء :

وهذه الظاهرة ترتبط بسابقتها ارتباطاً وثيقاً ، فإذا كان نظم أكثر الأهاجى الأندلسية فى مقطعات امتداداً لتيار قديم ، فإن كثيراً من شعراء الأندلس تأثروا بمذاهب المشارقة فى الهجاء ، فركب بعضهم طريقة الحطيئة فى هجاء الذات، وكلـف أكـثرهم بطريقة ابن الرومى فى التصوير الهزلى أو الكاريكاتيرى ، وتأثر آخرون بطريقة ابن حجاج وابن سكرة فى السخف والإحماض ، وترددت أصداء جرير والفرزدق فى الهجاء الأندلسى وإن كانت بصوت خافت ، ولم يقتصر هذا الـتأثير عـلى الشـعر وحـده ، بـل إنـه وجد طريقه إلى النثر أيضاً ، وظهر ذلك بشـكل واضـح فـى الرسالة الهزلية التى انتحى فيها ابن زيدون طريقة الجاحظ فى السخرية .

---

[1] الشعر فى القرن الثانى ص ٣٠١ .

الفصل الأول

لغة الهجاء

- الميل إلى السهولة والبساطة
- النزوع إلى الشعبية
- التأثر بالثقافات الشائعة
- استلهام التراث
- الاحتفاء باللغة

لغة الهجاء :

تتباين لغة الشعر من موضوع إلى آخر . فلغة الغزل بما فيها من رقة وعذوبة وسلاسة تختلف عن لغة المدح بما فيها من قوة وجزالة وفخامة ، وقس على ذلك موضوعات الشعر الأخرى ، فلكل موضوع لغة تناسبه وتوائمه .

ولما كان فن الهجاء يستمد خصائصه ووجوده من عاطفة الغضب ، فمن الطبيعي أن تنعكس هذه الخاصية على لغته ، فتأتي مشحونة بالحدة والتوتر والانفعال ، وتلك صفة عامة تتميز بها لغة الهجاء فى كل عصر ، غير أن هناك سمات فارقة تختلف باختلاف البيئات والعصور ، فإذا كانت لغة الهجاء الجاهلي تتصف بالعنف والقوة ، وتستمد مفرداتها وألفاظها وتراكيبها من طبيعة البيئة الجاهلية بما فيها من صراع ومعارك ، فإن لغة الهجاء الأندلسى قد اتخذت وجهة أخرى تبعاً للتطور الحضارى والزمنى ، فتأثرت بأساليب الحضارة ، وثقافة العصر ، وخضعت لمقتضيات البيئة المتحضرة التى اختلفت اختلافاً بيناً عن البيئة القديمة بما فيها من بداوة وخشونة ، ومن ثم نستطيع أن نجمل خصائص لغة الهجاء الأندلسى فيما يلى :

الميل إلى السهولة والبساطة :

حرص الشعراء الأندلسيون على أن ينظموا أهاجيهم فى لغة بسيطة سهلة لا توعر فيها ولا إغراب ، تمشياً مع الذوق الحضرى وما يستتبعه من رقة وسلاسة ولكى يضمنوا لها الذيوع والانتشار على ألسنة الناس ، فاقتربت لغة الهجاء من لغة الحياة اليومية ، واقتربت من النثرية إلى حد بعيد ، وتضمنت العبارات والألفاظ التى تتردد على ألسنة العامة فى مقام التخاصم أو التشاتم مثل عبارة (فلان أعمى القلب) التى يرددها المنفتل فى قوله يهجو الأخفش الشاعر : [1]

---

[1] المغرب ٢ / ١٨٢ .

إن كنـــت أخفـــش عـــين فـــإن قلـــبك أعمـــى
فكـــيف تنـــثر نـــثراً أم كـــيف تـــنظم نظمـــا

وهذه اللغة السهلة ذات التراكيب النثرية والتى تشبه لغة الكلام العادى نلمسها أيضاً فى قول ابن الياسمين يهجو أبا الحجاج بن نمرى الفاسى : [1]

إنمـــا الشـــأن فقـــيه عـــالم لـــيس يعـــلم
لا تـــراه الدهـــر إلا بغـــريم الـــناس مغـــرم
وإذا صـــلى ريـــاء كـــان فـــيها مـــثل أبكـــم
ذا جوابـــى وهـــو ظـــلم لـــك والـــبادئ أظـــلم

ويستخدم ابن الخطيب تعبيراً مألوفاً يجرى على ألسنة الدهماء ، ولايزال يتردد فى أيامنا هذه ، فيقال (فلان يأكل باليسار وباليمين) دلالة على ما يتصف به من شره وطمع ونهم ، فيقول ابن الخطيب فى هجاء رجل يحتال على الولاية : [2]

حلفـــت لهـــم بـــأنك ذو يســـار وذو ثقـــة وبـــرّ فـــى الـــيمين
ليســـتندوا إلـــيك بحفـــظ مـــال فـــتأكل باليســـار وبالـــيمين

النزوع إلى الشعبية :

الهجاء فن واقعى يفرخ فى أوساط العامة ويذيع وينتشر على ألسنة الدهماء ومن ثم فقد جنحت لغة الهجاء إلى الشعبية فى أساليبها وألفاظها ومعانيها ، وتمثل ذلك فى إكثار الشعراء من استخدام ألفاظ السباب المتداولة على ألسنة العامة ، وصاغوا أهاجيهم فى قوالب شعبية لتكون أدعى إلى الذيوع والرواج ، فمن ذلك هذه التعبيرات التى يرددها ابن الخطيب فى هجائه للوزير ابن أبى الفتح والتى لا تخرج عن الشتائم التى تتردد على ألسنة العامة : [3]

---

[1] الغصون اليانعة ص ٥٠ .
[2] نفح الطيب ٦ / ٤٦٩ .
[3] نفسه ٥ / ١٤١ .

يـا مفـرط الجهـل والغبـاوة لا يحسـب إلا مـن جملـة البقر
يـا نـاقص الديـن والمروءة والعقـ ـل ومجـرى اللسـان بـالهذر
يـا ولـد السحق غـير عكنـتم حديـثه يـا ابـن فاسـد الدبـر
يـا بغـل طاحونـة يـدور بهـا مجـتهد السـير مغمـض البصـر

ومن أمثلة هذه التعبيرات الشعبية قول حبلاص الرندى : [1]

لا تفـرحن بولايـة سـوغتها فالـثور يعلـف أشـهراً كـى يذبحـا

وقول أبى عامر ابن الأصيل : [2]

أكـرم بـه مـن قـائد مـاجد يصـلح لـلحرث ورعـى العجـول

وتتمثل هذه النزعة إلى الشعبية أيضاً فى استخدام الأمثال الشائعة ، كما تتمثل فى الإشارة إلى بعض العادات المستمدة من البيئة وواقع الحياة اليومية ، على نحو ما يبدو فى قول الغزال : [3]

فديـتك مـاذا تحسـب المرء صـانعاً فقلـت ومـاذا يصنع الـدب بالـنحل
يـدق خلاياهـا ويـأكل شـهدها ويـترك للذبـان مـا كـان مـن فضـل

ونلمس ذلك قول أبى عامر بن الأصيل : [4]

مـن كـل حـراث له لحية تدهـن بالشـحم وبالزيـت

ويشير القلفاط إلى عادة الاستيقاظ على صياح الديكة فيقول : [5]

يـا ديـك مـالك لم تصـرخ فتنبهـنا لقـد أسـأت بـنا ديـك الدجاجـات

---

(1) نفح الطيب ٤ / ١٣٢ .
(2) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .
(3) قضاة قرطبة ص ٨٦ .
(4) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .
(5) طبقات الزبيدى ص ٣٠٠ .

التأثر بالثقافات الشائعة :

وتأثرت لغة الهجاء بالثقافات الشائعة على اختلاف أنواعها ، فتسربت مصطلحات النحاة إلى لغة الهجاء ، كقول ابن الياسمين فى هجاء الجراوى :[١]

يا أعرق الناس فى نسل اليهود وما ... تأبى شمائله التفصيل للجمل
خذها بحكم اجتماع الذم واحدة ... تغنى عن النعت والتوكيد والبدل

واستعان بعض الشعراء بصيغ التصغير للتحقير من شأن المهجو كقول إبراهيم بن خلف فى هجاء أحد الكتاب : [٢]

أعرضت عنه فدلانى كويتبه ... من الغرور بحبل جد مضعوف

وأكثر الشعراء من الإشارات الدينية والتلويح ببعض الآيات القرآنية كقول ابن حجاج الإشبيلى : [٣]

على معاذ قرون لويعاينها ... فرعون ما قال:أوقدلى على الطين[٤]

وقول أبى عامر بن الأصيل : [٥]

يحسد فرعون على قوله ... " وهذه الأنهار من تحتى "

ويقتبس الرندى أيضاً من القرآن الكريم فيقول فى أحد الثقلاء : [٦]

تزلزلت الأرض زلزالها ... فقلت لسكانها ما لها
فقالوا أتانا أبو خالد ... فأخرجت الأرض أثقالها

---

(1) دمية القصر ١ / ١٥٥ .
(2) زاد المسافر ص ١٠٣ .
(3) نفسه .
(4) إشارة إلى ما جاء فى سورة القصص آية ٣٨ (وقال فرعون ... فأوقد لى يا هامان على الطين) .
(5) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .
(6) أبو البقاء الرندى ، شاعر الرثاء فى الأندلس تأليف الدكتور رضوان الداية ص ٧٨ .

ويعمد شاعر آخر إلى التلويح بما ورد فى القرآن الكريم من آيات فى التهديد والوعيد ، فيقول فى شأن المتخاذلين عن الجهاد .[1]

فى سورة الحشر آيات مفصلة   فى شأنكم أنزلت لم تعدكم عددا
نعم وفى الكهف فى العشرين خاتمة   تقضى عليكم بأن لا تفلحوا أبدا

وكلف الشعراء بتضمين الأحاديث الدينية كقول ابن سهل[2] يشير إلى الحديث المشهور : " امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار " .

أيا متطفلا فى الشعر يبدو   على وجناته طفل المساء
إذا الضليل يوم الحشر وافى   فلست بداخل تحت اللواء

ويضمن ابن ياسمين حديثاً آخر فيقول فى هجائه لشاطبة :[3]

شاطبة قرية ضنينة   ليست لمن أمها معينة
تهتضم الطيب اهتضاماً   وتأنف الدهر أن تعينه
والخبث المحض تصطفيه   ضداً لما جاء فى المدينة[4]

استلهام التراث :

التفت شعراء الهجاء الأندلسيين إلى تراث القدماء ينهلون منه ، وتمثل ذلك فى تضمينهم أو استعارتهم بعض المعانى الذائعة الصيت فالأبيض يلوح إلى معنى جرير المشهور فى هجاء الأخطل فيقول فى هجائه لشخص يدعى ابن حمدين :[5]

يريد ابن حمدين أن يعتفى   وجدواه أنأى من الكوكب
إذا ذكر الجود حك استه   لبثت دعواه فى تغلب[6]

البيان المغرب ص ١١٠ .
ديوانه ص ٦٥
(٣) زاد المسافر ص ١٣٧ .
اشارة إلى الحديث القائل (المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكير خبثه) .
المغرب ٢ / ١٣٨
يشير على قول جرير .   والتغلبى إذا تنحنح للقرى   حك استه وتمثل الأمثالا

ويضمن الأعمى المخزومي بيتاً شهيراً فيقول : [1]

لابن القصير مع ابنه وصغيره حجج بها سوق الفسوق تقوم
ألقاه يوماً تحت أسود حالك فبدا يعاتبه لذا ويلوم
فأجابه متعجباً وجوابه بيت على مر الزمان قديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ويردد ابن الأبار أحد معاني النابغة المشهورة فيقول : [2]

قل لابن شلبون مقال تنزه غيرى يجاريك الهجاء فجار
إنا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملت برة واحتملت فجار

ويتمثل استلهام التراث أيضاً في تضمين الأمثال العربية القديمة كقول أبى حريز محفوظ بن مرعى الشريف فى هجاء مرج الكحل : [3]

مالى أرى شعر مرج كحل أشام من ناقة البسوس

الاحتفاء باللغة :

واحتفى بعض الشعراء بلغتهم وتأنقوا فيها مظهرين بذلك مهارتهم وتفوقهم اللغوى ، واتخذ هذا الاحتفاء صوراً عديدة كان يعمد بعض الشعراء إلى طريقة التلاعب اللفظي نحو قول ابن خفاجة الذى مر بنا من قبل : [4]

ما إن درى ذاك الدميم وقد شكا من نيل ممتدح ورمح جواد
هل يشتكي وجعاً به في سرة بالسين أم في صرة بالصاد

وكلف بعض الشعراء بتصحيف الألفاظ لتوليد معان جديدة كقول الحضرمى فى هجاء شريش : [5]

---

(1) زاد المسافر ص ١١٨ .
(2) نفح الطيب ٢ / ٥٩٣ .
(3) زاد المسافر ص ١٢٤ .
(4) ديونه ص ٢٣٥ .
(5) المغرب ١ / ٣٠٦ .

شريش ما أنت إلا تصحيف شر يبين

ويتلاعب ابن الخطيب بكلمة (فتح) فيقول : [1]

يا ابن أبي الفتح نسبت عكست فلا بفتح أنت ولا ظفر

وبرع بعض الشعراء في انتقاء الألفاظ المعبرة عن المعنى مثل كلمة (فسكل) التي تعني الفرس الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل والتي استخدمها إبراهيم بن خلف فقال : [2]

فجاء فسكل من لاقيت متنداً أخا عنان عن الأحرار مصروف

وقد يعمد شاعر إلى حرف معين يديره في أغلب ألفاظ البيت أو القصيدة مثل تكرار (القاف) في قول الأبيض : [3]

وصده عن قراع الدارعين بها قرع القواقير أفواه الأباريق

وقد وظف ابن العطار القرطبي اللغة لموضوعه توظيفاً جيداً في القصيدة التي عرضناها من قبل ويقول في مطلعها : [4]

أجل يا نافث السحر الحلال أتاني منك نظم كاللآلى

ويعرض فيها بما أصاب شاعر آخر من داء الجرب ، ويستغل مادة (جرب) المعجمية على اختلاف معانيها ودلالاتها ، ويصوغ منها ألفاظاً ومعاني كثيرة تتردد في كل بيت بل قد تتردد في البيت الواحد غير مرة ، ويصبح حرف الجيم هو مفتاح القصيدة والمهيمن على كل أبياتها .

واعتمد بعض الشعراء على عنصر (التورية) في هجائهم ، كقول ابن رضوان المالقي يورى بكلمة (مالك) :

---

(1) نفح الطيب ٥ / ١٤٠ .

(2) دمية القصر ١ / ١٥٥ .

(3) زاد المسافر ص ١١٢ .

(4) نفح الطيب ٤ / ١٧ .

لا تعــرج عــلى الجــنان بســكنى ولــتكن ســاكناً بمخــزن مــالك

ويوري بكلمة (العود) التي من معانيها (البعير) في هجاء رجل يلقب بهذا اللقب فيقول :

لــئن عــدت نــادوني بعــيراً كمثــلها فقلــت له لا تخش فالعــود أحمــد

ولابن خفاجة بعض مقطعات في الهجاء نلمح فيها أثر الصنعة اللفظية ، كاستخدام المحسنات ، والتزام مالا يلزم مثل قوله [1]

أنــي تطاوتلــني ودونــي بســطتا جــد يســاعدني وجــد يســعد
هــاقد حللــت وللــتقلقل غايــة في حيث يشرف بي ويشرف مقعد
طلت السماك فهل سمعت بحلية تــرقى بهــا نحــو الســماك وتصــعد
إلــزم ثــراك وغــض طــرفك ذلــة فمكانــتي أنــأى علــيك وأبعــد
ولــئن طربــت وقــد عرتــني وعكــة والليــث يــورد والمهــند يــرعد
فقــد استطلت عــلى الكلام بمقــول بــك مــن ذلاقــته المقــيم المقعــد

وتبدو هذه الصنعة أيضاً في قوله في هجاء أسود حسود : [2]

يــا جامعــاً بمســاويه وطلعــته بين الســوادين مــن ظلم ومــن ظلم
أمــثله حســداً فــي مــثله جســداً لقــد تــألف بــين الــنار والفحــم

ومن مظاهر هذه الصنعة كلف بعض الشعراء بتجنيس القوافي لتوليد معان جديدة ولإثراء شعرهم بالموسيقى كقول أحدهم : [3]

هــم الــبرابر لا تــرجو نوالهــم وسل مــن الله تعجيل الــنوى لهــم

---

[1] ديوانه ص ١٤٥ .
[2] نفسه ص ٧٧
[3] أدب الفقهاء ص ١٧٣ .

الفصل الثانى

صور الهجاء الأندلسى

- التأثر بالبيئة
- الثقافات الجديدة
- التراث الدينى
- الموروث القديم

صور الهجاء الأندلسى :

شاعر الهجاء فنان ذو طبيعة خاصة ، فهو يشبه الممثل الذى يقف على خشبة المسرح ليضحك الناس ، والإضحاك – ولا شك – مهمة شاقة ، وموهبة لا تتأتى لكل إنسان ، وكذلك الهجاء ، فهو فن عسير ، ليس بمقدور أى شاعر أن يطرقه إلا إذا رزق قدرة خاصة ، وعيناً لاقطة ، وخيالا نافذاً ، فالهجاء ليس وصفاً ينقل العالم الخارجى فى مهارة وإتقان ، أو مصوراً يحمل فى يده آلة تصوير تلتقط الصور بدقة وبلا إضافات ، ولكن الهجاء فنان ذو خيال خلاق مبدع تذوب المشاهد أمامه وتتلاشى وتتحطم لكى تخلق من جديد ، فهو لا ينقل الصورة كما هى ولكنه يطوعها لموهبته ، ويحتال عليها بوسائل كثيرة ، فيعمد إلى تكبيرها أو تحويرها ، أو تشخيصها ، أو قلبها ونقضها ، أو إضافة زوايا جديدة إليها ، فتصير أقرب إلى الصورة الهزلية الساخرة التى تبعث على الضحك ، ولكنها فى الوقت نفسه تثير الاشمئزاز والنفور ، ولا مجال فى هذه الصور لإعمال الفكر أو قدح الذهن أو الإسراف فى الخيال ، لأن الهجاء " يعتمد فى تأثيره على الوضوح الخلاب الذى يضحك القارىء أول ما يقرأه ، فهو كالنكتة ، إذا لم تفهم إلا بعد تفكير فترت وبردت وذهب بريقها .. ولذلك كان أصحاب الصنعة من الشعراء أقل الناس توفيقاً وإصابة فى هذا الفن " . [1]

وإذا كانت الصورة من العناصر الهامة التى تقوم عليها القصيدة ، فإنها تعتبر أهم العناصر التى تقوم عليها قصيدة الهجاء ، ويمكن أن نجمل أهم خصائص صور الهجاء الأندلسى فى النقاط التالية :

التأثر بالبيئة :

استوحى الهجاءون كثيراً من صورهم من البيئة التى عاشوا فيها على اختلاف مظاهرها وتنوع مشاهدها ، فأثر البيئة المسيحية يتضح فى هذه الصورة

---

[1] الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ٣٤ .

التى يرسمها أبو إسحاق الإلبيرى لأحد الثرثارين ، وفيها يشبه لسانه بجرس أو بناقوس يرن في إحدى البيع .[1]

ولقد عجبت لمؤمن فى شدقه جرس كناقوس ببيعة كافر

ويبدو أثر البيئة الحربية واضحاً فى قول الغزال يهجو امرأة فيشبه صلعتها ببيضة المحارب التى تلمع بين صلال السيوف :[2]

كأنها بيضة الشارى إذا برقت بالمأزق الضنك بين المشرفيات

ويبدو هذا الأثر فى قول ابن صارة فى هجاء شخص قبيح الفم والثنايا فيشبه أسنانه بحد السيف :[3]

يبدو لطرفك منها حين تبصرها سن كمثل مسن الصيقل الفرد

ويستوحى المنفتل صورة البيئة الأندلسية بما فيها من صقيع وزمهرير فيقول فى هجائه لابن ميمون الفراء :[4]

لابن ميمون قريض زمهرير البرد فيه
فإذا بيت بيتاً نفقت سوق أبيه

واستوحى الشعراء صورهم من واقع حياتهم ومما تحفل به معيشتهم من مظاهر وعادات وتقاليد ، فابن هذيل يشبه تهدل أنف ابن قزمان بالقدوم فيقول :[5]

يقرب وجهاً منك فى خلق قربة كأن انهدال الأنف منه قدوم

---

[1] ديوان الإلبيرى ص ٨٠ .
[2] يحيى بن الحكم الغزال ، تأليف صالح البنداق ص ١٨٥ .
[3] الدخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٤٥ .
[4] نفسه ١ / ٢ / ٧٦٠ .
[5] التشبيهات ص ٢٤٩ .

ويشبه ابن وهيب أنف أحد الأشخاص بعود المستراح كما يشبه وجهه في قبحه وشؤمه بإقبال الرزايا : [1]

ووجـــه مــثل إقــبال الـــرزايا وأنــف مــثل عــود المســتراح

ويستمد جعفر بن إبراهيم اللورقي إحدى صوره من عادة انتشرت بين الناس وهي جذُّ فتيل الذبال ليصبح أكثر توهجاً وإضاءة ، فيقول في أحد أصدقائه : [2]

هـــو الســم الــزعاف لشــاربيه وإن أبــدى لــك الأرى المشــورا
ويوســعني أذى فــأزيد حــلماً كمــا جــذ الذبــال فــزاد نــورا

ويسترفد ابن خفاجة إحدى صوره من أحد الأمراض الشائعة في عصره وهو مرض (الفالج) فيقول في ذم خط واستبراد شعر : [3]

لحــى الله أبــياتاً بعثــت دمــيمة فلــو كــن أعضــاء لكــن مخارجــا
معوجـــة أســـطارها وحـــروفها كــأن بهــا مــن بــرد لفظــك فالجــا

ويلتفت الغزال في هجائه لأحد البخلاء إلى عادة نزع الضرس التي يمارسها الحجام فيقول : [4]

فــلم يعطــني مــن مالــه غــير درهــم تكلفــه بعـــد انقطـــاع رجـــائي
كمــا اقــتلع الحجــام ضرســاً صحيحة إذا اســتخرجت مــن شــدة بــبكاء

ويستحضر محمد بن شخيص صورة النفخ في (البوق) أو الضغط في أنبوب الكير فيقول في هجائه لقوم جبلوا على البخل : [5]

كــلما جئــتهم لأنشــد شــعري طمعــاً مـــن نوالهـــم باليســـير

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٩ .
(2) خريدة القصر ٢ / ١٤٥ .
(3) ديوانه ص ٣٥٣ .
(4) التشبيهات ص ٤٠ .
(5) التشبيهات ص ٢٤٢ .

فكــأني وضــعت فلكــة بــوق   فـي فمـي أو ضغطت أنـبوب كـير

ويهجـو أحمـد بـن نعـيم امـرأة فيشبه انتفاخ وجهها بإحدى آلات النفخ الموسيقية فيقول : [1]

كــأن كلــتا صــفحتي وجههــا   ركبــتا مــن كوبــتي نــافخ

ويلتفـت أبـو عـبد الله بـن القزاز إلى صورة غطاء الرأس فيقول في هجائه لأحد الأشخاص : [2]

تبدلــت شــرطياً بصــاحب شــرطة   كـريم نجـار الـنفس ممتـنع الجـار
فأصــبحت كالطــرطور كــان لسـيد   فـأخلق حـتى صـار فـي رأس عـيار

ويستوحي شاعر آخـر عـادة الصيد فـي إحـدى صوره فيقول في هجاء قينة . [3]

وصــيدها الأعــراد فــي خلــوة   ينســيك مــن صــيد الســنانير

ويشـبه عبـيد الله المفجع أحد أصحابه الثقلاء بنهار الصيف في طوله وما يحدثه في النفوس من ضيق وخمول فيقول : [4]

لــنا صــديق مليح الوجــه مقتــبل   ولــيس فــي وده نفــع ولا بــركة
شــبهته بــنهار الصــيف يوســعنا   طـولا ويمـنع عـنا الـنوم والحـركة

وحـين يسـخر العتبي من بغلة الرصافي التي تسير ببطء ومشقة يستحضر صورة العـروس حـين يحمـلها أحـد أقربائها إلى زوجها ويسير بها سيراً هادئاً متريثاً . [5]

يمشــي بهــا الجهــد رويــداً كمــا   يهــدى عــروس الحــي مهديهــا

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٢ . والكوبة : الطبل الصغير . أو آلة موسيقية تنفخ بالفم .
(2) الدخيرة ١ / ٢ / ص ٨٠٤ .
(3) التشبيهات ص ٢٤٦ .
(4) جدوة المقتبس ص ٣٠٤
التشبيهات ص ٢٦٢ .

ويهجو عبد الله بن فرج طفيليا فيشبه اهتداءه إلى موضع الطعام بحاسة الشم القوية عنده ، بشخص يسير ليلا مهتدياً بنجوم السماء : [1]

يقتاده شم القتار بأنفه ... مثل اقتياد النجم للحيران

ويسترفد ابن فرح صورة الخيل الصائمة تأهباً ليوم الرهان في هجائه لطائفة من الطفيليين يلقبون بالإماميين : [2]

فترى الإماميين حول خيامه ... كالخيل صائمة ليوم رهان

وحين يهجو أحد الشعراء أميراً ظالماً يتظاهر بالتقوى ويكثر من التسبيح يشبهه بالجزار الذى يردد اسم الله وهو يتأهب للذبح : [3]

قد بلينا بأمير ... ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فيهم ... يذكر الله ويذبح

وعمد الهجاءون إلى استيحاء صورهم من أجواء الحيوانات فقارنوا بينها وبين مهجويهم في الشكل والهيئة والطبع للتقليل من شأنهم والإزراء بهم ، ولإظهارهم في شكل هزلي يدعو إلى الضحك ، وبرعوا في هذا الجانب براعة كبيرة ، فالمخزومي الأعمى يشبه عيني شخص أحول بعنزتين تنتطحان : [4]

وتزور إحدى مقلتيه لأختها ... كأنهما عنزان تنتطحان

وهيئة أحد الثقلاء تذكر أبا الفرج الرشاش بصورة الفيل : [5]

ما إن جلست إلى جليس مرة ... إلا كأن عليه منك الفيلا

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٥ .

(2) نفسه ص ٢٤٥ .

(3) نفح الطيب ٦ / ٢٦٣ .

(4) خريدة القصر ٢ / ٢٥٦

(5) التشبيهات ص ٢٤٧

وتتردد صورة (الفحل) و (التيس) فى قصائد الهجاء على نحو ما يبدو فى قول ابن الجد فى هجاء ملوك الطوائف . [1]

تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه   له خوار ولكن حشوه خور

ويقول أبو الفرج الرشاش فى هجاء أحد الأشخاص : [2]

إنك لا تعرف الجميل ولا   تفرق بين القبيح والحسن
إن الذى يرتجى نداك لكالحا   لب تيساً من شهوة اللبن

ويشبه ابن الخطيب ابن أبى الفتح ببغل يدير الطاحونة وهو مغمض العينين : [3]

يا بغل طاحونة يدور بها   مجتهد السير مغمض البصر

ويهجو إسماعيل بن بدر مغنية قبيحة الصوت ، فيتخيل أن كلاباً تهارشت فى حلقومها ، ويشبه صوتها بنقيق الضفادع : [4]

فو الله ما أدرى كلاباً تهارشت   بحلقومها أم نقنقت بى ضفادع

ويستحضر الرشاش صورة القرد بما توحى به من دمامة وما ترمز إليه من إيحاءات جنسية ، فيقول فى هجائه لأحد الأشخاص : [5]

ووجهه يحكى لنا القرد فى   صورته قبحاً وفى نعته

---

[1] أعمال الأعلام ص ٢٤١ .
[2] التشبيهات ص ٢٤١ - ٢٤٢ .
[3] نفح الطيب ٥ / ١٤١
[4] التشبيهات ص ٢٤٥ .
[5] نفسه ص ٢٥١

التأثر بالثقافات الجديدة :

تسللت أنماط الثقافات والعلوم الجديدة إلى صور الهجاء ، كقول أحدهم في هجاء مغنية : [1]

كأنها والعود في حجرها حاسبة تنبي بمجدور

ويسخر ابن عبد ربه من مائدة أحد البخلاء فيشبهها بالنقطة التي يلتف حولها المدعوون في دائرة : [2]

ومائدة جسمها لطفه يدل على صفقة خاسرة
فتلك لنا قد غدت نقطة ونحن عليها نرى دائرة

التراث الديني :

واتكأ الهجاءون على التراث الديني ، فاسترفدوا منه كثيراً من صورهم ، فمن ذلك قول أحد الشعراء في هجاء امرأة قبيحة الوجه : [3]

تبدو بوجه ما رآه امرؤ إلا تمنى النفخ في الصور

ويستحضر ابن الخطيب صورة أصحاب الرقيم في هجائه لأهل عصره فيقول : [4]

أدور فلا أرى إلا نياما كأني بين أصحاب الرقيم

ويشبه المنفتل صاحب لبلة في عنفه وقسوته بخدام جهنم : [5]

إن ابن يحيى ضحكة فتوسم واذكر به خدام نار جهنم

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٦ .
(2) نفسه .
(3) التشبيهات ص ٢٤٦ .
(4) نفسه ص ٦١٨ .
(5) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٧٦١ .

وأكثر الشعراء من اقتباس الصور المستمدة من القصص الديني كقول ابن خفاجة في غلام وجهه في حاجة فأبطأ فيها :[1]

أبطأ في سعيه فحاكى | في حالتيه غراب نوح

ويسخر سعيد بن العاص من شخص أخلعه ثوبه فيقول[2]

وثوبه في سالف الزمان | خلعة فرعون على هامان

ويقتبس ابن صارة إحدى صوره من قصة سليمان فيقول في هجاء شخص قبيح الفم :[3]

كأن جن سليمان بنوا فمه | بنيان تدمر بالصفاح العمد

ويسترفد السميسر من قصة إبراهيم فيقول في هجائه لأحد البخلاء :[4]

جاد عن بخل عليّ | تلك في العالم ندرة
فهي كالنار اعترتها | عصر إبراهيم قره

ويشير إلى تفجر المياه من الصخر في قصة موسى فيقول :[5]

جاد نزراً فقبلنا | درهم الساقط بدره
عجب الناس وقالوا | كيف نيلت منه ذرة
هل رأيتم بعد موسى | أحداً فجر صخره

ويسترفد إبراهيم بن أغلب الخولاني صوره مما ورد في سورة (المسد) فيقول :[6]

---

(1) ديوانه ص ٣٧٤ .
(2) التشبيهات ص ٢٥٢ .
(3) الذخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٤٥ .
(4) خريدة القصر ٢ ١٦٨ .
(5) نفسه ٢ / ١٦٨ - ١٦٩ .
خريدة القصر ٢ / ١٦٨ .

سائل بقفصة هل كان الشقى لها … بعلا فكانت له حمـّالة الحطب
تبت يدا كافر بالله ألهبها … فكان كالكافر الأشقى أبى لهب
لمّا زنت وهى تحت الأرض محصنة … رجمتموها اتباع الشرع بالحصب

الموروث القديم :

واستوحى بعض الهجائين صورهم من التراث القديم . كصورة الطلل والرسوم التى استحضرها سليمان بن عبد الله البردى فى قوله

كأن مرجيه المؤمل واقف … على طلل من ساكنى الحى بائد
يسائل منه صامتاً غير ناطق … كمستخبر جهلا رسوم المعاهد

وتتردد صورة الرسم القديم أيضاً عند ابن الخطيب .[1]

عفت أعلام آدابى وعلمى … بهم فبقيت كالرسم القديم

وأكثر بعض الشعراء من ترديد الصور والتشبيهات القديمة كقول ابن حربون :[2]

فمزّقتمْ شملهم فى البلاد … كأنهم جمل أجرب

ويشبه الغزال كاهل امرأة بسنام العيس الذى أصابه الهزال من كثرة السفر والترحال -- وهى صورة قديمة -- فيقول .[3]

وكاهل كسنام العيس جرده … طول السفار وإلحاح القتودات

ويستعير أحمد بن نعيم إحدى صوره من البيئة الصحراوية القديمة فيقول فى هجاء امرأة :[4]

لو كنت نبتاً كنت من حرمل … أو أكلا كنت من الكامخ[5]

---

(1) التشبيهات ص ٦١٨ .
(2) المن بالإمامة ص ٣٦١ .
(3) يحيى بن الحكم الغزال للنداق ص ١٨٥ .
(4) التشبيهات ص ٢٤٠
(5) الحرمل نبت كالسمسم يمتنع على الأكلة . وفى ذلك يقول طرفه : (هم حرمل أعيا على كل الأكل)
والكامخ : نوع من الادام تعيفه الأعراب .

الصور المقذعة والمنفرة :

مال كثير من الهجائين فى شعرهم إلى الإقذاع ، ولم يتورعوا عن صياغة الصور التى تخدش الحياء ، وتثير الاشمئزاز والنفور ، وسنجتزىء فى ذلك ببعض الأمثلة للدلالة على شيوع هذه الظاهرة ، فمن صورهم المقذعة قول ابن صارة : [1]

له فم كحر فى شكل صورته	" ترمى غوار به العبرين بالزبد "

ويقول الأعمى المخزومى فى رجل يطير لعابه إذا تكلم : [2]

لا شىء أشبه من خسيس طباعه	إن حققت بطباع أسد الماء
يمتص أفواه ...... بفقحة	ويبثها فى أوجه الجلساء

ومن هذه الصور قول ابن شهيد فى أحد الكتاب : [3]

وذو عرق ليس ماء الحياء	ولكنه رشح فضل الجنابه
جرى الماء فى سفله جرى لين	فأحدث فى العلو منه صلابه

ولم تسلم صور شاعر كابن خفاجة من صفة الإقذاع ، فحين كتب إليه ابن دراج النحوى شعراً يعرض فيه بسبه وقع ابن خفاجة على ظهر رقعته بقوله : [4]

ومعرض لى بالهجاء وهجره	جاوبته عن شعره فى ظهره
فلئن تكن بالأمس قد لطنابه	فاليوم أشعارى تلوط بشعره

ومن الصور التى تثير التقزز والنفور قول السميسر فى هجاء المرية : [5]

كأنها طست تبر	وبعق الدم فيه

---

(1) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .

(2) زاد المسافر ص ١١٧ .

(3) ديوان ابن شهيد ص ٩٥ .

(4) ديوانه ص ٣٥٢ .

(5) نفح الطيب ٣ / ٣٩٠ .

ونقع على مثل هذه الصور المقززة فى قول ابن صارة : [1]

فإذا شحافاه رأيت خنافساً ... يأوين من فيه إلى المرحاض

ونلمسها أيضاً فى هجاء المنفتل للأفوه الجزار : [2]

تبدو على أضراسه صفرة ... كأنه من فمه قد خرى
حديثه أوحش من وجهه ... وشعره يشبه ذاك الطرى

الصور المعنوية :

واستمد بعض الشعراء صورهم من الأوصاف المعنوية ، ولهم فى ذلك صور جيدة كقول عبادة فى رجل قصير القامة : [3]

وصاحب لى كأن قامته ... أقصر من يوم وصل معشوقى

وقول إدريس بن اليمان العبدرى فى لحية طويلة عريضة : [4]

لو أنها دون السماء سحابة ... لم تخترقها دعوة المظلوم

ونقع فى هجاء الأندلسيين على كثير من الصور التى تتسم بالغرابة والطرافة كقول ابن بليطة فى ساق أحدب أسود اللون : [5]

وإذا سعى بالكأس تحسبه ... جعلا يدحرج فص ياقوته
وكأنه والكأس فى يده ... نجم رمى فى الجو عفريته

وعلى هذا النحو تراوحت صور الهجاء الأندلسى بين الطرافة والإغراب والميل إلى الإقذاع والتأثر بالبيئة والاتكاء على التراث الدينى والموروث القديم .

---

(1) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .
(2) نفسه ١ / ٢ / ٧٦٠ .
(3) التشبيهات ص ٢٤٨ .
(4) المغرب ١ / ٤٠٠ .
(5) الذخيرة ١ / ٣ / ٧٩٦

الخاتمة

الخاتمة

يمكن أن نجمل أهم نتائج هذه الدراسة فى النقاط التالية :

أولاً : أن سوق الهجاء الأندلسى كانت رائجة بخلاف ما توهم كثير من الباحثين فتنوعت موضوعاته وتعددت ، ولولا إعراض بعض نقاد الأندلس عن إثبات الهجاء فى مؤلفاتهم لظفرنا بقدر كبير من شعر الهجاء .

ثانياً : كان الهجاء السياسى أكثر اتجاهات الهجاء الأندلسى رواجاً وازدهاراً لارتباطه بدوافع سياسية فرضتها ظروف الأندلس وقد تنوعت موضوعات الهجاء السياسى فكان هناك هجاء الملوك والحكام والهجاء القبلى وهجاء اليهود وهجاء الفرنجة وهجاء البربر .

ثالثاً : اتسع مفهوم الهجاء الأندلسى وتطور تبعاً للتطور الحضارى ، فلم يعد الهجاء محدوداً بنزعة قبلية أو هجاء شخصى بل اتسع نطاقه فتوزع بين هجاء سياسى واجتماعى وملاحاة بين الشعراء وشمل هجاء المدن والمظاهر الحضارية والمغنين والعلماء ومال إلى الدعابة والتظرف تأثراً بروح الحضارة.

رابعاً : لم يعمد الشعراء الأندلسيون فى هجائهم إلى السب المباشر بل اتجه كثير منهم إلى رسم الصور الكاريكاتورية الساخرة التى تقوم على التجسيم والتضخم والبراعة فى لمح الدقائق والعيوب التى تثير السخرية والإضحاك.

خامساً : لم يقتصر الهجاء الأندلسى على القصيدة الشعرية وحدها بل تجاوزها إلى النثر وإلى أشكال أدبية أخرى كالموشح والزجل .

سادساً : وجد شعراء أندلسيون قامت شهرتهم على الهجاء كالسيسر والأبيض وابن حزمون والمخزومى الأعمى وغيرهم .

سابعاً : لم ينفرد الشعراء وحدهم بفن الهجاء بل شاركهم فيه شواعر أندلسيات مثل نزهون ومهجة وولادة وغيرهن .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع :

١- ابـن الأبـار - حـياته وكتـبه - تألـيف عـبد العزيـز عبد المجيد ط. تطوان ١٩٥٤ .

٢- الإحاطـة فـى أخـبار غـرناطة ، لسـان الديـن بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ .

٣- اختصـار القـدح المعـلى فـى الـتاريخ المحـلى ، ابـن سعيد ، تحقيق الإبيارى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٤- الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٥- أدب الفقهاء ، عبد الله كنون ، ط . دار الكتاب اللبنانى .

٦- أزهـار الـرياض فـى أخـبار القاضـى عياض ، المقرى ، تحقيق السقا والإبيارى وشلبى ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٧- أساس البلاغة ، الزمخشرى ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٨- أعمـال الأعـلام فـيمن بويـع قـبل الاحتلام من ملوك الإسـلام ، لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ .

٩- الأغانى (جـ٢) ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .

١٠- ابـن ريدون ، د. شوقى ضيف (سلسلة نوابغ الفكر العربى) ط. دار المعارف بمصر . الطبعة الثانية .

١١- أبو البقاء الرندى شاعر رثاء الأندلس . د. محمد رضوان الداية ، ط. مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٦

١٢- بدائع البدائه ، ابن ظافر ، ط. بولاق ، ١٢٧٨ هـ .

١٣- بغية الملتمس ، الضبى ، ط. مجريط ، ١٨٨٤

١٤- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، ابن عبد البر القرطبى ، القسم الثانى ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، ط. دار الكاتب العربى بالقاهرة .

١٥- البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، ابن عذارى:

أ : القسم الثالث ، تحقيق هويس مرانده ، ط. تطوان ١٩٦٠.

ب : الجزء الثالث ، تحقيق ليفى بروفنسال ،باريس ، ١٩٣٠.

١٦- تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٩ .

١٧- تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين - د. إحسان عباس ، بيروت .

١٨- تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ط. مجريط ، ١٨٦٨ .

١٩- تاريخ مسلمى أسبانيا (الحروب الأهلية) ، دوزى ، ترجمة د. حسن حبشى ، ط. دار المعارف ١٩٦٣ .

٢٠- تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ، د. محمد زغلول سلام ، ط. دار المعارف . القاهرة ، ١٩٦٢

٢١- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ابن الكتانى ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار الشروق . بيروت ١٩٨١

٢٢- التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، د. شوقى يف ، ط. دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨١ .

٢٣- التكملة لكتاب الصلة ، ابن الأبار . مجريط ، ١٨٨٦ .

٢٤- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، تحتيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٢٥- جذوة المقتبس ، الحميدى ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٢٦- حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٧- الحلة السيراء ، ابن الأبار ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٢٨- الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة .

٢٩- خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الأصفهانى (قسم شعراء المغرب) ، تحقيق محمد المرزوقى وآخرين ، ط. تونس ١٩٧١ - ١٩٧٣ .

٣٠- دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، د. الطاهر مكى . ط. دار المعارف ، القاهرة .

٣١- دراسات فى الأدب العربى ، العصر العباسى - د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

٣٢- درة الحجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي ، تحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور ، نشر دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٣٣- دمية القصر وعصرة أهل العصر ، الباخرزى ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ط. دار الفكر العربى ، القاهرة .

٣٤- ديوان أبى إسحاق الإلبيرى ، تحقيق د. محمد رضوان الداية ، ط. بيروت ، ١٩٧٦ .

٣٥- ديوان ابن حمد يس ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. بيروت ١٩٦٠.

٣٦- ديوان ابن خفاجة ، تحقيق د. السيد مصطفى غازى ، الإسكندرية ، ١٩٦٠ .

٣٧- ديوان ابن زيدون ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، ط. البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٣٨- ديوان ابن سهل ، ط. بيروت ١٩٦٧ .

٣٩- ديوان ابن شهيد ، تحقيق يعقوب زكى ، ط. دار الكاتب العربى ، القاهرة .

٤٠- ديوان المعانى ، لأبى هلال العسكرى ، ط. مصر ١٣٥٢ هـ .

٤١- ديوان ابن هانىء ، تحقيق كرم البستانى ، ط. دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٢ .

٤٢- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

٤٣- الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، عبد الملك المراكشى ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. بيروت ٦٤ / ١٩٦٥

٤٤- الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى ، ابن حزم . تحقيق د. إحسان عباس ، القاهرة ١٩٦٠

٤٥- رسائل ابن حزم ، تحقيق د. إحسان عباس ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

٤٦- روض القرطاس ، ابن أبى زرع ، فاس ، ١٣٠٣ هـ .

٤٧- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، صفوان بن إدريس ، تحقيق عبد القادر محداد ، بيروت ١٩٧٠ .

٤٨- الشعر الأندلسى (بحث فى تطوره وخصائصه) ، غرسيه غومس ، ترجمة د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٤٩- الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ، د. فوزى عيسى ، الهيئة المصرية للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .

٥٠- الشعر العربى فى صقلية ، د. فوزى عيسى ، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .

٥١- الشعر فى ظل بنى عباد ، محمد مجيد السعيد ، مطبعة النعمان ، العراق ، ١٩٧٢ .

٥٢- الشعر فى القرن الثانى الهجرى ، د. محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف .

٥٣- صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الرابع عشر .

٥٤- طبقات الأمم ، القاضى صاعد ، ط. مصر .

٥٥- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحى ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة .

٥٦- طبقات النحويين واللغوين ، الزبيدى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

٥٧- العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ٥٢ — ١٩٦٥ .

٥٨- عقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، النواجى ، مصورة عن مخطوطة الاسكوريال .

٥٩- الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، ابن سعيد ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ط . دار المعارف ، الطبعة الثالثة .

٦٠- فن الهجاء ، إيليا حاوى ، بيروت .

٦١- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د. شوقى ضيف ، ط. دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٦٢- فهرسة ابن خير ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٣ .

٦٣- فى الأدب الأندلسى ،د. جودت الركابى ، ط. دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٠ .

٦٤- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، الخشنى ، ط. مصر ، ١٣٧٢ هـ .

٦٥- قلائد العقيان ، الفتح بن خاقان ، ط. مصر ١٢٨٣ هـ .

٦٦- لسان العرب ، ابن منظور ، ط. الدار القومية ، القاهرة .

٦٧- مجلة عالم الفكر ، المجلد الثانى عشر ، ١٩٨١ .

٦٨- محمد بن عمار الأندلسى ، د. صلاح خالص ، ط. بغداد ، ١٩٥٧ .

٦٩- مذكرات الأمير عبد الله (التبيان) ، تحقيق ليفى بروفسال ط. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٧٠- مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، الفتح بن خاقان ، ط. الجوائب ، ١٩٠٢ .

٧١- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشى ، تحقيق العريان وآخرين ، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٧٢- معجم الأدباء ، ياقوت الحموى ، ط. مصر .

٧٣- معجم السفر . السلفى ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٢١٦ تاريخ .

٧٤- مع شعراء الأندلس والمتنبى (سير ودراسات) ، غرسيه غومس ، تعريب ، د. الطاهر مكى ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٩٧٤ .

٧٥- المغرب فى حلى المغرب ، ابن سعيد ، تحقيق د. شوقى ضيف ، ط. دار المعارف ، القاهرة .

٧٦- المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، ابن حيان ، تحقيق د. محمود مكى، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧١ .

٧٧- المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، ابن حيان ، تحقيق د. عبد الرحمن الحجى ، ط دار الثقافة . بيروت . ١٩٦٥

٧٨- المن بالإمامة على المستضعفين ، ابن صاحب الصلاة ، تحقيق د. عبد الهادى التازى ، بيروت ، ١٩٦٤

٧٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، المقرى ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٨٠- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد عيسى منون ، القاهرة.

٨١- نقد النثر ، تحقيق د. طه حسين والعبادى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٧ .

٨٢- نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٨٣- الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ، د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، الطبعة الأولى .

٨٤- الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، الطبعة الأولى .

٨٥- وفيان الأعيان وأنباء أبناء الزمان . ، ابن خلكان ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٨٦- يحيى بن الحكم الغزال ، محمد صالح البنداق ، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٩٧٩ .

٨٧- The Moors in Spain, Stanly Lane - Poole, London, 1920

الفهرس

الفهـــــرس

الباب الأول

(مراحل تطور الهجاء) ٩

الهجاء بمعناه اللغوى والأدبى ١١

العوامل المؤثرة فى الهجاء الأندلسى ١٦

العوامل السياسية ١٦

العوامل الاجتماعية ١٧

أثر البيئة المتحضرة ١٨

التكسب بالهجاء ١٨

نقاد الأندلس والهجاء ٢٠

الباب الثانى

(اتجاهات الهجاء الأندلسى) ٢٧

الفصل الأول

الهجاء السياسى ٣١

هجاء الملوك والحكام ٣٤

الهجاء القبلى ٥٨

هجاء البربر ٦٢

رسالة الشقندى فى الدفاع عن الأندلس ٦٨

هجاء اليهود ٧٢
هجاء الشعوبية ٨٠
رسالة ابن غرسية ٨٤
رد ابن الدودين البلنسي على رسالة ابن غرسية ٨٩
رد ابن من الله ٩٢
رد يحيى بن مسعدة ٩٤
هجاء الفرنجة ٩٧

الفصل الثاني

هجاء أصحاب المناصب الرسمية ١٠٣
هجاء الوزراء ١٠٥
هجاء الولاة والعمال ١٠٩
هجاء القضاة ١١٢
هجاء الفقهاء ١١٥

الفصل الثالث

هجاء العلماء وأصحاب المهن ١١٩
هجاء المعلمين والمؤدبين ١٢١
هجاء النحاة ١٢٢
هجاء الفلاسفة ١٢٢
هجاء أصحاب العلوم الطبيعية ١٢٧

هجاء الكتاب ١٢٩

الفصل الرابع

الهجاء الاجتماعى ١٣٣

نقمة الفرد على المجتمع ١٣٥

الرذائل الخلقية ١٣٨

التصدى لمظاهر الفساد ١٣٩

هجاء البخلاء ١٤١

هجاء الأهل والأقارب ١٤٣

هجاء المظاهر الحضارية ١٤٦

هجاء المغنين والمغنيات ١٤٨

هجاء المدن ١٤٩

الفصل الخامس

هجاء التندر والسخرية ١٥٣

التندر بالمؤدبين والقضاة والبخلاء ١٥٥

هجاء الذات ١٦٢

العيوب الخلقية ١٦٤

الرسالة الهزلية لابن زيدون ١٧١

الفصل السادس

المعارك الهجائية بين الشعراء ١٧٥

الباب الثالث

الجوانب الفنية لشعر الهجاء ١٨٩

الفصل الأول

لغة الهجاء ١٩٣

الميل إلى السهولة والبساطة ١٩٥

النزوع إلى الشعبية ١٩٦

التأثر بالثقافات الشائعة ١٩٨

استلهام التراث ١٩٩

الاحتفاء باللغة ٢٠٠

الفصل الثانى

صور الهجاء الأندلسى ٢٠٣

التأثر بالبيئة ٢٠٥

التأثر بالثقافات الجديدة ٢١١

التراث الدينى ٢١١

الموروث القديم ٢١٣

خاتمة ٢١٧

المصادر والمراجع ٢٢١

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://www.facebook.com/books4all.net

تم بحمد الله

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية